فن التشبيه

بلاغة . أدب . نقد

الجزء الثاني

تأليف

علي الجندي

كلية دار العلوم . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٩٥٢



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

شارع كامل باشا صدقي « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

« الرَّحمٰنُ . علَّمَ القُرْءانَ . خلقَ الإنْسٰن . علَّمه البيانَ »

قرآن كريم

الفصل الأول

التشابه

المتبادر من صيغة التشبيه ، أنها تفيد إلحاق الناقص بالزائد فى وجه الشبه حقيقة أو ادعاء ، ولهذا يقول المعرى :

ظلمناك فى تشبيه صُدغيك بالمسك ... وقاعدةُ التشبيه نقصانُ ما يحكى

وصحَّ أن نسمع قول على بن عبد الرحمن المنجم :

شبّهتُها بالبــدر فاستضحكت ... وقابلت قولىَ بالنُّكر
وسفّهت رأيى وقالت متى ... سُمجت حتى صرت كالبدر
البــدر لا يرنو بعين كما ... أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يُميط المِرط عن ناهد ... ولا يشُدّ العقد فى نحر[1]
من قاس بالبدر صفاتى فلا ... زال أسيراً فى يدىْ هجرى

ولكن قد يحدث أن الشاعر مثلا لا يريد إلحاق الناقص بالزائد فى وجه الشبه ، بل يريد مجرد الجمع بين شيئين فى أمر من الأمور ، والقصد من ذلك الأمر إلى القدر الذى اشتركا فيه واستويا فى نصيبهما منه ، دون نظر إلى زيادة أحدهما على الآخر ، وإن كانت الزيادة موجودة بالفعل ، لاقتضاء المقام المبالغة فى ادعاء التساوى .

أو لأن الغرض إفادة أصل الاشتراك فيلغى الزائد — إن كان — فيتحقق التساوى فى المراد بين الطرفين .

---

(١) المرط بالكسر : كساء من صوف أو خز تتلفع به المرأة .

وللوصول إلى هذه الحال يحسن ترك التشبيه ، لأن صيغته تقتضى ترجيح أحد المتساويين على الآخر — وهو غير مراد هنا — ويُعدل عنه إلى التشابه ، وما وازن هذه الصيغة من التماثل والتساوى والتضارع ، إلى غير ذلك من الأفعال اللازمة ، لأن المتعدية مثل شابه تفيد إلحاق الناقص بالكامل ، دون صيغة « التفاعل » الذى يقتضى حصول مدلوله من الجانبين فيكون كل من الأمرين مشبّها ومشبهاً به من غير تفضيل لأحدهما على الآخر احتراز من ترجيح أحد المتساويين فى وجه الشبه ، لأنه غير مختص بأحد الطرفين بزيادة اختصاص .

وقد مثل الخطيب[1] لذلك بقول الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومُدامتى ... فمن مثل ما فى الكأس عينىَ تشرب
فوالله ما أدرى أبالخمر أسبَلت ... جفونىَ أم من عَبرتى كنت أشرب[2]

فإنه لما اعتقد التساوى بين الدمع والخمر ، ولم يقصد أن أحدهما زائد فى الحمرة والآخر ناقص ملحق به ، حكم بالتشابه وترك التشبيه .

وقول مروان بن أبى حفصة فى معن بن زائدة :

تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فما نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه ... وما منهما إلا أغر محجَّل

وقول الصاحب بن عباد :

رقّ الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

ومن طريف التشابه قول ابن مطروح :

كيف السبيل إلى وصال محجَّب ... تحمى ملاحته ظُباً وصِعاد

(١) الإيضاح — ١٧٤ (٢) أسبلت : أمطرت .
(٣) الصعاد : القنوات المستوية جمع صعدة بالفتح .

حرسوا مهفهف قده بمثقَّف فتشابه المَيَّاس والمَيَّاد

وقول عبد الرحمن بن عبد الرازق الأندلسي :

كأن ماء الحسن في وجهه مدامة شعشعها المازج
عنوان ما في ثوبه وجهُه تشابه الداخل والخارج
فلا تَقيسوه ببدر الدجى ذا مُعلَم الوجه وذا ساذَج

وقول شرف الدين بن الحلاوي :

وبدت نظائر ثغره في قرطه فتشابها متخالفين فأشكلا
فرأيت تحت البدر سالفة الطَّلا ورأيت فوق الدر مسكرة الطِّلا

شبه عنقه تحت وجهه بعنق الظبي الوليد تحت البدر ، وشبه ريقه فوق ثناياه بالخمرة .

وقول شوقي :

فيارب وجه كصافي النَّمير تشابه حامله والنَّمِر

ويجوز مع ذلك التشابه ، قصد التشبيه أيضا ، لأنهما وإن تساويا في وجه الشبه بحسب قصد المتكلم ، فإنه لا يمتنع أن يجعل أحدهما مشبها والآخر مشبهاً به ، لإمكان ترجيح أحد المتساويين باعتبار ، كقول ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينا ر جلته حدائد الضرَّاب

فإن بين الشمس والدينار المجلو تفاوت هائل في النور والجرم ، ولكن هذا التفاوت غير منظور إليه ألبتة ، وإنما أريد استدارة متلألىء متضمن لخصوص في اللون .

ولا شك أنهما تساويا في هذا المعنى .

(١) المثقف : يريد به الرمح .

وكذلك قوله :

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم

شبه الصبح فى الظلام بعلم أبيض على ديباج أسود ، فوقع التشبيه حسنا مقبولا ، وإن كان التفاوت فى المقدار بين الصبح والطراز فى الامتداد والانبساط شديداً .

وقد اجتمع فى المثالين السابقين :

« تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى . . . . . »

و « رق الزجاج وراقت الخمر . . . . . »

صيغة التشابه والتشبيه معا .

أما التشابه فقد مر بيانه .

وأما التشبيه ففى قوله :

« فمن مثل ما فى الكأس عينىَ تشرب »

وقوله :

« فكأنما خمر ولا قدح »

وذهب ابن السبكى مذهبا خالف فيه الخطيب ، فقرر : أن التشابه قسمان :

١ — تشابه يقصد به التساوى حقيقة أو ادعاء ، كما فى قوله :

« تشابه دمعى . . . . . »

٢ — تشابه يراد منه مجرد الجمع ، كما فى قوله :

« وكأن الشمس المنيرة . . . . »

والأحسن فى الأول التشابه ، واستعمال التشبيه فيه خلاف الأصل .
ويجوز فى الثانى التشابه والتشبيه .

أما التشابه فلإرادة مجرد الجمع ، وأما التشبيه فلرعاية كون الوجه المشبه به أتم باعتبار الخارج .

ثم يقول : هذا هو التحقيق وإن كان فيه مخالفة لظاهر كلام المصنف وغيره[١].

ويرى المرشدى : أن أسلوب التشابه ، دون قلب التشبيه فى المبالغة وفوق التشبيه المتعارف ، لأن فى المتعارف اعترافا بالنقصان ولا كذلك فى التشابه .

ويرى كذلك أنه ينبغى أن يشترط فى التشابه عدم شهرة أحد الطرفين عن الآخر[٢] .

ومن بديع التشابه الذى جاء بعضه مطوياً قول الصاحب :

متغايرات قد جُمعن وكلها ... متشاكل أشباحها أرواح
وإذا أردت مصرِّحا تفسيرها ... فالراح والمصباح والتفاح
لم يعـــلم الساقى وقد جُمِّعن لى ... من أى هذى تُملأ الأقداح

وقول طاهر العتابى :

ويا ليلة قد بت أهزم بردها ... بجيشين من خمر عتيق ومن جمر
فطوراً أظن الخمر من ذوب جمرها ... وطوراً أظن الجمر من جَمَد الخمر

وقول بن سناء الملك :

فتحيرت أحسب الثغر عقداً ... لسليمى وأحسب العقد ثغراً
فلثمت الجميع قطعاً لشكى . ... وكذا فعل كل من يتحرّى

وقول آخر :

قلت لخلى وثغور الرُّبا ... مبتسماتٌ وثغور الملاح

---

(١) عروس الأفراح ــ ٣ ــ ٤١٢ ــ ٤١٦ (٢) شرح المرشدى ــ ٢ ــ ٢٣ .

أيهما أحلى – ترى – منظَراً   فقال لا أعلم كل أقاح

ومن الروائع قول ابن خفاجة الأندلسى :

تعلّقته نشوانَ من خمر ريقه   له رشفها دونى ولى دونه السُّكر

تُرقرق ماءً مقلتاى ووجهُه   ويذكو على قلبى ووجنته الجمر

أرقَّ نسيبى فيه رقةُ حسنه   فلم أدر أىٌّ قبلها منهما السحر

وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما   له منطق ثغر ولى ثغره شعر



الفصل الثاني

تشبيه التمثيل

تشبيه التمثيل : هو ما كان وجهه منتزعا من متعدد : أمرين أو أكثر ؛ بأن يكون لكل من الطرفين كيفية حاصلة من مجموع شيئين أو أشياء قد تضامّت وتلاءمت حتى صارت شيئا واحدا ، فيعمد الشاعر إلى أجزاء الطرف المشبه فيشبهها مع الهيئة الحاصلة من تركيبها بالطرف الآخر كذلك .

والتسمية اصطلاحية .

والمهم فيه تركيب الوجه سواء أكان طرفاه مفردين أم مركبين أم مختلفين .

والفرق بينه وبين التشبيه الصريح : أنك بالتمثيل فى حكم من يرى صورة واحدة ، إلا أنه يراها تارة فى المرآة وتارة على ظاهر الأمر .

وأما فى التشبيه الصريح فإنك ترى صورتين على الحقيقة ؛ يبين ذلك أننا لو فرضنا أن تزول من أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام فى القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة ، لم يمكننا تخيل شيء من تلك الأوصاف فى الأشياء المعقولة ، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيدا من حيث العزة والسلطان ، قريبا من حيث الجود والإحسان ، حتى يخطر ببالك وتطمح بفكرك إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك وقرب نوره منك ، وليس ذلك فى الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر ، فإنك لا تفتقر إلى معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته وتوسط أحمره لأبيضه ، إلى تشبيهه « بمداهن در حشوهن عقيق » .

كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه فى قليل المشاهدة ، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التى معك ، ويجتلبها ولكن من مكان بعيد حتى تراهما معا وتجدهما جميعا [١].

مذاهب العلماء فيه .

وللعلماء فيه مذاهب أربعة :

١ — مذهب الجمهور — ومن بينهم الخطيب — ولا يشترطون فيه غير تركيب الوجه سواء أكان التركيب حسيا أم معنويا ، وهو المذهب المشهور.

٢ — مذهب الزمخشرى ، وهو أنه مرادف للتمثيل فكل تشبيه عنده تمثيل حتى لو كان وجه الشبه مفردا .

وقد قدمنا فى تعريف التشبيه أن هذا هو رأى ابن الأثير أخذا من التعريف اللغوى .

٣ — مذهب عبد القاهر ، ويشترط فيه بعد التركيب ألا يكون حسيا، بأن يكون عقليا أو اعتباريا محضا لا وجود له إلا فى الأذهان والأوهام .

وسمة وجه الشبه التمثيلى عنده : أنه ما لا يحصل فيه الشبه إلا بضرب من التأول ، كتشبيه الحجة بالشمس فى الظهور ، فهذا الشبه لا يتم إلا بتأول ، وهو أن الشمس يحول دون رؤية العين لها حجاب ، ومثل الحجاب : الشبهة فيما يدرك بالعقول ، لأنها تمنع القلب رؤية ما هى شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه ، فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذى هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم ، قيل : هذا ظاهر كالشمس : أى ليس ههنا مانع من العلم به ، وأن المنكر له إما مدخول فى عقله ، أو جاحد مباهت ومسرف فى العناد ، كما أن الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصر .

(١) أسرار البلاغة — ١٩١ — ١٩٢

فقد احتجت فى تحصيل الشبه الذى أثبته بين الحجة والشمس إلى مثل هذا التأول [١].

وعلى هذا فكل ما لايحتاج إلى تأول لا يعد تمثيلا عند عبد القاهر بل تشبيها ولو كان منتزعا من عدة أمور كالمركبات الحسية ، مثل قول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا　　مداهن در حشوهن عقيق

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها　　قدم تبدّت من ثياب حداد

إلى غير ذلك من المركبات الحسية .

٤ — مذهب السكاكى ، وقد اشترط فيه ألا يكون حسيا ولا عقليا بل وصفا غير حقيقى : أى غير متحقق حسا ولا عقلا ، بأن يكون اعتباريا وهميا [٢] .

ونص عبارته : واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفا غير حقيقى وكان منتزعا من عدة أمور خص باسم التمثيل [٣] .

وقد مثّل السكاكى للوصف غير الحقيقى المنتزع من متعدد بعدة أمثال. منها قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسو　　د فإن صبرك قاتلهْ
كالنار تأكل بعضها　　إن لم تجد ما تاكله

فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته — مع رغبته الجامحة فى ذلك ليشفى غليله — بالنار التى تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا فى أمر متوهم .

وقول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدّبته فى الصِّبا　　كالعود يُسقَى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا　　بعد الذى أبصرت من يُبسه

(١) أسرار البلاغة — ٦٧ — ٦٨ .
(٢) حاشية الدسوقى —٣— ٤٣٣ .
(٣) مفتاح العلوم — ١٨٦ .

فإن تشبيه المؤدب فى صباه بالعود المسقى أوان الغرس المونق بأوراقه ونضرته ، ليس إلا فيما يلازم كونه مهذب الأخلاق مرضى السيرة حميد الفعال ، بسبب التأديب المصادف وقته من تمام الميل إليه وكمال استحسان حاله ، وأنه — كما ترى — أمر تصورى لا صفة حقيقية ، وهو مع ذلك منتزع من عدة أمور .

ومما مثل به من القرآن الكريم قوله — تعالى — : « مثلُهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم فى الآية ، هو رفع الطمع إلى تسنّى مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب ، وأنه أمر توهمى — كما ترى — منتزع من أمور جمة .

وقوله — عز وجل — : « مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحمِلوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

فإن وجه التشبيه بين أحبار اليهود الذين كلفوا العمل بما فى التوراة ثم لم يعملوا بذلك وبين الحمار الحامل للأسفار، هو حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شىء بالانتفاع به مع الكد والتعب فى استصحابه ، وليس بمشتبه كونه عائداً إلى التوهم ومركباً من عدة معان .

ويقول السكاكى : والذى نحن بصده من الوصف غير الحقيقى أحوج منظور فيه إلى التأمل الصادق من ذى بصيرة نافذة وروية ثاقبة لالتباسه فى كثير من المواضع بالعقلى الحقيقى لا سيما المعانى التى ينتزع منها[١] .

ويرى الخطيب[٢]: أن التشبيه فى هذه الأمثال وقع فى أمر حقيق

(١) المفتاح — ١٨٧ (٢) الإيضاح — ١٧٩

لاوهمى ، وأن السكاكى لم يتقيد بما اشترطه فى تركيب الوجه، ومثل بصور مثل بها غيره ممن خالفوه فى مذهبه .

وقد انبرى المغربى للتوفيق بين ما رآه السكاكى وبين ما مثل به ، فقسم الوصف إلى ثلاثة أقسام :

١ — حسى خارجى .

٢ — عقلى وجودى

وكلاهما حقيقيان .

٣ — اعتبارى محض لا وجود له إلا فى الأذهان والأوهام .

ولما كانت الهيئة المركبة من حيث أنها هيئة : اعتبارية محضة ، وجب أن تراد بكونها حسية هنا تعلقها بالمحسوس كما هى فى بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويراد بالوهمى هنا : ما تعلق بمعقول مطلقا لا ما تعلق بالاعتبارات المحضة لعدم انطباق ما مثل به السكاكى على الوهمى .

وعلى هذا يفسر الحقيقى بالحسى هنا ، وقد تقدم التمثيل للعقلى بهذا الوجه وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع[١].

والخلاصة . أنهم تأولوا الوصف غير الحقيقى عند السكاكى : بأنه ما لايكون حسياً فيدخل فيه على هذا ، المركب العقلى ، وبذلك يرتفع التناقض بين ما اشترطه وبين ما أورده من الأمثلة التى تعد عقلية .

الوجه المركب:

وينقسم الوجه المركب إلى ثلاثة أقسام :

١ — ما لا يظهر فيه لكل جزء من الأجزاء المتضامة نظير يصح تشبيهه به فى المقابل إلا بتكلف وتعسف ، لأنه لم يقصد فيه تشبيه المفرد أصلا

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٣٤ .

ولا تبعاً ، إما لعدم حسنه أو لعدم تعلق القصد به بحسب المقام ، بل المراد المجموع وهيئته من غير ظهور المقابلة من الأجزاء ، وذلك كقوله — تعالى — « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً . . . » الآية .

فإن المراد: تشبيه قصة المنافقين بقصة من استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، فى وجود ما يكون نافعاً فى الحين ، ويطمع فى حصول المراد بمباشرته ، ثم يعقبه الانقطاع الموجب للهلاك والإياس من كل نفع ، ولم يقصد فيه مفرد يقابله مفرد من تلك الجهة الأخرى .

فإن أريد أن يتكلف فى ذلك جعل المنافق كالمستوقد ناراً وإظهاره للإيمان الذى انتفع به فى الدنيا كوجود ضوء النار المنتفع به حينئذ، وجعل انقطاع انتفاع المنافق بالإيمان الذى أظهره بسبب الموت مع عقوبة الهلاك فى النار والحجاب ، كانطفاء النار للمستوقد ووقوعه فى ظلمة لا يبصر فيها ، فلا بأس ولكن كل ذلك من التعسف .

والنهج القويم : تشبيه الهيئة بالهيئة والقصة بالقصة كما دل عليه ذلك هنا وأوجبه صريح المثل .

٢ — ما تظهر فيه المقابلة من كل طرف لكن عند التجريد لا يصح التشبيه لعدم صحة المعنى ، كقول القاضى التنوخى :

كأنما المريخ والمشترى   قدامه فى شامخ الرفعهْ
منصرف بالليل عن دعوة   قد أُسرجت قدامه شمعه

فإن تشبيه المريخ وهو الكوكب المعلوم بالرجل المنصرف عن الدعوة إلى الطعام فى مأدبة مثلا ، لا معنى له منفرداً وهو خُلف من القول .

فالشبه ليس للمريخ من حيث هو ، ولكن من حيث الحالة الحاصلة له من كون المشترى أمامه فلا يمكن إفراد أحد جزئيه بالذكر ، وأنت وإن كنت تقول . المشترى شمعة على التشبيه العامى الساذج فى قولهم : كأن النجوم

مصابيح وشموع ، فإنه لم يوضع التشبيه على هذا ، وإنما قصد الهيئة التى يكتسبها المريخ من كون المشترى أمامه .

٣ — ما يصح تشبيه كل مقابل بأخيه حتى يكون من تشبيه المتعدد ، ولكن يمنع منه وجود الحسن فى التركيب الذى لا يوجد فى المتعدد كقول أبى طالب الرقى :

وكأن أجرام السماء لوامعاً   درر نثرن على بساط أزرق

فإن مقابل النجوم من الطرف الآخر هو الدرر ، ومقابل السماء المفهومة من ذكر النجوم ، البساط الأزرق وذلك ظاهر ، ويصح التشبيه فى كل منهما على انفراد بأن يقال : النجوم كالدرر ، والسماء كبساط أزرق ، ولكن يفوت الحسن الذى اقتضاه التركيب ، فإن إلحاق هيئة ظهور النجوم على السماء الزرقاء بهيئة الدرر على البساط الأزرق أحسن وأرق ذوقا من إلحاق النجوم المجردة بالدرر والسماء بالبساط على انفراد ، فإن الغرض ذكر الأمر العجيب من طلوع النجوم مؤتلقة متفرقة فى أديم السماء وهى زرقاء صافية والنجوم تتلألأ فى أثناء تلك الزرقة ، ومن لك بهذه الصورة إذا فرقت التشبيه ، وأزلت عنه الجمع والتركيب .

ومتى أمكن حمل التشبيه على المركب فلا يعدل عنه إلى المفرد ، حتى لا تفوت معه دقة التركيب المرعية فى وجه الشبه .

ويجب أن يكون مفهوما أن التشبيه المقصود عند البديعيين هنا ، هو التشبيه المركب لأنه عزيز الوقوع ، وأما تعدد التشبيه من غير تركيب فهو أمر سهل ، وقد بلغ فيه الشعراء إلى تشبيه عشرة بعشرة .[١]

وقد يقع حيناً أن وجه الشبه لا يكون إلا عقلياً ، كقول الرسول

(١) إقامة الحجة على التقى بن حجة — ٩٦

— صلى الله عليه وسلم — : « مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام ، لا يصلح الطعام إلا بالملح »

فالشبه لا يكون هنا إلا عقلياً ، وهو أن الناس يصلحون بهم كما يصلح الطعام بالملح .

ومن وصف الجاحظ لبنى هاشم : وهاشم ملح الأرض وزينة الدنيا [١].

والشبه بين صلاح العامة بالخاصة وبين صلاح الطعام بالملح لا يتصور أن يكون محسوسا .

وكلما كان التشبيه أوغل فى كونه عقليا محضاً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر.

ألا ترى إلى قوله — عز وجل — « إنما مثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زُخرفَها وازَّينت وظن أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس »

كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت. وهى وإن كان قد دخل بعضها فى بعض — حتى كأنها جملة واحدة — فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة .

ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان ، أخل ذلك بالمغزى من التشبيه .

ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعد التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض ، والأغراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل

---

(١) زهر الآداب — ١ — ٩٦

تنسّق ثانية منها على أولّه وثالثة على ثانية وهكذا ، فإن ما كان من هذا الجنس لم ترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما (١) .

فقد شبه فى الآية حال الدنيا العجيبة الشأن ، وهى تقضّيها بسرعة وانقراض نعيمها جميعا بغتة بعد ظهور قوتها واعتزاز الناس بها واعتمادهم عليها ، بزوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاما لم يبق له أثر أصلا ، بعد ما كان غضا طريا قد التف بعضه على بعض ، وزين الأرض بأنواره وطراوته ، وتقويه بعد ضعفه بحيث طمع الناس فيه وظنوا سلامته من الجوائح .

ووجه الشبه هيئة منتزعة من تلك الأمور ، وهى حصول شىء تترتب عليه المنافع فيحصل السرور به وتنسى عاقبة أمره ، ثم يذهب ذلك الأمر مسرعا (٢) .

ويجب الاحتراس فى انتزاع وجه الشبه المركب وبخاصة إذا كان عقليا ، لافتقاره إلى فضل نظر ودقة تأمل ، فقد يظن أن المقصود انتزاعه من بعض أمور متعددة ، على حين أنه لا يتحقق إلا بانتزاعه من جميعها ؛ لأن لكل جزء قيمته فى تأليف المعنى الكلى والصورة الجملية .

وذلك كقول الشاعر (٣) :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامةٌ   فلما رأوها أقشعت وتجلّت

فقد يهجس فى الخاطر أن الشطر الأول منه تشبيه مستقل بنفسه عن الشطر الثانى ، وأن المقصود به ظهور أمر مطمع لمن هو فى شدة الحاجة إليه ، وعلى هذا يكون وجه الشبه غير مركب .

ولا شك أن ذلك خطأ محض ؛ لأن الشاعر لم يرد هذا وإنما أراد

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٨٢   (٢) حاشية الدسوقى ـ ٣ ـ ٤٠٦

(٣) قال العباسى : إن قائله غير معروف . معاهد التنصيص ـ ١ ـ ١٥١

تشبيه الحالة المذكورة فى الأبيات المتقدمة على هذا البيت بظهور غمامة لقوم عطاش ثم تفرقها وانكشافها .

والمغزى : إثبات ابتداء مطمع متصل بانتهاء مؤيس .

فالبيت مثّل فى تصوير الشىء يعنّ للمضطر إليه المتلهف عليه فيقوى أمله فى تحصيله ، ولكن لا يلبث أن يطير عنه مخلفا له لذعة الحسرة ومرارة الخيبة.

فانتزاع الشبه من المصراع الأول وحده خطأ لعدم وفائه بالمعنى المراد لأنه مطمع فحسب .

ومثله قول كثير عزة :

وإنى وتَهيامى بعزّة بعدما ... تخلّيتُ مما بيننا وتخلّت
لكا لمرتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوأ منها للمَقيل استقلّت

فإنه ليس الغرض تشبيه حاله بحال من يرجو ظل الغمامة فقط ، بل بمن تظله الغمامة ويطمئن إلى استدامة ظلها فتنقشع عنه ويزايله الظل .

وقد عبر عنه الحسن بن وهب فيما كتبه إلى بعض أصدقائه — وقد اصطبح فى يوم دجن لم يمطر — : أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس فى فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قول كثير :

ثم ساق البيتين المتقدمين .

وقد أكثر الشعراء فى هذا المعنى فقال بشار :

لمروان مواعد كاذبات ... كما برق الغمام وما استهلّا

وقوله :

أظلت علينا منك يوما سحابة ... أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يُجْلَى فييأس طامع ... ولا غيثها يأتى فيروَى عطاشها

ومن اللطائف قول ابن الطراوة النحوى — وقد خرجوا ليستسقوا على أثر قحط فى يوم غابت سماؤه فزال ذلك عند خروجهم — :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت   بحرية قَمِن بها السح[1]
حتى إذا اصطفّوا لدعوتهم   وبدا لأعينهم بهـــا نَضح
كُشف الغمام إجابة لهم   فكأنهم خرجوا ليستصحوا

والأصل فى ذلك قول الأحوص :

وكنت وما أمّلت منك كبارق   لوى قطرَه من بعدما كان غيّما

قمن بفتح الميم وكسرها : جدير وحقيق .

الفصل الثالث

فضل التمثيل وتأثيره

ليس هذا التأثير الذى ينفح به التمثيل والذى يعمل عمل السحر فى كياننا فيهزه من الأعماق، قد جاء اعتباطا أو هو مما يقع فلتات، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية فإذا استأذن عليها فتحت له أبوابها على مصاريعها، وتلقته بالقبول والبشاشة والارتياح، كما تتلقى شيئاً ساراً مبهجا يلذها موقعه ويخف عليها محمله .

ذلك أن النفوس تنفر بطبعها من الغموض وتفر من اللّبس، وتتململ من مواقف الحيرة والشك والبلبلة، وتبادر إلى المروق من الظلمة إلى النور ومن الشبهة إلى اليقين أنّى وجدت السبيل إلى ذلك .

وهذا التمثيل من شأنه أن ييسر لها هذه البغية المحببة، فيخرجها من الخفاء إلى الجلاء، ومن الغبَش إلى الوضح، ومن متاهات العقول التى يكتنفها الضباب ويلفّها القتام إلى ما تدركه بالضرورة، وتلمسه فى مغارس الطباع، وتجتليه فى معارض الحواس الظاهرة، فيكون علمها به أتم وأوسع وأعمق ومعرفتها أكمل وأشمل وأدق وأشد وأحكم، وكيف وقد نقلها من شىء لُقِّنته تلقينا بلا درس ولا فحص، إلى شىء أحاطت به خُبرا، وقتلته علما ومارسته تجربة، وزاولته عملا .

ومرد ذلك إلى أن النفس فى الأصل كانت صفحة بيضاء خالية من المعارف .

ثم إن المعارف الأولى استفادتها مما تسرب إليها من الحواس ، أو استوحتها من الطباع قبل استخدام الفكر وإعمال العقل .

فإذا عرضنا عليها هذه المعانى العقلية فى صورة مايدرك بالحس ويفهم بالطبع ،لم نفاجئها بشىء غريب تزهد فيه وتنبو عنه ، وتقابله بالإشفاق والحذر والخوف والتوجس ، بل نكون قد عرضنا عليها شيئا يمت لها بألفة قديمة ومودة سابقة لاتنكر قرابته ، فتهش له وتبش به ، وتفتح له أحضانها كما يلتقى قريبان حبيبان بعد طول الفراق .

هذا إلى أن التشبيه عامة ينبُل موقعه وتسمو قيمته ، ويجل تأثيره ، ويثير الطرب والإعجاب فى النفوس ، ويحرك منها كوامن الاستحسان والاستطراف بقدر تصويره الشيئين البعيدين قريبين ، والمختلفين المتباينين مؤتلفين ، لأن ما يخرج من غير معدنه ، وينبت فى غير أرضه ، ويتفرع من غير جنسه يبعث البهجة ويستفز العاطفة ، ويوقظ الانفعال .

والتمثيل فى ذلك أمضى أداة وأسرع نفاذا لحسن تأتيه ولطف سحره ودقة مسلكه فى التقريب بين النائيين، والتأليف بين المتقابلين ، وبث الوحدة فى الصور المتفرقة ، وصب المعانى المتعقلة والمتخيلة والمتوهمة فى قوالب الشخوص الحية والأشباح النابضة المتحركة .

والذى يجب أن يعرف أن هذه الصور البيانية على اختلاف أنواعها ليست لغوا من الكلام ولا نافلة فى القول ، ولكنها كما يقول « مارزى » : وحتى العلماء الذين أوجدوا النحو المنطقى لم يلبثوا أن يتساءلوا : هل يمكن أن تعدّ الصور الخيالية : أى ما يسمى بالاستعارات والمجازات زخرفات وتزيينات أو عناصر مضافة إلى الصور المنطقية العارية ، ثم لم يلبثوا

أن أدركوا أنها ليست بالزخرفات ، وإنما هى صور تلقائية من صور التعبير [١] .

فمن الأول — وهو التأليف بين المتنافرين — قول ابن حمديس فى النيلوفر :

اشرب على بركة نيلوفر — محمرة النوار خضراء
كأنما أزهارها أخرجت — ألسنة النار من الماء

وقول ابن الرومى — حين أحس بالسم الذى دس له يدب فى أعضائه — :

أشربُ الماء إذا ما التهبت — نار أحشائى لإطفاء اللهبْ
فأراه زائدا فى حرقتى — فكأن الماء للنار حطب

وقول أبى المطرف بن فتوح :

وقف العذار بخده فحسبته — ليلا توقف وسط ضوء نهار
وتوردت وجناته فحسبتها — نارا تلظى فوق ماء جار

وقول الآخر :

كالغيث منسكبا على إخوانه — والنار ملتهبا على أعدائه

وقول الآخر :

أنا نار فى مرتقى نظر الحا — سد ماء جار على الإخوان

ومن الطريف [٢] : أنه دخل الحمام يوما الأديبان أبو جعفر التطيلى وأبو بكر بن بقى فقال أبو جعفر :

ياحسنَ حمّامنا وبهجتَه — مرأى من السحر كله حسنَ
ماء ونار حواهما كنَف — كالقلب فيه السرور والحزَن

(١) المجمل فى فلسفة الفن لكروتشة — ١٤٨ — ١٤٩ .
(٢) الذخيرة — ١ — ٢٠٨

وقال أبو بكر :

حامنا فيه فصل القيظ محتدم   وفيه للبرد سر غير ذى ضرر
ضدان ينعم جسم المرء بينهما   كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

ومن الثانى — وهو تجسيم المعانى وتشخيصها — قول ابن المعتز :

وانظر إلى دنيا ربيع أقبلت   مثل البغىّ تبرّجت لزُناة
جاءتك زائرة كعام أول   وتلبّست وتعطرت بنبات
وإذا تعرّى الصبح من كافوره   نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس   قَذِيت وآذن حيّها بممات

والضحك فى الورد وكل ريحان ونَور يتفتح ، مشهور معروف ، وقد قاله فى هذا البيت وجعل الورد كأنه يعقل ويميز ، فهو يشمت بالنرجس لانقضاء مدته وإدبار دولته ، وبدوّ أمارات الفناء فيه .

فهذا شأن الورد الذى عابه ابن الرومى فى قوله :

فصل القضية أن هـذا قائد   زهر الرياض وأن هذا طارد

وقد جعله ابن المعتز لهـذا الطرد ضاحكا ضحك من استولى وظفر ، وابتز غيره ولاية الزمان (١) .

وقول الأمير مروان بن عبد الرحمن الأموى — وكان فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس — (٢) :

ودّعت من أهوى أصيلالى لعلنى   ذقت الحمام ولا أذوق نواه
فوجدت حتى الشمس تشكو وجده   والوُرق تندُب شجوها بهواه

---

(١) أسرار البلاغة — ٢٣٩
(٢) نفح الطيب — ٢ — ٣٣٣

وعلى الأصائل رقة من بعده فكأنها تلقى الذى ألقـاه .
وغـدا النسيم مُبلّغا ما بيننا فلذاك رق هوًى وطاب شذاه
ما الروض قدمُزجت به أنداؤه سَحرا بأطيب من شذا ذكراه
والزهر مبسمه ونكهته الصَّبا والورد أخضله الندى وحواه
فكذلك أولع بالرياض لأنها أبدا تذكرنى بمن أهواه

وقول كشاجم :

وكأن ورد الباقلاء دراهم قد ضُمخت أوساطها بالعنبر
وكأنه من فوق متن غصونه يرنو بمقلة أقبل أو أحور[1]

المعانى والتمثيل .

تجىء المعانى تارة فى نسق التمثيل مفرغة فى قالبه ، وهو قليل فى كلام البلغاء كثير فى القرآن الكريم .

فمن ذلك قوله تعالى — : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا . . . » .
« أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . . . »
« مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . . . »

وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — «الناس كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية »

الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »

---

(١) القبل بفتحتين : إقبال إحدى حدقتى العين على الأخرى ، وقيل : هو كالحول .

« المؤمن هين لينِّ كالجمل الأَنِف[1] إن انقيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ »

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُد بعضُه بعضا »

« أمتى كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره »

« عمالكم كأعمالكم وكما تكونون يُولَّى عليكم »

« المرأة كالضِّلَع العوجاء إن قومتها كسرتها وإن داريتها استمتعت بها »

« المتشبِّع بما ليس فيه كلابس ثوبَى زور »

لو توكلتم على الله حقَّ التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا »

« مثل المؤمن كالسنبلة تميل أحيانا وتعتدل أحيانا »

مثل الجليس الصالح كالعطار إن لم تُصب من عطره أصبت من ريحه، ومثل الجليس السوء كالكير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدخانه »

ومن الشعر قول شوقى :

مثل القوم نسوا تاريخهم   كلقيط عيَّ فى الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة   يشتكى من صلة الماضى انقضابا

وقوله :

مثل الحياة تُحب فى عهد الصبا   مثل الرياض تحب فى آزار

وتارة يجىء التمثيل رادفا للمعانى متأثرا لها لتجلية مغزاها وكشف سرها، وتقريرها فى النفوس، وتفخيمها فى الصدور .

(١) الأنف ككتف : الذى يشتكى أنفه .

فمن ذلك قوله — تعالى — : « ضرب الله مثلا رجلا فيـــه شركاء متشاكسون ورجلا سلمًا لرجل هل يستويان مثلا » .

ولا خلاف أن التمثيل بشطريه يبعث فى الكلام روحا جديدة ، ويبث فيه الحياة والخصب والقوة ، ويكسوه رونق الشباب ووشى الإعجاب ،فيكون له فى المسامع حلاوة وعلى القلوب نداوة .

مواقع التمثيل :

والتمثيل ينتظم شتى المعانى ، ويلبس مختلف الصور الأدبية .

فمن ذلك الوصف كقول الميكالى :

أما ترى الزُّهرة قد لاحت لنا　　تحت هلال لونه يحكى اللهب
ككرة من فضة مجـــلوّة　　وافى عليها صولجان من ذهب

وقول شاعر :

وسحاب يجر فى الأفق ذيلْ　　مطرف زرّه على الأرض زَرّا
برقُه لمحة ولكن له رعـد　　م بطىء يكسو المسامع وَقرا
كبخيل منـــافق للذى يهوا　　ه يبكى جهرا ويضحك سرا

وقول آخر فى الحمّام :

ألا رُب حمام بدا لى حميمه　　فظاهره ماء وباطنه نار
كإخوان هذا العصر من تلق منهم　　فللود إعلان وللحقد إسرار

وقول أبى فراس :

وقور وريعان الصبا يستفزّها　　فتأرن أحياناً كما يأرَن المهر

والغزل وما يتصل به ، كقول ابن الرومى :

يا رب حُسّانة منهن قد فعلت سوءا وقد تفعل الأسواء حُسّان
تُصمى المحب وتُلْفَى الدهرَ شاكيةً كالقوس تُصمى الرمايا وهى مرنان

وقول العباس بن الأحنف :

فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق إليه السبيلا
هى الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

وقول المتنبى :

متى تزر قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والأسل
والهجر أقتل لى مما أراقبه أنا الغريق فما خوفى من البلل

وقوله :

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعزّ ذلك مطلوبا إذا طُلبا
كأنها الشمس يعيى كف قابضه شعاعها ويراه الطرف مقتربا

وقول راشد بن راشد :

وإنى وإن أعرضت عنك لمنطو على حُرَق بين الجوانح والصدر
إذا هاج شوقى مثلتك لىَ المنى فألقاك ما بينى وبينك فى السر
تصبرت مغلوبا وإنى لموجع كما صبر الظمآن فى البلد القفر

وقول ابن عبد ربه :

فكيف ولى قلب إذا هبّت الصّبا أهاب بشوق فى الضلوع دفين
ويهتاج منه كلما كان كامنا دعاء حمام لم تبت بوكون
وإن ارتياحى من بكاء حمامة كذى شجن داويته بشجون

والمدح كقول ابن الرومى :

له سَوْرة مكتنة فى سكينة ... كما كَمن فى الغمد الجُراز المهند(١)

وقول البحترى :

متهلل طَلْق إذا وعد الغنى ... بالبشر أتبع بشره بالنائل
كالمزن إن سطعت لوامع برقه ... أجلت لنا عن ديمة أو وابل

وقول على بن جبلة :

إذا ما تردّى لأمة الحرب أرعدت ... حشا الأرض واستدمى الرماحُ الشوارع
وأسفر تحت النقع حتى كأنه ... صباح مشى فى ظلمة الليل طالع

وقول آخر :

سُررت بجعفر والقرب منه ... كما سُرَّ المسافر بالإياب
كممطور ببلدته فأضحى ... غنيا عن مطالعة السحاب

وهو مأخوذ من قول بعضهم :

فكنت فيهم كممطور ببلدته ... فسُرَّ أن جمع الأوطان والمطرا

وقول المتنبى فى كافور :

إن فى ثوبك الذى المجد فيه ... لضياء يزرى بكل ضياء
إنما الجلد ملبس وابيضاض النفس ... م خير من ابيضاض القَباء

(١) الجراز بالضم : السيف القاطع .

والهجاء كقول أبي تمام :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها فى غربة وإسار
كُسيت سبائبَ لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء فى الأطمار

وقول ابن الرومى :

رأيتكم تستعدّون السلاح ولا تحمون فى الرَّوْع من أعدائكم سلبَا
كالنخل يُشرع شوكا لا يذود به أيدى الجناة ولا يحميهم الرُّطبا

وقول الناجم :

ينتقص الأحرار من شأنهم وهو أخو القلة والنقص
كأنه البرغوث لم يخطُه فى صِغر الجُثمان والقرص

والرثاء كقول أبي تمام :

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى فخانك حتى لم يجد فيه منزعا
فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطعها ثم انثنى فتقطعا

وقول ابن الرومى فى رثاء ابنه الأوسط :

وإنى وإن متعت بابنىَّ بعده لذاكره ما حنَّت النيب فى نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد

وقول الحسين بن مُطير يرثى معن بن زائدة :

فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وقوله فى رثاء خالته :

أرانى وأمى بعد فِقدان أختها وإن كنت فى رَفْه بها وصلاح
كفرخ قطاة الدَّوِّ بان جناحها فباتت إلى خفق بغير جناح[1]

(١) الدو بالتشديد : الفلاة الواسعة .

وقول مسلم :

وإنى وإسماعيل يوم وفاته — لكالغمد يوم الروع فارقه النصل

فإن أغش قوما بعده أو أزورهم — لكالوحش يدنيها من الأنس المحل[1]

والفخر كقول عبد المطلب بن هاشم :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة — ولو تسلت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا فى منازلنا — كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

والحث على الجد والكمال كقول المتنبي :

ولم أر فى عيوب الناس نقصا — كنقص القادرين على التمام

والاستعطاف كقول عمر بن أبي ربيعة :

ان تبذلى لى نائلا أشفى به — سقم الفؤاد فقد أطلت عذابى

وعصيت فيك أقاربى فتقطعت — بينى وبينهم عرا الأسباب

فتركتنى لا بالوصال ممسكا — منهم ولا أسعفتنى بثواب

فقعدت كالمهريق فضلة مائه — فى حر هاجرة للمع سراب

وقول المتنبي لكافور :

وما كنت لولا أنت الا مهاجرا — له كل يوم بلدة وصحاب

ولكنك الدنيا إلىَّ حبيبةً — فما عنك لى إلا إليك ذهاب

والتحسر والتوجع كقول عميرة بن جعيل التغلبي :

ندمت على شتم العشيرة بعدما — مضت واستتبت للرواة مذاهبه

فأصبحت لا أسطيع دفعا لما مضى — كما لا يرد الدر فى الضرع حالبه

وقول العباس بن الأحنف .

لا جزى الله دمع عينىَ خيرا — وجزى الله كل خير لسانى

---

(١) الأنس بفتحتين : الحي المقيمون .

نمّ دمعى فليس يكتم شيئا   ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى   فاستدلّوا عليـــه بالعنوان

وقال المتنبى :

تمنٍّ يلذّ المستهام بذكره   وإن كان لا يغنى فتيلا و لا يجدى
وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا   ولكنه غيظ الأسير على القدِ

وقول الدكتور زكى مبارك :

وأصبحت والرأس مرعى المشيب   قليل السرور كثير الحزَن
لعمرى لئن شبت قبل الأوان   لقد شاب حظى وشاب الزمن
كأن الشعور عراها البياض   سهام الردى وخيوطِ الكفن
وإن الشباب إذا ما انقضى   لكا لحلم أقلع عنـــه الوسن

والعتاب كقول ابن الرومى :

طلبت إليكم بالعتاب زيارة   وعطفا فأعتبتم بإحدى البوائق
فكنت كمستسق سماءً مُخيـــلة   حياً فأصابته بإحدى الصواعق

والشكوى كقول ابن الحجاج :

لى صاحب عميت علىّ شئونه   حركاته مجهولة وسكونه
مازلت أحفظه على شرَقى به   كالشيب تكرهه وأنت تصونه

وقول ابن زيدون :

بنى جَهور أحرقتمو بجفائكم   جنانى فما بال المدائح تعبَق
تعدّوننى كالعنبر الورد إنما   تطيب لكم أنفاسه حين يُحرق

وقول ابن رشيق :

أراك اتهمت أخاك الثقهْ   وعندك مقت وعندى مقه
وأثنى عليك وقد سؤتنى   كما طيّب العود من أحرقه

وهما من قول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عَرف العود

وقول آخر :

أصبحت تخرجني بغير جريمة   من دار إكرام لدار هوان
كدم الفِصاد يراق أرذل موضع   أبدا ويخرج من أعز مكان

والعزاء والتسلية كقول أبي تمام :

فلا يحسب الأعداء عزلك مغنما   فإن إلى الإصدار ما غاية الورد
وما كنت إلا السيف جرد في الوغى   وأحمد فيه ثم رد إلى الغمد

وقول المتنبي :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به   فإنك نصل والشدائد للنصل

وقول أبي هفان :

يعيرني عربي رجال سفاهة   فعزيت نفسي مصدرا ثم موردا
بأني مثل السيف أحسن ما يرى   وأهيب ما يلقى إذا هو جردا

وقول الناجم :

ما خمدت ناري ولكنني   ألقى قلوبا نارها خامده
قد حدثت في دهرنا أنفس   تستبرد السخنة لا البارده
كما تعـــاف الطيب المشتهى   من الطعام المعـــدة الفاسدة

والاحتجاج كقول أبي مروان بن شماخ :

نوائب غالتني فأبدت فضائلي   فكانت وكنت النار والعنبر الوردا

وقول الخليل بن أحمد .

والمال يغشى أناسا لا َخلاق لهم
كالسيل يغشى أصول الدِّندن البالي[1]

---

(١) الدندن بالكسر : ما أسود من نبات أو شجر .

وقول التهامى :

لو لم يكن اقحوانا ثغر مبسمها ماكان يزداد طيبا ساعة السّحر

وقول ابن الرومى :

دهر علا قدر الوضيع به وغدا الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسُب فيه لؤلؤه سُفلا وتطفو فوقه جيفه

وقول المتنبى :

لأن حلمك حلم لا تكلفه ليس التكحل فى العينين كالكحَل

وقول بعضهم :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحيانا فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معا جرها والبدر فى كل وقت طالع فيها

وقول آخر :

لئن بسط الزمان يدىْ لئيم فصبرا للذى فعل الزمان
فقد تعلو على الرأس الذنابى كما يعلو على النار الدخان

وقول آخر :

إن مسّت النار جسمى أبديت طيب النسيم
كالدهر إن عضّ يوما أبان فضل الكريم

وقول آخر :

إنما يعشق المنايا من الأقوام م من كان عاشقا للمعالى
وكذاك الرماح أول ما يكسر م منهن فى الحروب العوالى

وقول آخر :

وعامل بالفجور يأمر بالبر م كهاد يخوض فى الظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
ياواعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أولا فلا تلم

وقول ابن المعتز :

دعتنى إلى عهد الصبا ربه الخدر وألقت قناع الخز عن واضح الثغر

وقالت وماء العين يخلط كحلها ... بصفرة ماء الزعفران إلى النحر
لمن تطلب الدنيا إذا كنت قابضا ... عنانك عن ذات الوشاحين والشذر
أراك جعلت الشيب للهجر علة ... كأن هلال الشهر ليس من الشهر

والاعتذار كقول الفرزدق:

فإن يك سيف خان أو قدر نبا ... لإبعاد يوم حتفه غير شاهد
فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدىْ ورقاءَ عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ... وتقطع أحيانا مناط القلائد

والحكم والعظات والنصائح — وهو أوسع الأبواب وأليقها بالتمثيل — كقول ابن الرومى :

لاتَلحَ من يبكى شبيبته ... إلا إذا لم يبكها بدم
لسنا نراها حقَّ رؤيتها ... إلا أوان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها ... حتى تغشِّى الأرض بالظلم

وقوله :

لا تكثرنَّ ملامة العشاق ... فكفاهم بالوجد والإشفاق
إن البلاء يطاق غير مضاعف ... فإذا تضاعف كان غير مطاق
لا تطفئن جوى بلوم إنه ... كالريح تُغرى النار بالإحراق

وقول المتنبي :

إن السيوف مع الذين قلوبهم ... كقلوبهن إذا التقى الجمعان
تلقى الحسام على جراءة حده ... مثل الجبان بكف كل جبان

وقوله :

لا تشكون إلى خلق فتشمتهم ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

وقوله :

فلا تَغررك ألسنة مَوال تقلبهنّ أفئـــدة أعادى
وكن كالموت لا يرثى لباك بكى منه ويروَى وهو صادى

وقوله :

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه
وغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه

وأنشد أبو أحمد العسكرى عن ابن دريد :

وبعض الأمر أصلحه ببعض فإن الغث يحمله السمين
ترى بين الرجال العينُ فضلا وفيما أضمروا الفضل المبين
كلون الماء مشتبها وليست تخبر عن مذاقته العيون

وقول ابن النبيه :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تُستحلى أوائله لـكنه ربما مُجّت أواخره

وقول شوقى :

المستبد يُطاق فى ناووسه لا تحت تاجيه وفوق وثابه(١)
والفرد يؤمن شره فى قبره كالسيف نام الشر تحت قرابه

وقوله :

فيا للغروب يَهيج الأسى وكان الشروق لنا أىّ عيد
كذا المرء ساعة ميلاده وساعة يدعو الحمام العنيد

وقوله فى انتحار الشباب :

فيم تجنون على آبائكم ألمَ الثكل شديداً فى الـكبر
وتعقّون بلاداً لم تزل بين إشفاق عليكم وحذر
فمصاب الملك فى شبانه كمصاب الأرض فى الزرع النَّضِر

---

(١) الناووس : القبر ، والوثاب بالـكسر : سرير الملك .

الفصل الرابع

التشبيه الحسى

التشبيه الحسى : ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة كما مر فى كثير من الأمثال . ويدخل فى الحسى عندهم الخيالى ، وهو المركب المعدوم الذى تخيل تركيبه من أمور كل واحد منها موجود فى الخارج فيدرك بالحس كقول ابن وكيع يصف الخشخاش :

وخَشخاش كأنا منه نَفرِى　　　　قميص زبرجد عن جسم دُرّ
كأقداح من البلور صينت　　　　بأغشية من الديباج خُضر

وقول آخر فى وصف بطيخة :

ومال إلى بطيخة ثم شقها　　　　وفرقها ما بين كل صديق
صفائح بلور بدت فى زبرجد　　　　مرصعة فيها فصوص عقيق

فقميص الزبرجد الذى يغطى جسما من الدر ، وقداح البلور المغطاة بالديباج الأخضر فى قول الأول .

وصفائح البلور المرصعة فيها فصوص العقيق فى وعاء من الزبرجد فى قول الثانى ، من الصور التركيبية المعدومة فى الخارج ، ولكن العناصر التى ركبت منها موجودة ندركها بالحس الظاهر .

ويقابل الحسى : العقلى ، والمراد به : المعانى الكلية التى تدرك بالعقل من غير استناد إلى حاسة أصلا ، كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت .

ويدخل فى العقلى الوهمى ، وهو ما لا يمكن إدراك أجزائه بالحواس الظاهرة لعدم وجودها ، لكنها بحيث لو وجدت لم تدرك إلا بها .

والفرق بين الوهمى والخيالى : أن الوهمى لا وجود لهيئته ولا لجميع مادته ، والخيالى جميع مادته موجودة دون هيئته (١) .

طرفا التشبيه الحسى .

طرفا التشبيه الحسى : هما الحسيان ، أما التشبيه نفسه فلا يمكن أن يكون حسيا ؛ لأنه تصديق على الصحيح خلافا لمن قال : إنه إنشاء ، والتصديقيات ليس شيء منها يحس ، فالحس إنما يدرك المفردات (٢) .

ومذهب الحكماء : أن المدرك بالحواس الخمسة إنما هى الأعراض وخواص الأجرام لا ذوات الأجرام ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت ، والشم يدرك الرائحة ، والذوق يدرك الطعم ، واللمس يدرك الحرارة واللين مثلا .

ومذهب المتكلمين : أن الحواس تدرك الأجرام وخواصها ، فالجرم المدرك طعمه بالذوق مثلا ، أدركت جرميته وخاصتها بالذوق ، وكذا يقال فى الباقى (٣) .

وعلى هذا إذا أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلا بل معناها العقلى ، كان ذلك المدرك حينئذ عقليا لا حسيا .

وإن أطلقته على ذات تريد عرضها المدرك بالحاسة كالخد والورد عد حسيا توسعا ، لأن المدرك فى الحقيقة هو اللون على مذهب الحكماء المتقدم ، فكونهما حسيين فباعتبار ما جرى عليه اللسان .

وفى ذلك يقول ابن رشيق : وقوع التشبيه إنما هو أبدا على الأعراض لا على الجواهر ، لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت (٤) .

(١) حاشية الدسوقى — ٣ — ٣١٨
(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٣٠٦
(٣) حاشية الدسوقي — ٣ — ٣٠٨
(٤) العمدة — ١ — ١٩٤

ويقول ابن الأثير فى كنز البلاغة : قولنا : زيد أسد : تشبيه معنى بمعنى لأن المقصود الشجاعة .

وعلى مذهب المتكلمين هما حسيان قطعا ، لأن الأجرام عندهم تدرك بالحاسة كما بينا .

وإذا قلت : لون زيد كلون عمرو كانا حسيين عند الحكماء والمتكلمين .

ويقول عبدالقاهر فى قول الشاعر :

عسل الأخلاق ما ياسرته   فإذا عاسرته ذقت السَّلَع [1]

التشبيه عقلى إذ ليس الغرض الحلاوة والمرارة اللتين تصفهما لك المذاقة ويحسهما الفم واللسان ، وإنما المعنى : أنك تجد منه فى حال الرضا والموافقة ما يملؤك سرورا وبهجة حسبما يجد ذائق العسل من لذة الحلاوة ، ويهجم عليك فى حال السخط والإباء ما يشدد كراهتك ويكسبك كربا ، ويجعلك فى حال من يذوق المر الشديد المرارة ، وهذا أظهر من أن يخفى [2] .

والصحيح : أنك لاتجد تشبيها فيه الطرفان حسيان إلاقليلا [3] .

والتشبيه المحسوس طرفين ووجها ، أسهل أنواع التشبيه من حيث التكوين والإدراك ، لأن الإحساس أيسر العمليات العقلية .

وأشد أنواع التشبيه حاجة إلى التفكير وإعمال الذهن ، ما كان كل من طرفيه ووجه الشبه فيه صورة مركبة من عناصر متعددة ، ولا يفهمه إلا من سما إدراكهم وقوى تفكيرهم [4] .

أثر الحواس فى التشبيه .

وقد فطن العلماء من قديم إلى أن الحواس منافذ للعقل ، تمده بالمعارف

---

(١) السلع بالتحريك : شجرمر ، ويقال : إنه ضرب من الصبر .

(٢) أسرار البلاغة ـ ٤٩ .   (٣) عروس الأفراح ـ ٣ ـ ٣٠٧

(٤) علم النفس الأدبى ـ ٤١ ـ ٤٢

المختلفة ، ويشرف منها على دنيا الناس يلتقط منها ماشاء ، وفى ذلك جاء قولهم : من فقد حسا فقد فقد علما .

ووجدنا الجاحظ يقول فى رسالة التبصير بالتجارة . . . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس : جودة الشىء بالنظر أن يكون حسنا رائقا ، وبالخيشوم أن يكون طيبا أرجا ، وبالمذاق أن يكون حلوا عذبا ، وبالسمع أن يكون صافى الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون لينا ناعما .

ويذكر أن العجم كانت تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان [١].

ونحن فى صغرنا إنما نشعر بما نحسه لا غير ، دون أن نقدر على تأويل المحسوسات وتفسيرها ، فإذا ماوصلنا إلى درجة الإدراك الحسى انتقلنا إلى مرحلة قريبة منها ، وهى مرحلة الذكر التى نتمكن فيها أن نعيد إلى دائرة شعورنا ما أدركناه بحواسنا من قبل ، ثم ننتقل إلى مرحلة تليها مباشرة وهى مرحلة الخيال .

وتدخل هذه المراحل فى منطقة المحسات إما مباشرة وإما بالوساطة ، وفى نهاية هذه المراحل ننتقل إلى دائرة المعقولات حيث تظهر أمارات الحكم والتعليل والاستنباط إلى غير ذلك من الأعمال العقلية الكثيرة [٢] .

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسوسات ، ويحتفظ بها ويذكرها عند الحاجة ، فما أوسع الجمجمة على صغرها ، لأن العقل جمع فيها شوارد المسائل حتى يصح أن يقال : إن الإنسان عائش بعقله فى جو روحانى فسيح الأرجاء . وإذا كان هذا مثار دهشة فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفا من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف [٣] .

---

(١) أمراء البيان — ٢ — ٣٨٧

(٢) علم النفس وآثاره للأستاذين الجارم بك ومصطفى أمين بك — ٥٥ — ٥٦

(٣) الغرائز للغمراوى بك — ٨٧ .

وقد جمع يعقوب الكندى كل خصائص الحواس فى قوله :

وفى خمسة منى حلت منك خمسةٌ ... فريقُك منها فى طيِّب الرشف
ووجهك فى عينى ولمسك فى يدى ... ونطقك فى سمعى وعَرفك فى أنفى

وفى ثلاثة منها — وهى العين والأذن والذوق — يقول ابن الرومى :

ولقد يؤلِّفنا اللقاء بليـلة ... جُعلت لنا حتى الصباح نظاما
تَجزى العيون جزاءهن عن البكا ... وعن السهاد ولا نصيب أثاما
فنبيحهن مَرادهن يَردنه ... فيما ادَّعين ملاحة ووساما
ونكافىء الآذان وهى حقيقة ... إذ لاتزال تكابد اللُّواما
فنُثيبهن من الحديث مثوبة ... تَشفى الغليل وتكشف الأسقاما
ونكافىء الأفواه عن كتمانها ... إذ لا يزال لها الصُّمات لجاما
فنبيحهن ملاثما ومراشفا ... ما ضرها ألا تكون مُداما
نَجزى الثلاثة أنصباء ثلاثة ... مقسومة آناؤها أقساما

قيمة البصر .

ولا شك أن للبصر من بين الحواس أثراً متميزاً فى صوغ التشبيه ونقشه بمختلف الألوان والأصباغ .

ومن هنا تعجَّب الناس من قدرة بشار أن يقول — وهو أعمى — :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

لأن الأصل فى مثل هذا التشبيه الغريب أن يعتمد فيه على الباصرة .

ولا شك أن هذه المعارف المنظورة هى التى مهدت لابن المعتز أن يبرع فى التشبيهات المحسوسة ، حتى ليعترف شاعر عظيم كابن الرومى بعجزه عن

مجاراته فى مثل هذه الصور الخلابة التى تأخذ مادتها من قصور الخلافة ومواطن النعيم ، ولهذا أيضاً يقول ابن المعذّل فى عتبة :

لعتبة صفحتا قمر   يفوق سناهما القمرا
يزيدك وجهها حُسْنا   إذا ما زدته نظرا

فهو يصرح : بأن إعمال النظر فى هذا الوجه الحسن يولّد حسنا متجدداً لا حد له .

ونحن نجد فرقا شاسعا بين الوصف المبنى على المشاهدة والوصف المبنى على السماع ، فالشعراء الذين عاشوا فى جو الربيع الحقيقى وشاهدوا آثاره فى المروج والرياض ، يبدعون فى وصفه كشعراء الشام وفارس وغيرهم ، بخلاف شعراء مصر الذين لا يحسون فيه غير تقلب الجو والغبار الثائر ، فإن وصفهم له جاء فاترا شاحبا خلوا من الروح الأصيل ، وما راءكمن سمع ، وليس الخبر كالعيان .

ومما يؤيد ذلك : أن ذا الرمة قدم الكوفة فلقيه الكميت ، فقال له : إنى عارضتك فى قصيدتك .

قال : أى القصائد ؟

قال : قولك :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كُلًى مفرية سرَب (١)

قال : فأى شىء قلت :

قال : قلت .

هل أنت عن طلب الإيقاع مُنقلِب   أم هل يُحَسَّن من ذى الشيبة اللعب

حتى أتى عليها .

(١) الـكلى هنا : هى الرقعة المستديرة من القربة تخرز عليها تحت العروة .

فقال ذو الرمة : ما أحسن ما قلت ! إلا أنك إذا شبهت الشيء ليس تجيء به جيدا كما ينبغي ، ولـكنك تقع قريبا فلا يقدر إنسان أن يقول : أخطأت ولا أصبت .

فقال الـكميت : أو تدرى لم ذلك ؟

قال : لا .

قال لأنك تشبِّه شيئا قد رأيته بعينيك وأنا أشبِّه ما وصف لى ولم أره بعينى .

قال ذوالرمة : صدقت ! هو ذاك [١] .

فالإحساسات البصرية ليست سطحية ، وهذا هو السبب فى أنها مازالت تنطوى على هذه القيمة الجمالية العظيمة ؛ فالعين حاسة النور أولا وقبل كل شيء ، وحاجة الـكائنات الحية إلى النور لا تقل عن حاجتها إلى الحرارة إن لم تزد .

إن فرحتنا بالانتقال من الظلمة إلى النور ، أو بسنا السماء الأزرق ، أو بلمعان اللون نفسه ، وهى فى آن واحد عيد للعين وراحة عامة للجسم ، ولعل النبات — على حرمانه من حاسة البصر — أن يشعر بشيء من هذا حين ينتقل من الظل إلى الشمس بغية ألا يذبل فى الظلمة ، ويتجه دائما إلى ضوء الشمس كأنه يراه .

إن اللذة التى نستشعرها حين شروق الشمس ليست لذة بصرية فحسب إننا بكيا ننا كله نحيي الشعاع الأول من أشعة النهار [٢] .

والإحساسات التى يصح نعتها بالجمال على أتم وجه هى الإحساسات البصرية ، حتى لقد عرَّف ديكارت الجمال بقوله : هو مايروق العين [٣] .

أضف إلى ذلك أن إحساسات البصر إحساسات تمثيلية ؛ فهى تستمد عمقا

---

(١) الموشح — ١٩٥ (٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ٦٤

(٣) المصدر نفسه — ٦٢

جديدا من المعانى الكثيرة التى ارتبطت بها حتى أصبحت مركزا تجمع حوله أجزاء كاملة من وجودنا، إنها الحياة كلها مكثفة مختصرة.

فإذا نظرت إلى وردة فى أبريق مثلا حضرتنى على الفور ذكرى كل الإحساسات التى ترتبط عادة بمنظر الوردة، فإذا أنا أتصور حديقة وغياضا وقد أتصور نزهة مع شخص آخر، وقد أتصور يدا تقطف الزهر لتقدمها إلى، وقد أتصور الذى تصلح الزهرة زينة له، وهكذا ترى أن اللون البسيط وحده شىء تعبيرى.

إن بين الإدراكات البصرية والأفكار انسجاما خفيا يدركه الشعراء فى كل ما ينظمون [١].

ونحن ندرك هذا فى مثل قول الحُسين بن مطير:

وصفر تراقيها وحمر أكفها وسود نواصيها وبيض خدودها

وقول صفى الدين الحلى:

بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضينا

والعيون هى التى تحفظ صورة الأشياء على النفوس، وتجدد عهدها لها وتحرسها من أن تندثر وتمنعها أن تزول.

ولذلك قالوا: من غاب عن العين فقد غاب عن القلب [٢].

ومع ذلك فليست الصور البصرية معدومة على الإطلاق من الناحية الوجدانية لدى المكفوف رغم أنها لا تقع تحت حواسه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الحياة الاجتماعية، وقد ينتقل جانب من تأثيرها الوجدانى بوساطة الألفاظ التى تعبر عنها إلى ذلك الشخص الذى لن يعرفها أبدا [٣].

---

(١) المصدر نفسه ـ ٦٥ (٢) أسرار البلاغة ـ ١٣٢

(٣) مقدمة فى علم النفس الاجتماعى ـ ٢٤٠ ـ ٢٤١

قيمة السمع :

أوجد السمع أرفع الفنون ، الشعر والموسيقى والبلاغة ، وهو يدين بأرفع مزاياه الجمالية إلى الصوت ، لأنه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية وبذلك اكتسب قيمته الاجتماعية .

فغرائز التعاطف والاجتماع هي الأساس في كل المتع الجمالية التي تحسها الأذن ، فأجمل ما في الصوت بالنسبة للكائن الحي هو أنه تعبير في جوهره فيه نقاسم الآخرين أفراحهم وآلامهم بوجه خاص ، كما أن اللهجة أجمل شيء بالنسبة للأذن . وأنت تعلم أن اللهجة هي التعبير المباشر النابض عن العاطفة ، وقدرة الخطيب إنما تقوم على اللهجة ، واللهجة هي العنصر الأساسي كذلك في فن الدرامة ، فالألم الذي يعبر عنه بالصوت يؤثر فينا على وجه العموم تأثيراً روحيا أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى بالحركات .

والشعر نفسه ليس في حقيقة أمره إلا جملة من الكلمات المختارة يقصد بها الشاعر إلى أن يهز الأذن هزاً أقوى فكأنها تحمل في ذاتها لهجتها الخاصة .

وأما الغناء كما بين م — سبنسر في تطور اللهجة ، فإنه الصوت الإنساني وقد تَلحّن وتَنغّم حين اتصل بالعاطفة ، وليست موسيقى العزف هي الأخرى إلا تطوراً للصوت الإنساني ، ففي أعماق كل صوت جميل يثوى عنصر إنساني ، فالأصوات القاسية البحاء تذكرنا بصوت الإنسان في حالة الغضب ، والأصوات الرخيمة توقظ فينا معاني العطف والحب [1] .

ورحم الله ابن الرومي حيث يقول في المغنية « وحيد » :

ظبية تسكن القلوب وترعا ها وقُمرية لها تغريد

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٦٥ — ٦٦

طاب فوها وما ترجِّع فيه   كل شيء لها بذاك شهيد
فلها الدهرَ لاثم مستزيد   ولها الدهرَ سامع مستعيد
فى هوى مثلها يخِفّ حليم   راجحٌ حلمُه ويغوَى رشيد
عيبُها أنها إذا غنت الأحرار   م ظلوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبَهم من هواها   بُرقاها وما لديهم مزيد!

ويدل على قيمة السمع قوله — تعالى — : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تُسمع الصُّمَّ ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تَهدى العميَ ولو كانوا لا يبصرون » .

فإنها تفيد أن الصمم مرتبط بالعقل ، والعمى مرتبط بالبصر .

وفوق ذلك فى الآية ما يسمى « المضاعفة » وهى أن يتضمن الكلام معنيين : معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه .

فالمعنى المصرح به هنا : أنه لا يقدر أن يهدى من عمى عن الآيات ، وصَمّ عن الكلم البينات ؛ بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها .

والمعنى المشار إليه : أنه فضل السمع على البصر ؛ لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل ، ومع العمى فقدان النظر فقط [١] .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ، ومن البراهين الساطعة على صدق من جاء به ؛ فربطه السمع بالعقل وإشارته إلى أفضليته على البصر ، يؤيده العلم الحديث وتقره المشاهدة .

فالسمع من أكبر منافذ العقل ، والأصم ليس إلا حجرا أصم .

وأما العمى فلم يقعد بصاحبه يوما عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية ، بل لعله من المرشحات لها ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور [٢] » .

---

(١) الصناعتين — ٤١٠   (٢) فن الأسجاع لعلى الجندى — ٢ — ١٩٥

وما أحسن قول بعض العصريين [١] :

إذا حلَّ نورُ الله فى قلب عبده ... فما فاته من نور عينيه محتقَر
لقد طبّق الدنيا المعرىُّ شهرة ... وسارت مسير الشمس ذكراه والقمر
وعُمِّر فيها مبصرون كأنهم ... هوانا على التاريخ ليسوا من البشر
فلا تحسب العين البصيرة مغنما ... لمن ليس ذا قلب وإن زانها الحور

وفى ذلك يقول « جويو » : ولعل فى إمكان الشاعر الذى ولد أعمى أن يرسم بشعره صورا ملونة إلى أبعد حد ، رغم أنه لا يعتمد إلا على إحساسات اللمس والسمع والشم : على الإحساس بالحياة : على العواطف والأفكار .

إن جمال الشمس لا يقوم على النور وحده ، ولقد قال أحد العميان : إنى لأسمع الشمس لحنا جميلا [٢] .

منزلة السمع والبصر من الحواس :

يرى فلاسفة الجمال من الإنجليز أن الإحساس لا يمكن أن يكون جماليا متى كان يفيد الحياة فائدة مباشرة ، وبحكم هذه النظرية قصروا الإحساسات الجمالية على السمع والبصر لأنهما الحاستان اللتان لاتهمان الحياة بوجه عام .

وهذا القول وثيق الصلة بمذهب الأقدمين ؛ فقد قال بعض الحكماء : إن الله — عز وجل — جعل القلب أمير الجسد وملك الأعضاء ، فجميع الجوارح تنقاد له وكل الحواس تطيعه ، وهو مديرها ومصرفها وقائدها وسائقها ، وبإرادته تنبعث ، وفى طاعته تتقلب ، ووزيره العقل ، وعاضده الفهم ، ورائده العينان ، وطليعته الأذنان ، وهما فى النقل سواء لا يكتمان عنه أمرا ، ولا يطويان دونه سرا .

---

(١) ألحان الأصيل — ٣٤١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٥٩ .

وقال أفلاطون — فى السمع والبصر — : هما للقلب كالجناحين للطائر لا يستقل إلا بقوتهما ، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة .

قيل : فما بال الأعمى يعشق ولا يرى ، والأصم يعشق ولا يسمع ؟

قال لذلك قلت : إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل به طيرانا ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى وأوحى (١) .

غير أنه لا يصح أن نغلو فى قيمة السمع والبصر إلى الحد الذى يحجب عنا فضل غيرهما من الحواس الأخرى ويجعلها ذيلالها ؛ فالحق أن كل الإحساسات تشارك فى الشعور بالجمال .

والأديب والشاعر يحاولان أن يعوضا هذا النقص فى هاتين الحاستين اللتين لا تستطيعان وحدهما أن تهيئا لنا انفعالات جمالية ، بل إننى لأذهب إلى القول بأن هاتين الحاستين ، البصر والسمع ، لم تكونا فى الأصل ولاهما اليوم تماما الحكم الحقيقى فى أمور الجمال ، فما تعجب به العينان هو ما تعجب به فى الغالب حواسنا الأخرى المتصلة بالوظائف الحيوية اتصالا مباشرا ، فكما أن اللمس علّم العين كيف تقدر المسافات فى المكان ، فقد علمها كذلك — مستعينا بالذوق والشم وسائر الحواس الحيوية — ما ينبغى أن تعجب به وتحبه وتسعى إليه .

ولا بد أن تكون الأشكال والألوان التى أعجبت الحيوانات أول ماأعجبتها ، هى أشكال وألوان الأشياء التى تتغذى بها هذه الحيوانات ، وإن العين والأذن عند أبناء الشعب والبدائيين لاتقدر الجمال مباشرة وإنما تعكس ان حكم الحواس الأخرى ، فابن الشعب يرى البلدة من البلدان جميلة إذا كانت غنية وأوفر طعاما .

---

(١) زهر الآداب — ٣ — ٢٢٧

والبحار يرى البحر جميلا حين يكون هادئا مأمونا ، ويعده قبيحا إذا ثار واصطخب .

وشقائق النعمان الحمر ، وأزهار الحقل الملونة تبدو للفلاح فى حقل القمح بقعا قبيحة .

والشعراء إذا أرادوا أن يولدوا فى النفوس انفعالا جماليا كاملا لم يقتصروا على استعمال الألفاظ التى تشير إلى إحساسات بصرية ، بل يفضلون الاعتماد على الحواس الأخرى ، لأن الحياة ههنا أشد وأعمق عمقاً ، فألفاظ الجمال والحسن والرشاقة وسائر الكلمات التى تعبر عن معانى الشكل والسطح لا تكفى لتوليد انفعال جمالى كامل ، لأن العين لا تتأثر بما ترى تأثراً مباشراً فهى حاسة باردة لا تهتز ، فإن وُصف الشىء بأنه جميل فهذا وصف سطحى ؛ أما إذا أردت أن تعبر عما ينفذ إلى أعماقنا ويهز كياننا بأسره كان عليك أن تبحث عن ألفاظ أبعد عن هذا البرود وهذه الموضوعية ، فقولك عن صوت : إنه جميل أقل تأثيراً فى النفس من قولك : إنه عذب أو حلو أو ملتهب إلخ .

وقلَّ بين الكلمات ما يستعمله الشعراء أكثر من استعمالهم للنعوت الآتية : غض ، طرى ، رطيب ، نضير ، عطر ، عبق ، متلظ ، خفيف ، ناعم إلخ .

وهى نعوت مستمدة من إحساسات اللمس والذوق والشم [1] .

قيم: اللمس .

حس اللمس يتيح لنا دائما أن نشعر بإحساسات فنية من كل نوع ، حتى يستطيع أن ينوب مناب البصر إلى حد بعيد ، ولئن كانت حاسة اللمس لا تستطيع إدراك الألوان فإنها تطلعنا على ناحية جمالية لا تستطيع العين

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٣٣ — ٦٣ .

وحدها أن تطلعنا عليها : أعنى النعومة والرخاصة والملاسة .

إن جمال المُخْمَل لا يقوم على المعانى فحسب ، بل على نعومة ملمسه كذلك . والألوان نفسها تستمد بعض جمالها من اقترانها بملمس ناعم ، فالعشب الأخضر يقترن بليونة نحسها تحت الأقدام ، فإذا هذه اللذة التى تشعر بها أعضاؤنا حين نتمدد عليه تزيد اللذة التى تحسها العين حين تراه ، ولا شك أن بريق الشعور الشقر والسود مرتبط بالملمس الحريرى الذى تحسه الأصابع وهى تداعب هذه الشعور .

ولننظر إلى إحساسات الحرارة والبرودة وهى التى تبدو أبعد ما تكون عن شئون الجمال ، إن قليلا من الانتباه يكفى لإدراك الطابع الجمالى فى هذه الإحساسات ، فهل نجهل ما لطراوة الهواء أو دفئه من قيمة فى وصف المناظر التى يصفها الشعراء (١).

وقد وضع م — سولى برودوم جدولا بالنعوت التى تشترك فيها الإدراكات الحسية والحالات النفسية ، وقد تبين من هذا الجدول أن حاسة اللمس أكثر الحواس إمداداً لنا بالنعوت التعبيرية التى تنطبق على الحالات النفسية ، فهى تمدنا بخمسين نعتا تعبيرياً من هذا القبيل ، أما الطعوم وإحساسات الحرارة فهى تقدم ثلاثين نعتا من أكثر النعوت قدرة على التعبير (٢) .

وفى وصف الملموس وتصوير أثره يقول ذو الرمة :

لها بشر مثل الحَرير ومنطق   رخيم الحواشى لا هُراء ولا نزر

ويقول يزيد بن الطَّثرية :

بنفسىَ من لو مرّ برد بنانه   على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل شىء وهبته   فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٥٩ .
(٢) بحوث نشرها الأستاذ الدروبى بمجلة العالمين . أغسطس سنة ١٨٨١ .

قيمة الشم

إن تربيتنا الجمالية فيما يتعلق بالروائح والطعوم ضعيفة على وجه العموم فما نستطيع أن نحصل إلا على إدراكات لا شكل لها ولا نظام فيها ، ولذلك كان الانفعال الجمالى الذى يخرج من هذه الإدراكات غامضا ولا يتصف بطابع عقلى كاف ، غير أن هذا الانفعال موجود على كل حال ، وهنا يسأل فيكتور كوزان : هل سمعت فى حياتك أحدا يصف رائحة بأنها جميلة ؟

ونجيب على هذا السؤال : إذا كان هذا لا يقال فى اللغة الفرنسية على الأقل ، فإنه لينبغى فى الواقع أن يقال : فما أشبه رائحة الورد أو السوسن بقصيدة جميلة ، حتى بغض النظر عن المعانى التى نربطها بها .

وما زلت أذكر ذلك الشعور العميق الذى أحسسته وأنا طفل صغير حين شممت زنبقة لأول مرة .

إن قسما كبيراً من جمال أيام الربيع وليالى الصيف يرجع إلى الروائح العبقة التى تملأ الجو ، ولعل سكرة العطر هذه لا تخلو من شبه بمتع الحب المعقدة .

وعلى أن حاسة الشم ناقصة إذا قيست بغيرها ، فإن لها شأنا كبيراً فى فى إدراك المناظر وفى وصفها ؛ فنحن لا نتصور إيطاليا دون أن نتصور فوح برتقالها يحمله النسيم الدافىء ولا نتخيل شواطىء بروتيا أو جاستونيا إلا ونتخيل زفر البحر الذى طالما تغنى به فيكتور هوجو ، ولا نتذكر الأراضى البور من غير أن نتذكر فَوْغة أشجار الصنوبر [1] .

وقد قدر العرب هذه الحاسة حق قدرها ، وكان لشم الأشياء المحببة عندهم نشوة لا تعادلها نشوة ، فمن ذلك أن لقيط بن زُرارة كان قد تزوج

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٦٢

بنت قيس بن خالد ذى الجدين ، فحَظيت عنده وحظى عندها ، ثم قتل فآمت بعده وتزوجت رجلا آخر ، فكانت كثيراً ما تذكر لقيطا فلامها زوجها الثانى على ذلك ، فقالت : إنه خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب فطرد البقر فصرع منها ، ثم أتانى وبه نضخ من دم فضمنى ضمة ، وشمنى شمة ، فليتنى مت ثَمَّةَ فلم أر منظراً كان أحسن من لقيط (١) !

ومما نسب إلى على — كرم الله وجهه — : وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة .

ومن قول رملة بنت الزبير لزوجها خالد بن يزيد بن معاوية : إنما نحن رياحين للشم والضم .

وكان ابن العميد والصاحب بن عباد والصابى يكنون عن البنت الصغيرة بالريحانة ، والريحانة أيضاً كناية عن الزوجة .

ويقول ابن المعتز فى ذلك :

ما أقصر الليل على الراقد ... وأهون السقم على العائد
يفديك ما أبقيت من مهجتى ... لست لما أوليت بالجاحد
كأننى عانقت ريحانة ... تنفست فى ليلها البارد

وتقول بعض النساء :

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهى شم الرياحين

وفى ريح الأولاد تقول أعرابية — وهى ترقص ولدا لها — :

ياحبــذا ريح الولدْ ... ريح الخزامى فى البلدْ
أهكذا كل ولد ... أم لم يلد قبلى أحد

ويقول ابن الرومى .

برياض تَخايلُ الأرضُ منها ... خُيَلاء الفتـاة فى الأبراد

(١) المثل السائر — ١٠٧

منظَر مُعجب تحيــة أنف ريحها ريح طيِّب الأولاد

وقيل لأعرابي [1] : أي رائحة أطيب ؟

قال : رائحة بدن تحبه ، أو ولد تَرُبُّه [2] .

وفى ريح الحبيب يقول امرؤ القيس :

إذا قامتا تضوَّع المسكُ منهما نسيم الصبا جاءت بريّا القَرنفُل

ويقول جميل :

وكأن طارقها على علَل الكرى والنجم وهنا قددنا لتغوُّر
بستاف ريح مدامة معلولة بذكى مسك أو سحيق العنبر

ويقول آخر فى طيب أنفاس الحبيب :

بَخور مثل أنفاس الحبيب وطيب قد أخل بكل طيب
يظلّ الذيل يستره ولكن تنم عليه أنفاس الجيوب
إذا ما شمَّ أنف حنَّ قلب كأن الأنف جاسوس القلوب

وفى البيت الأخير ما يدل على أن طيب النساء يثير فى الرجال الانفعال الجنسي ، وقد جاء فى الحديث النهى عن خروج النساء متعطرات والتغليظ فى ذلك حتى جعلت المرأة التى تخرج متعطرة يشم الناس ريحها زانية !

وفى تذكر الحبيب بما فيه مشابه منه قول عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسِّم

وقول آخر :

ذكرتك بالريحان لما شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشَّرْب

---

(١) ديوان المعانى ـ ١ ـ ٢٦٠ (٢) تربه : تربيه .

تذكرت بالريحان منك شمائلا وبالراح طعما من مُقبّلك العذب

وقول أحد بنى القبنطرة الوزراء :

ذكرت سليمى ونارُ الوغى كقلبيَ ساعة تذكارها

وأبصرت قدَّ القنا شبهَا وقد ملن نحوى فعانقتها

قيمة الذوق .

لا أدل على أن لإحساسات الذوق صفة جمالية من أنها أوجدت نوعا من الفن وإن كان خسيساً : أعنى فن الطهى .

وما أظن أفلاطون كان يمزح فقط حين شبه البلاغة بالطهى ، ولعل فى إمكان كل إنسان أن يتذكر بقليل من الانتباه ما قد أحسَّه فى حياته من متع ذوقية كانت فى الحق متعا جمالية .

ولعل لذة إرواء الظمأ ألطف من لذة إشباع الجوع وأدنى منها إلى المشاعر الجمالية .

وتبلغ اللذة ذروتها حين يروى الظمأ ويشبع الجوع فى آن واحد .

لقد رأى لافونتين شيئامن الجمال حتى فى قطعة من السمك وضعت أمام شَرِهين ، ورأى الفردى موسيه شيئاً من الجمال حتى فى فطيرة ساخنة ذات منظر شهى ، بل إن أحد شخوص موسيه يشبه صوت حبيبته بملاك جميل يحمل إبريقا من العسل ، وإن نشيد الأنشاد ، هذا الأثر الشعرى الذى طالما ألهب عواطف الصوفية فى كل العصور يفيض بصور من هذا النوع : عبير فمك يا حبيبتى كخمرة معتقة . صدرك ككأس من الخمر الشذى . شفتاك ياحبيبتى تقطران شهدا . تحت لسانك عسل ولبن . كلوا ياأصدقائى واشربوا واسكروا من خمرة الحب .

وشعر الشعوب البدائيّة يزخر بمثل هذه الاستعارات الحية ، وهذا دليل على أن متعة الأكل والشرب — وهي أغلظ المتع — لا تحتوى فى ذاتها على شيء ينافى الشعر ، حتى إن الإشارة إليها أسرع فى إيقاظ العاطفة الجمالية عند إنسان العصور الأولى .

والمأخذ الذى يوجه إلى الذوق والشم هو أن الإحساسات التى تنقلها إلينا هاتان الحاستان لا يستطيع العقل أن يميز فيها الإدراكات الأولية ؛ فلا يمكن لرائحة من الروائح أن تنحل فى نظر الفكر إلى عدد من الإدراكات البسيطة ، كما ينحل اللحن الموسيقى إلى سلسلة من النغمات المستقلة ، ومن الصعب أن نمزج الروائح أو ندرّجها دون أن نخلطها ؛ إنها إحساسات قل أن يعمل فيها الفكر ولا يمكن أن يخرج منها إدراك شكلى .

وهذا صحيح ، ولكن هل إدراك الشكل والحواس ضرورى فى الانفعال الجمالى ؛ إن هذا الإدراك يكتسب فى الغالب بالمران الطويل [1].

وفى أثر الذوق يقول الكميت بن زيد :

فيهن آنسة الحديث حييّة ليست بفاحشة ولا متفال [2]
وتكون ريقتها إذا نبّهتها كالمسك فوق سُلافة الجريال

ويقول بشار :

أيها الساقيان صُبّا شرابى واسقيانى من ريق بيضاء رُود
إن دائى الصدى وإن دوائى شربة من رضاب ثغر برود

ويقول الشريف الرضى :

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٦٠ — ٦١

(٢) المتفال : المتغيرة الرائحة .

ياعذبة المبسم بُلِّي الجوى بنَهلة من ريقك البارد
أرى غديرا سَـيِّحا ماؤه فهل لذاك الماء من وَارد
من لى بذاك العسل الذائب الجارى م خلال البرَد الجامد

ويقول ابن وكيع :

ريق إذا ما ازددت من شربه ريّا ثنانى الرى ظمآنا
كالخمر أورى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا



الفصل الخامس

المركب الحسى

لا خلاف أن التشبيهات المركبة المنتزعة من مساقط الحواس بخاصة البصرية ، مظهر لبداعة الصنعة ، وروعة الفن ، ومعرض للباقة الفكر ، وأناقة العقل ، وترف الخيال ، وقد استطاع كثير من الشعراء ولاسيما شعراء القصور وأبناء النعمة والرفاهية ، أن يتحفونا بصور زاهية بهجة تفوق ما تنتجه الطبيعة نفسها ، نقف أمامها مسحورين بهذه البراعة فى الجمع بين أشياء يستحيل اجتماعها فى ظل الواقع ، مبهورين بهذه الدقة فى النقش والتلوين والزخرفة ، حتى لنكاد نُخدع عن أنفسنا ، فنحسب النماذج المقروءة صورا مجسدة ترى بالعين المجردة .

والحق أن شعراء الوصف وضعوا بين أيدينا ثروة ضخمة من هذه الصور المؤلفة من غرائب الأشكال ، وروائع الأصباغ تأخذ معها ذهن القارىء فى رحلة بعيدة ممتعة يعود منها رضى البال مثلوج الفؤاد .

فالنارنج كما تجلوه علينا الرياض لا يرتفع حسنه إلى قول ابن المعتز :

وأشجار نارنج كأن ثمارها   حقاق عقيق قد ملئن من الدر

والورد على اختلاف ألوانه لا يتهيأ له من الجمال فى خمائله ماتهيأ له فى نثر أردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ، ودر أبيض ، على كراسى زبرجد ، يتوسطه شَذْر من الذهب .

أو فى شعر على بن الجهم — وقد أخذه من القول السابق — :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرذ وسطها شذر من الذهب

والجُلَّنار لا يمنحنا من المتعة ما يمنحنا قول ابن وكيع فيه :

وجلنـــار بهىّ ضِرَامه يتوقَّـــدْ
بدا لنا فى غصون خضر من الرىّ مُيَّد
يحكى فصوص عقيق فى قبة من زبرجد

والمشمش فى لونه الأصفر الفاقع على أشجاره النضرة السندسية لا يصور لنا هذه الأبهة والروعة التى نلمحها فى قول ابن رشيق :

كأنما المشمش لما بدت أشجاره وهو بها يلتهبْ
خُضر قباب الملك حفّت بها جَلاجل مصقولة من ذهب

وأين يقع الخيار فى لونه ورائحته من قول بعضهم :

انظر إلى عَرف الخيار ولونه كروائح الريحان للمخمور
فكأن ظاهره الزبرجدُ أخضرا وكأنَّ باطنه من البلور

أليست هذه الفاكهة الشعبية المتواضعة لو كانت على هذه الصفة لتنافس فى شرائها المتنافسون من الأثرياء كما يتنافسون فى جمع التحف الثمينة !

وهل للفحم المشتعل هذه الصورة الغريبة التى تأتى خيال عبد الله فكرى فى تنسيقها وتنميقها حتى أصبحت بديعة من البدائع :

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد أذكت به الريح وَهْنا ساطع اللهب
أرض من المسك ، كافور جوانبها يموج من فوقها بحر من الذهب

بيد أن إعجابنا بهذه الصور الخيالية أو الوهمية فى جمال تحاسينها ، ووشى تلاوينها ، واعترافنا بالجهد المبذول فى ترقيشها وتحبيرها وصقلها ، لا يصح أن يذهب بنا مذهب الإمام عبد القاهر الذى يقيس هذه الأشياء فى رفعتها

ونزولها بمقياس « الوجود والعدم » و « سعة الوجود والندرة » حتى ليعد « أعلام الياقوت المنشورة على رماح من زبرجد » من النوع الفاخر البالغ الغاية ، لأنه معدوم أبدا ، ولا يتعدى وجوده الوهم .

ويرى أن قول أبى طالب الرّقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعا — درر نُثرن على بساط أزرق

أبلغ من قول ذى الرمة :

كحلاء فى برَج صفراء فى نعَج — كأنها فضة قد مسها ذهب (١)

لأن الأول غريب قليل نادر الوجود بخلاف الثانى ، فإن الناس يرون فى الصناعات فضة قد أجرى فيها ذهب وطليت به ، ولا يكاد يتفق أن يوجد در قد نثر على بساط أزرق (٢) .

نعم لا نستطيع أن نسلم بهذا المقياس الجامد الذى يعجب بالظواهر والقشور ، ويخدع بالسراب اللماع ، وإنما المقياس الصائب عندنا : اتصال الفن بالحياة ، واندماج الفنان فى الطبيعة ، وفناؤه فى شخصيتها ، وتلاشيه فى روحها الشامل ، فإذا هو جزء مشاع فيها ، يرى ببصرها ويسمع بآذانها ، وينطق بلسانها ، ويصدر عنها فى حركاته وخلجاته وأحاسيسه المختلفة ، فتغدو كل كلمة منه وكأنما هى قلب يضطرم بالحياة النامية ، ويخفق بالعواطف الموارة ، ويضطرب بالمشاعر الجياشة .

فالانفعال الذى يثيره فينا الفنان يكون قوياً حين لا يكتفى بصور بصرية وسمعية باردة ، بل يحاول أن يوقظ فينا أعمق الإحساسات الجسمية من جهة ، وأرفع العواطف الخلقية ، وأسمى المعانى الفكرية من جهة ثانية ، وبتعبير آخر يجب أن يشرك الانفعال الفنى كل أجزاء كياننا الرفيع منها

---

(١) البرج : البياض المحدق بسواد العين كله ، والنعج : البياض الخالص .

(٢) أسرار البلاغة ـــ ١٣٨

والدنى ، فيجب أن يكون إذاً واقعياً جداً ، مادياً جداً ، ولكن يجب فى الوقت نفسه أن يفسح أكبر المجال للعواطف والأفكار .

إن الشيء السطحى الملوم فى الفن إنما هو لعب الخيال من أجل الخيال نفسه : أى تتابع صور باردة لا يمكن أن تنقلب إلى إحساسات مؤلمة أو لذيذة ، ولا إلى أفكار أو عواطف .

ولا يغتفر الخيال الوهمى المحض فى الفن إلا إذا كان رمزاً عقلياً أو خلقيا ، فيكون عندئذ أشبه بالواقع لأنه يبعث على التفكير العقلى والشعور العاطفى ، أما الأشياء التافهة فهى أبعد ما تكون عن الخيال .

وليس التزيين العربى هو المبدأ الذى تحدر منه الرسم والشعر والموسيقى ، بل هو إجهاض الفن قبل اكتمال تكونه ، وأما ما يسمونه التلوين فى الشعر والأدب فلا يكون بجمع لوينات يعبث البصر بالنظر إليها ، فالتلوين فى الأدب لا يتم على وجه العموم إلا بتصوير إحساسات حية لا ميتة ، حارة لا باردة ، وقد لا يكون لها أى صلة بإحساسات البصر (١) .

فقول القاضى عياض يصف خامات زرع بينها شقائق النعمان وقت هبوب الريح :

انظر إلى الزرع وخاماته   تحكى وقد مالت أمام الرياحْ
كتائب تُجفل مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح

أجمل من قول ابن وكيع يصف الكتان :

ذوائب كتان تَمايل فى الضحا   على خُضر أغصان من الرِّى مُيَّد
كأن اصفرار الزهر فوق اخضرارها   مداهن تبر رُكِّبت فى زبرجد

لأنه أرانا صورة يمكن أن نراها فى الحياة كثيراً ، وهى صورة كتائب

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٧٢

حقت عليها الهزيمة ، فأمعنت فى الهرب ، وقد سالت عليها دماء الجروح ، ولكن مداهن التبر المركبة فى الزبرجد صورة جامدة بل ميتة لأنها لا تتمثل إلا فى الخيال الجموح .

وقول بعضهم فى النارنج :

وأغصان مقوّمة حسان ومنها ما يرى كالصّولجان
كأن بها ثُدِيًّا ناهدات غلائلها صُبغن بزعفران

ألصق بالفن وأكبر صلة بالحياة من قول ابن وكيع أيضا :

انظر إلى النارنج فى أغصانه يلوح فى أفنان هاتيك الشجرْ
مثل دبابيس نضار أحمر أو كعقيق خُرطت منه أُكَرْ

فقد اشتق الأول تشبيهه من الحياة الزاكية المخصبة ، وأتانا بشيء نهتز له ارتياحا ، ونشاهده فى مجالى الكواعب الحسان صباحا ومساء ، ويكفى أن نعرف أن العامة يتغنون فى هذا المعنى بقولهم :

لابسهْ قميص مشمشى بين النهود ملفوف

أليست هذه النهود الملفوفة فى القميص المشمشى ، هى هذه الثدى الناهدات فى الغلائل المصبوغة بالزعفران فى قول الشاعر المتقدم ، بيد أن ذلك من صياغة العامة وهذا من صياغة الخاصة ؟

إن الحياة الواقعية تنادى على نفسها فى هذا التشبيه .

ولكن ما الذى تثيره فينا هذه الدبابيس من النضار الأحمر ، أو هذه الأكر المخروطة من العقيق ، وإن كان الشبه بينها وبين النارنج قويا متينا .

وقول بعضهم فى وصف الثوم :

الثوم مثل اللوز إن قشرته لولا روائحه وطعم مذاقه
كالنذل غرّك منظرًا فإذا ادعى لفضيلة يُنمَى إلى أعراقه

أبلغ من قول الآخر :

يا حبذا ثومة فى كف طاهية   بديعة الحسن تَسبى كل من نظرا
أبصرتها وهى من عُجْب تُقلِّبها   كصرة من دَبيقٍ حوت دررا [١]

فالثوم ذو فصوص جميلة المنظر كالأظافر غير مقشورة ولها لون العاج إذا قشرتها ، ولـكنه حاد الطعم كريه الرائحة ، وقد وجد له الشاعر مشابه فى النذل الحسن الظاهر ، القبيح الباطن ، فجاء التشبيه صائبا دقيقا لأنه اشتقه من صميم الحياة ، وأبرز لنا صورة نابضة غير مزيفة مشحونة بعاطفة البغض والزراية .

أما هذه الصره من هذه الثياب الخاصة المنسوجة فى دبيق والحاوية للدرر ، فلا يتجه إليها خاطر الفنان الأصيل الذى يحلق فى السماء ولا يدب على الأرض .

والفن — كما قال كروتشة — : تركيب فنى قبلى حقيقى ، تركيب للعاطفة والصورة فى الحدس ، تركيب تستطيع أن تقول بصدده : إن العاطفة بدون صورة : عمياء ، والصورة بدون عاطفة : فارغة .

وقد قالوا عن رفائيل : لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غير أنهم لم يقولوا : لولم يكن له إحساس بالرسم لظل مصورا عظيما [٢] .

إن فضل التشبيه أن يزيدنا إحساسا بالصورة لا أن يرسمها لنا كما ترسمها المصورة الشمسية ، لأنه وسيلة إلى تمام التعبير عن الوعى والشعور .

أما التشبيه الذى لا يزيدنا حسا ولا تخيلا ، فهو فضول وتعثر يعوق عن الغاية ولا يؤدى إليها .

ولهذا ننكر قول ابن المعتز فى وصف الهلال — وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه لمحض التشبيه — .

---

(١) الدبيق : نوع من الثياب الدقيقة ينسب إلى دبيق ، وهى بليدة مصرية كانت بين الفرما وتنيس ثم خربت .

(٢) المجمل فى فلسفة الفن — ٥٥ — ٦٣

وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فلو أننا تمثلنا زورقا من فضة وتمثلنا حمولة من عنبر تثقله ، لما زادنا ذلك إحساسا بالهلال ، ولا إعجابا بحسنه وشكله ، وإنما هو التشبيه الآلى الذى هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر ووعيه .

وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرىء القيس مثلا حين يقول فى وصف الشحم :

وشحم كهُداب الدِّمَقس المفتَّل

فأنت حين تقرأ هذا البيت تحس نَهم الآكل ، ونظرته إلى الشحم الذى يأكله ، والتذاذه بأكله ، وذلك هو المقصود بالشعر ، والمقصود من أجل ذلك بالأوصاف ، ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن نفاسة الدمقس هى التى عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هى التى تعنى ابن المعتز ، وربما ظنوا لذلك قيمة التشبيهين سواء وهما جد متفاوتين ، لأننا حين نتخيل ابن المعتز ينظر إلى الهلال ويشبهه بالزورق والحمولة ، إنما نتخيل رجلا يعمل الفكرة فى التوفيق بين الأشكال والألوان .

أما امرؤ القيس فنحن نتخيله مع العذارى حين نقرأ ذلك البيت كما أراد أن نتخيله وأن نتخيلهن ، وتنصرف أذهاننا توًّا إلى حالة الآكل المقصودة ، لا إلى تسويم قيمة الشحم والحرير الأبيض فى السوق .

وهذا مع أن التشبيه المحسوس بين الشحم والحرير الأبيض أقرب وأحكم من التشبيه المحسوس بين الهلال وزورق الفضة على فرض وجوده [1].

ويكفى فى الرد على عبد القاهر أن التشبيهات الواردة فى القرآن الكريم والحديث الشريف مما يتحقق وجوده فى الخارج كقوله تعالى : « أو كظلمات

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ العقاد ـ ٧٢ ـ ٧٤

فى بحر لجى» . . » «كمثل الحمار يحمل أسفارا » «كمثل الـكلب ...» إلى غير ذلك من الأمور الممكنة الوقوع ، وسر ذلك أنها أدخل فى التحقيق وأقرب إلى التيقن مما لا يكاد يقع [١] .

وإذا كنا قد مثلنا فيما تقدم لبعض الصور الجامدة التى تمثل جمال الصنعة فقط ، فإننا نرى من العدل أن نورد بعض الصور الصادرة عن الوعى الشعورى النابض بروح الفن .

ومن حق هذه القطع علينا أن نثبت أبياتها جميعا لا ما يتعلق منها بالتشبيه وحده ، حتى لا تنفصم عروتها ويذهب جمالها وتتمزق وحدتها ، فالبيت إذا قطع من القطعة — كما يقول عبدالقاهر — كالكعاب تنفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها فى العقد أبهى فى العين ، وأملأ بالزين منها إذا أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر [٢] .

فمن ذلك قول محمد بن سفر الأندلسى :

وواعدتها والشمس تجنح للنوى ... بزورتها وهنا وبدر الدجى يسرى
فجاءت كما يمشى سنا الصبح فى الدجى ... وطورا كما مر النسيم على النهر
فعطرت الآفاق حولى فأشعرت ... بزورتها والعَرف يُشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصّى قارىء أحرف السطر
وبت بها والليل قد نام والهوى ... تَنبّه بين الغصن والحِقف والبدر [٣]
أعانقها طورا وألثم تارة ... إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففُضّت عقود للتعانق بيننا ... فيا ليلة القدر اتركى ساعة النَّفْر

وله فى وصف نهر إشبيلية :

شقّ النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره

(١) الطراز — ٣ — ٢٨١ (٢) أسرار البلاغة — ١٦٧
(٣) الحقف بالكسر : المعوج من الرمل .

فتضاحكت وُرق الحمام بدوحها　　هزؤا فضم من الحياء إزاره

ولأبى سعد الخير الأندلسى فى وصف دولاب :

لله دولاب يفيض بسلسل　　فى روضة قد أينعت أفنانا
قد طارحتْه بها الحمائم شجوها　　فيجيبها ويرجّع الألحانا
فكأنه دنف يدور بمعهد　　يبكى ويسأل فيه عمن بانا
ضاقت مجارى طرفه عن دمعه　　فتفتحت أضلاعه أجفانا

ولابن أبى الصلت الأندلسى فى لابس قرمزية حمراء :

أقبل فى قرمزية عجب　　قد صُبغت لون خده الشَّرِق
كأنما جيــده وغرته　　من دونها إذ بدون فى نسق
عمود فجر من فوقه قمر　　دارت به قطعة من الشفق

وللعتّابى فى البرق :

أرقت للبرق يخفو ثم يأتلق　　يخفيه طورا ويبديه لنا الأفق
كأنه غرة شهباء لائحة　　فى وجه دهماء سائى جلدها بلق
أو ثغر زنجية تفتر ضاحكة　　تبدو مشافرها طورا وتنطبق
أو ثلة البيض فى جأواء مظلمة　　وقد تلقّت ظباها البَيْض والدرق
والغيم كالثوب فى الآفاق منتشر　　من فوقه طبق من تحته طبق
تظنه مُصْمَتا لافتق فيه فإن　　سالت عزاليه قلت الثوب منفتق
إن معمع الرعد فيه قلت ينخرق　　أو لألأ البرق فيه قلت يحترق
تستك من رعده أذن السميع كما　　تعشى إذا نظرت من برقه الحدق
فالرعد صهصلق والريح منخرق　　والبرق مؤتلق والماء منبعق (١)

---

(١) صهصلق : شديد الصوت .

قد حال فوق الربى نَوْراله أرج — كأنه الوشي والديباج والسَّرَق[1]
من خضرة بينها حمراء قانية — أو أصفر فاقع أو أبيض يقَق

وللوزير بن السفاط :

ويوم لنا بالخَيف راق أصيله — كما راق تبر للعيون مذاب
وللموج تحت الريح منه تكسر — تَولَّد فوق المتن منه حَباب
وقد نجمت قضب لدان بشطه — حكتها قدود للحسان رطاب
وأينع مخضرُّ النبات خلالها — كما أقبلت نعمى وراق شباب

وقول يزيد بن عبد الله بن خالد فى السفن :

ويا لَلجوارى المنشئات وحسنها — طوائر بين الجو والماء عُوَّما
إذا نشرت فى الجو أجنحة لها — رأيت به روضا ونَوْرا مكمَّما
وإن لم تهجه الريح جاء مصافحا — فمدت له كفا خضيبا ومعصما
مجاذف كالحيات مدت رءوسها — على وَحل فى الماء كى تُروىَ الظما
كما أسرعت عَدًّا أنامِلُ حاسب — بقبض وبسط يسبق العين والفما
هى الهدب فى أجفان أكحل أوْطف — فهل صُنعت من عَنْدم أو بكت دما

ولابن الرومى :

حيتك عنا شَمال طاف ريِّقها — بجنة فجرت رَوحا وريحانا
هبت سُحيرا فناجى الغصنُ صاحبه — سِرًّا بها وتداعى الطير إعلانا
وُرق تُغنِّى على خضر مهدَّلة — تسمو بها وتمَس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوانَ من طرب — والغصنَ من هزه عطفيه نشوانا

---

(١) السرق بفتح الراء : شقق الحرير الأبيض واحدته سرقة .

وللبحترى :

من ذا رأى مزنا تأزّر برقه   فى عارض عريان لم يتـأزّر
غيث أذاب البرق شحمةَ مزنه   والريح تنظم منه حبَّ الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبـا   من بعد ما انغمست به فى العنبر
ويُضىء تحسب أن ماء غمامه   عقـد تنـاثر فى إناء أخضر

وللصنوبرى فى تصوير عواطف الأزهار :

خجل الورد حين لاحظه النر   جس من حسنه وغار البَهـار
فعلت ذاك حمرةٌ وعلت ذا   صفرة واعترى البهار اصفرار
وغدا الأقحوان يضحك عُجبا   من ثنـايا لثـامهن نُضـار
ثم نمَّ النَّمـام واستمع السو   سن لمـا أُذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خـدودا   صار فيهـا من لطمـه آثار
سُـكبت فوقها دموع من الطلِّ   م كما تُسكب الدموع الغزار
فتردَّى البنفسج الغض أثوا   ب حداد قد خانهـا الاصطبار
وأضر السَّقام باليـاسمين النَّضْـ   ـر حتى أودى به الإضرار
ثم نادى الخَيْرِىّ فى سائر الزهر   م فوافاه جحفـل جـــرار
فاستجاشوا على محاربة النرجس   م بالجحفل الذى لا يُبـار[1]
فأتوا فى جواشن سـابغات   تحت نَجْف من العجاج يثار[2]
ثم لما رأيت ذا النرجسَ الغض   م ضعيفا ما إن لديه انتصـار
لم أزل أعمـل التلطُّف للور   د حذارا أن يغلب النُّـوار
فجمعناهم لدى مجلس فيـه   م تُغنِّى الأطيـار والأوتار

(١) استجاشوا : دعا بعضهم بعضا .   (٢) الجواشن : الدروع .

لو ترى ذا وذاك قلت خدود ... تُدمن اللحظَ حولها الأبصار

ولشهاب الدين الدمياطى فى الموز — وهى من القطع الزاخرة بالخصب والحيوية — :

كأنما الموز فى عراجنه ... وقد بدا يانعا على شجره
فروع شعر برأس غانية ... عُقِّص من بعد ضَمّ مُنتَشِره
كأن مَن ضمّه وعقّصه ... أرسل شَرّابةً على أثره
كأن أمشاطه مكاحل من ... زُمُرد نُظِّمت على قَدَره
كأنما زهره الأنيق وقد ... شُقِّق عنه كِمام مستتره
نظام ثغر يزينه شنب ... ممتزج شهدُه بمعتَصره
كأن قامات سوقه عَمَد ... حنت أواوينُها على جدُره
كأن أشجاره وقد نشرَت ... ظلالَ أوراقها على ثمره
حاملة طفلها على يدها ... تقيه حر الهجير فى خُمُره
كأنما ساقه الصقيل وقد ... بدت عليه رُقوم معتبِره[1]
ساق عروس أميط مئزرها ... فبان وشى الخضاب فى حِبَره
تصاغ من جوهر خلاخلها ... فتنجلى والنثّارَ من زَهره
حدائق خفّقت سناجقها ... كأنها الجيش أمَّ فى زُمَره[2]
وكل آياته فباهرة ... تَبين فى ورده وفى وصدَره
كأنما عمره القصير حكى ... زمان وصل الحبيب فى قصره

---

(١) يريد « برقوم معتبره » : العقد التى تكون فى شجر الموز يعتبر بها المعتبر ويحسب بها أيامه . انظر تذكرة داود — ٢ — ٢٠٣ طبع بولاق .

(٢) السناجق : الألوية .

كأنه البدر فى الكمال وقد   أصيب بالخسف فى سنا قمره
كأنه بعد قطعه وقد اصفرّ   م لما نال من أذى حَجَره[١]
متيم قد أذابه كمد   يبيت من وجده على خطره
معلّق بالرجاء ظاهـــرد   يُخبر عما أجنّ من خبره
يَطيب ريحـا ويُستلذّ جنًى   على أذى زادفوق مُصطبَره
كأنه الحُرّ حال محنتـه   يزيد صبرا على أذى ضرره

وهذا غيض من فيض مما حفلت به دواوين الشعراء قديما وحديثا ، هذا كله يعرب عن هذه الروح المفتونة بالطبيعة والتغلغل فى أطوائها والنفوذ إلى سرها ولبابها ، واستجلاء مفاتنها ، وتصوير مباهجها ، فجاء الشعر دافقا بالقوة ، متفجرا بالحيوية ، متنزيا بالأشعة ، متوشحا بالظلال متضوعا بالعبير المسكر ! .

---

(١) المراد بالحجر هنا : الحجر الذى يوضع على الموز ليكبس بعـد قطعه من شجره إلى أن يتم نضجه .

الفصل السادس

الهيئات والحركات فى المركب الحسى

من بديع المركب الحسى ما يجىء منه فى الهيئات التى تقع عليها الحركات من الاستدارة والاستقامة وما إلى ذلك .

ويرجع هذا إلى أن المعانى المحسوسة بطبعها غيرقابلة للإغراق والتهويل كالمبانى مثلا ، فإن لكل بناء مساحة محدودة وارتفاع معين وسمك معروف ، لايصعب علينا أن نقيسها بالأذرع والأمتار قياسا مضبوطا دقيقاً ، ومن شأن ذلك أن يحدَّ من خيالنا ، ويقيد نشاطنا اللفظى والعقلى ، ويعوقنا عن السبح والانطلاق كما نشاء .

ونجد عكس ذلك فى المعانى العاطفية على اختلاف ألوانها ، فإنها تتباين تبايناً كبيراً واضحاً فى قوتها وضعفها فى الأشخاص بل فى الشخص الواحد ، فمن العسير ضبط معاييرها ، وقياس احتدامها ، وتحديد درجتها ، ومن هنا كانت الألفاظ الفخمة الضخمة ، والكلمات الطنانة الرنانة ، والتعبيرات الصارخة الصاخبة الكثيرة المقاطع أكثر من غيرها ملائمة للمعانى الشعورية لتعرب فى صدق عن قوتها وشدتها وحدتها واضطرامها .

ومن المسلم به أن الحركات توائم الألفاظ فى تعاقبها وانطلاقها وعدم استقرارها ، بخلاف الأجسام الجامدة الصامتة المقيدة بقيود المكان .

فالألفاظ كما يستخدمها الشاعر ، أوكما تستخدمها أنت ويستخدمها كل إنسان للتعبير عن خواطره ومشاعره ليس لها شىء من خصائص المكان .

هى حركة عقلية ونشاط ذهنى ، فهى لاتملأ حيزًا من مكان وإنما تشغل جزءاً من الزمان ، فاللفظتان أو الألفاظ لاتتجاور فى مكان ، لا يقف

بعضها إلى جانب بعض كالأشجار والأحجار ، لكنها تتعاقب بعضها فى إثر بعض فى فترة من زمان .

انطق بالعبارة فلن تجد لعبارتك مساحة، ولكنك ستجد لها زمناً قيلت فيه ، وإذا ما نطقت بالكلمة الثانية فقد ذهبت الأولى إلى العدم ، أو قل : أصبحت ماضيا ويستحيل عليهما أن تقفا جنباً إلى جنب كما تقف الأجسام .

ولكن أى جوانب الطبيعة يخضع لنفس الظروف التى تخضع لها الألفاظ حتى تتخذ منه موضوعاتها ؟

أى الأشياء فى الطبيعة لا يملأ حيزا من مكان ولكنه يستغرق فترة من الزمان ؟

أى الأشياء فى الطبيعة تتعاقب ولا تتجاور ؟

إنها الأفعال ، ولا فرق بين أن يكون الفعل حركة فى جماد أو فى كائن حى ، لا فرق بين أن يكون الفعل لإنسان أو زهرة أو ماء متدفق أو ريح عاصفة .

فالفعل هو خير مجال تتجلى فيه قدرة الشعر على التعبير ، فإن حاول وصف الأجسام لذاتها قصر دون التصوير ، كما يقصر التصوير دون الشعر إن حاول تمثيل الفعل(١) .

ولهذا نجد أن وصف البحر وهو هائج العباب مصطخب الآذى، أسهل من وصفه وهو ساكن الصفحة كالحصير، وتصوير السحب المتدفقة كأفواه القرب ، الخالعة للقلوب بزئير رعدها ، الخاطفة للأبصار بسنا برقها ، أيسر من تصوير سحب الصيف الراكدة الرقيقة التى تتقشع بعد قليل .

وقد وصف ابن خفاجة الجبل وصفاً رائعاً خلابا بقوله :

وأرعنَ طمّاح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب

(١) فنون الأدب ـــ ١١٣

يسد مهبَّ الريح من كل وجهة ... ويزحَم ليلا شهبَه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مُفكر فى العواقب
يَلُوث عليه الغيمُ سودَ عمائم ... لها من وميض البرق حمرُ ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثنى ليلَ السرى بالعجائب
وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أوَّاه تبتَّل تائب
ولاطم من نُكْب الرياح معاطفى ... وزاحم من خُضر البحار غواربى
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خَفْق أيكى غير رجفة أضلع ... ولا نوح وُرقى غير صرخة نادب
وما غيَّض السلوانُ دمعى وإنما ... نزفت دموعى فى فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعَن صاحب ... أودّع منه رحلا غير آئب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا ... فمن طالع أخرى الليالى وغارب
فرحماك يامولاى دعوةَ ضارع ... يمدُّ إلى نُعماك راحة راغب
فأسمعنى من وعظه كل عِبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلَّى بما أبكى ، وسرَّى بما شجا ... وكان على عهد السُّرَى خير صاحب
وقلت وقد نكّبت عنه لطِيَّة ... سلام فإنا من مقيم وذاهب (١)

ولكننا نراه لم يتحدث كثيراً عن طوله وضخامته ، لأن مجال القول ضيق فى هذه النواحى الجامدة ، فهو يقف عليها وقفة قصيرة ثم يقفز إلى جوانب أخرى متحركة نشيطة يتشقق فيها الكلام ، وتنفسح آفاقه ، وتتشعب فنونه ، فيبعث فى الجبل روح الحياة ويخلع عليه ثوب التشخيص ، ثم يصيخ إليه السمع وهو يقص عليه أطرافا من حياته الموغلة فى القدم ، الحافلة

(١) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، ومن فى « من مقيم » زائدة أو بيانية .

بالحوادث والعاديات ، المليئة بالمفارقات والمتناقضات ، العامرة بالعبر والعظات ، ويبثه وجده الدفين ولوعته الساعرة على من فارقه من أصحابه وهو مقيم لا يرحل ، حتى سئم البقاء وحن إلى الفناء !

ولا شك أن الشاعر قد جاءنا بشيء طريف بارع ، ولو أنه قصر وصفه على ذات الجبل ما استطاع أن يقول غير كلام غث مبتذل متداول .

وهذا شاعر عصري يصف « جبل طارق » بقصيدة منها[١]:

عَلَمٌ تسامى غاربا وسَناما ... تزهو الكواكب فوقه أعلاما
يأبى على غُرِّ السحاب جبينه ... تقبيلَها فتقبِّل الأقداما
ويسير زَخّار العباب بسفحه ... متطامناً . يَحنى إليه الهاما
وتمر هوجاء الرياح حِيالَه ... حسرى على أعتابه تترامى
وترى «الجوارىَ» لاتنال سلامها ... إلا إذا ألقت عليه سلاما

* * *

ما باله حضن « المضيق » كأنه ... صب تدلَّه فى المضيق غراما
يرعى شواطئه بمقلة ساهر ... عاف المنام فلا يذوق مناما
رصد على « البرين » مد أصابعا ... سُفعاً تصب على المغير حماما
وثوى على «البحرين» أرعنَ لابسا ... وشىَ الحديد على الجلامد لاما[٢]
لو ساور الجيشُ اللُّهام شِعابَه ... لقىَ الحتوف قذائفاً وسهاما
أو خالفت شُمُّ الدوارع أمره ... طاحت على ثَبَجِ المياه حُطاما[٣]
إن لم يكن « كالألْب » طال ذؤابةً ... فلقد أناف على السُّها وتسامى

(١) أغاريد السحر — ٨٢
(٢) اللام مسهلة الهمزة : الدروع المحكمة الملتئمة جمع لأمة .
(٣) الثبج : الوسط .

وأرى الجبال تفاوتت أقدارُها　　مثلَ الرجال مكانة ومَقاما

فأنت ترى هذا الشاعر أيضاً راغ عن وصف الجبل نفسه ، ووصف ملابساته المختلفة ، بعد أن جعله كائناً حياً بما نفخ فيه من روح الحياة .

ولو أنه وقف عند الأوصاف المعروفة المجردة : من الارتفاع والضخامة والخشونة وغيرها ما قال : إلا أنه صخرة جرداء منيعة .

ولقد أمكن لطَرفة أن يصف الناقة وصفاً مفصلا مستوعباً بأكثر من ثلاثين بيتا : أى بما يساوى قصيدة كاملة ، لأنه وصف حيوانا له حركات وأفعال منوعة ، ولكن هذه الشاعرية المبدعة كانت تحس حتما بالعجز والقصور لو تصدت لوصف شيء مستقر كالجبل والتل والكثيب مثلا ، وما استطاعت أن تتفتق إلا عن أبيات معدودة لا تروى ظمأ الفنان .

هيئة الحركة فى المركب الحسى :

تأتى هيئة الحركة فى المركب الحسى على ضربين :

١ — أن تقترن الحركة بغيرها من أوصاف الجسم كالشكل واللون كما فى قول أبى النجم العجلى :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل　　لما رأيتها بدت فوق الجبل

أراد أن يريك مع الشكل الذى هو الاستدارة ، ومع الإشراق والتلألؤ على الجملة ، الحركة التى تراها للشمس إذا أنعمت التأمل ، ثم ما يحصل فى نورها من أجل تلك الحركة ، وذاك أن للشمس حركة متصلة دائمة فى غاية السرعة ، ولنورها بسبب تلك الحركة تموّج واضطراب عجب ، ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة فى يد الأشل ، لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد ، حتى ترى المرآة لا تقر فى العين ، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب

الذى كأنه يسحر الطرف ، وتلك حال الشمس بعينها حين تحد النظر وتنفذ البصر حتى تتبين الحركة العجيبة فى جرمها وضوئها . فإنك ترى شعاعها كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها ، ثم يبدو له فيرجع فى الانبساط الذى بدأه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط.

وحقيقة حالها فى ذلك مما لا يكمل البصر لتقريره وتصويره فى النفس ، فضلا عن أن تكمل العبارة لتأديته ، ويبلغ البيان كنه صورته[1] .

ومثله فى غير المرآة قول الوزير المهلبي :

الشمس من مشرقها قد بدت   مشرقة ليس لها حاجب

كأنها بوتقــة أُحميت   يجول فيها ذهب ذائب

فإن البوتقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها فى الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة ، كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها لما فى طبعه من النعومه ، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لما بين أجزائه من شدة الاتصال والتلاحم . ولذلك لايقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء[2] .

ومثله قول ظافر الحداد :

انظر لقرن الشمس بازغة   فى الأفق تبدو ثم ترتفع

كسبيكة الزَّجاج ذائبة   حمـــراء ينفخها فتتسع

ومن عجيب ما جُمع فيه بين الشكل وهيئة الحركة قول الصنوبرى :

كأن فى غدرانها   حواجبا ظلت تُمـــط

أراد ما يبدو فى صفحة الماء من أشكال كأنصاف دوائر صغار ، ثم إنك تراها تمتد امتدادا ينقص من انحنائها وتحدُّبها كأنما تُباعد بين طرفى القوس

(١) أسرار البلاغة ـ ١٤٦   (٢) الإيضاح ـ ١٦٣

وتثنيها إلى ناحية الظهر ، كأنك تقربها من الاستواء وتسلبها بعض شكل التقوس الذى هو إقبال أحد طرفيها على الآخر .

ومتى حدثت هذه الصفة فى تلك الأشكال الظاهرة على متون الغدران كانت أشبه شيء بالحواجب إذا مدت ، لأن الحاجب لايخفى تقويسه ، ومده ينقص من تقويسه .

وقريب منه قول شاعر يصف البرق :

أرقت لبرق سرى موهنا خفيتاً كغمزك بالحاجب
كأن تألقه فى السماء يدا كاتب أو يدا حاسب

وقول أبى منصور البغوى :

تراءت لنا من خدرها بسوالف كما لاح بدر من خلال سحاب
وهزَّ الصبا صدغا لها فوق خدها كما رُوِّحت نار بريش غراب

٢ — أن تجرد هيئة الحركة من كل وصف يكون فى الجسم كالشكل واللون ، فلا ينظر إلا للحركة فقط مجردة عن الجسم وسائر أوصافه : أى أن يميز ما به المشابهة عما به الامتياز .

كقول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

وقول ابن المعتز يصف فرسا له :

وله أربع تراها إذا هملج م تحكى أنامل الحساب

وأنامل الحساب يشبه بها ما يوصف بالسرعة .

وقول شاعر :

كأن فؤادى فى مخالب طائر إذا ذكرتك النفس شدَّ به قبضا

---

(١) هملج : مشى مشية سهلة بسرعة .

وقول آخر :

تمشى فتثقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف

ولاريب أن حركات الجسم تختلف ، فمنها الحركات غير المركبة كحركة الرحى والدولاب والسهم لأن الجهة واحدة .

ومنها الحركات المركبة، وقد تكثر هذه الحركات فيكون للجسم حركات مختلفة ، كأن يكون بعضها إلى اليمين وبعضها إلى الشمال ، وبعضها إلى العلو وبعضها إلى السفل ، ليتحقق التركيب وإلا لكان وجه الشبه مفرداً وهو الحركة لا مركبا .

فمن الحركات المركبة قول ابن المعتز :

وكأن البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

اكتفى من جميع أوصاف البرق ومعانيه بالهيئة التى يراها من انبساط يعقبه انقباض ، وانتشار يتلوه انضمام ، ثم التمس له شبها فأصابه فى حركة المصحف الخاصة ، دون اعتبار شىء معها من صفات الجسم كالشكل واللون كما فى « المرآة فى كف الأشل » .

فالمصحف يفتحه القارىء مرة فيتحرك إلى أسفل ، ويطبقه أخرى فيتحرك إلى أعلى ، ولا شك أن هذه الحركة فى الانطباق والانفتاح فيها تركيب ، لأنه يتحرك فى كل حال إلى جهتين ، ففى حالة الانفتاح يتحرك اليمين إلى اليمين واليسار إلى اليسار ، وفى حالة الانطباق يتحرك اليمين إلى اليسار واليسار إلى اليمين .

ولم يكن حسن حال التشبيه لكونه جامعا بين المختلفين من جنس ، بل لحصول الاتفاق بينهما من ذلك الوجه ، فلأجل اجتماع الأمرين : أعنى الاتفاق التام والاختلاف التام كان حسنا بديعا .

ومثله قول القلعي المغربي :

والسحب تلعب بالبروق كأنها   قار على عجل يقلّب مصحفا

وقول أبي طالب المأموني يصف دارا :

وكأن الأبواب صحب تلاقين   م انفقالا ثم افترقنا انفتاحا

وكأن الستور قد نشر الطاوو   س منها في كل باب جناحا

وكلما كان التفاوت في الجهات التي تتحرك أبعاض الجسم إليها أشد، كان التركيب في هيئة التحرك أكثر .

فما جاء من ذلك ولطف وعرف ؛ لما فيه من التفصيل والتركيب قول الأعشى يصف السفينة في البحر وتلاعب الأمواج بها .

يَقِص السفينُ بجانبيه كما   ينزو الرُّباح خلاله كرَع(١)

شبه السفينة في انحدارها وارتفاعها بحركات الفصيل في نزوه ، وذلك أن الفصيل إذا نزا ـ ولا سيما في الماء وحين يعتريه ما يعتري المهر ونحوه من الحيوانات التي هي في أول النشء ـ كانت له حركات متفاوتة تصير لها أعضاؤه في جهات مختلفة ، ويكون هناك تسفُّل وتصعد على غير ترتيب وبحيث تكاد تدخل إحدى الحركتين في الأخرى ، فلا يثبته الطرف مرتفعا حتى يراه منحطا متسفلا ، ويهوى مرة نحو الرأس ومرة نحو الذنب ، وذلك أشبه بحال السفينة وهيئة حركاتها حين يتدافعها الموج .

ومنه قول بعضهم :

حفّت بسَرو كالقيان تلفّحت   خضر الحرير على قوام معتدل

فكأنها والريح جاء يميلها   تبغي التعانق ثم يمنعها الخجل

ففي البيت الثاني تفصيل ظريف فاتن ، فقد راعى الحركتين : حركة التهيؤ

(١) تقص : تثب ، الرباح كرمان : الفصيل وقيل : القرد ، والكرع : ماء السماء .

للدنو والعناق ، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق ، وأدّى ما يكون فى الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية لطيفة تحسب معها السمع بصرا ؛ تبيينا للتشبيه كما هو وتصويرا ، لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها فى حال خروجها من مكانها من الاعتدال. وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدا من حركته إذا هم بالدنو فإزعاج الخوف والوجل أبدا أقوى من إزعاج الرجاء والآمل ، فمع الأول تمهل الاختيار وسعة الحوار ، ومع الثانى حفز الاضطرار وسلطان الوجوب [(١)] .

وقريب منه قول البحترى :

ولم أنس ليلتنا فى العناق … لفَّ الصَّبا بقضيب قضيبا
كما أقبلت الريح فى مرها … فطورا خفوتا وطورا هبوبا

وكما تعتبر هيئة الحركة فى التشبيه ، فكذلك تعتبر هيئة السكون نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك ، فإذا وقع شىء من هيئات الجسم ، فى سكونه تركيب وتفصيل لطف التشبيه وحسن مثل قول المتنبى — فى صفة كلب صاد ظبيا من غير صقر — :

يُقعى جلوسَ البدوىِّ المصطلى … بأربع مجدولة لم تُجْدَل

فقد نال التشبيه حظا من الحسن ، لأن فيه تفصيلا من حيث كان لكل من الكلب فى إقعائه موقع خاص ، وكان مجموع تلك المواقع فى حكم أشكال مختلفة تؤلف ، فتجىء منها صورة خاصة مؤلفة من جميعها .

وكذلك صورة جلوس البدوى عند الاصطلاء بالنار .

---

(١) أسرار البلاغة — ١٧٠

فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تقارن سكنات الأعضاء حالة وقوع كل عضو منه موقعه المخصوص به فى إقعائه .

وخص البدوى بالذكر لأنه فى الغالب هو الذى يقع منه الاصطلاء على هذا الوجه .

ومنه قول الأهوازى [1] فى صفة مصلوب :

كأنه عاشق قد مد صفحته   يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لُوثته   مواصل لتمطِّيه من الكسل [2]

لطُف التشبيه لكثرة حظه من التفصيل ، فلم يقف عند وصفه بالمتمطى لأنه قريب التناول .

فهذا القدر يقع فى نفس الرائى للمصلوب ابتداء لكونه من باب الجملة ، ولكن قيده بما يفيد استدامة تلك الحال ، ثم ذكر علة ذلك وهو اللُّوثة والكسل فيه ، وهذا يحتاج إلى قوة تأمل وفضل تدقيق لحاجته أن ينظر إلى ثلاث جهات ؛ فيقول : هو كالمتمطى ، ولكن المتمطى يمدظهره ويده مدة ثم يعود إلى حالته ، فيزيدفيه أنه مواصل لذلك التمطى ، ثم يطلب علته وهى قيام اللوثة والكسل فى القائم من النعاس .

وفى البيت الأول اعتبر هيئة سكون عنقه وصفحته فى حال امتدادهما ، واعتبر مع ذلك السكون صفة اصفرار الوجه بالموت ، لأن تلك الهيئة موجودة فى العاشق الماد عنقه وصفحته لوداع المعشوق ، فهى هيئة أضيف إلى السكون فيها غيره من أوصاف الجسم .

---

(١) قال أبو الحسن : هو رجل محدث من أهل البصرة ويعرف بالأخيطل ويلقب برقوقا الكامل « شرح المرصفى » — ٦ — ١٧٢ .

(٢) اللوثة بالضم : الاسترخاء .

الفصل السابع

تشبيه الصورة بالمعنى
أو
المحسوس بالمعقول

كانت العرب تعنى بصب المعانى فى القوالب المحسوسة ، وتبالغ فى ذلك كل المبالغة ، سواء فى ذلك ماتقع عليه الحاسة من الأوصاف ،أو كان تعبيراً عن الخواطر النفسية ، ونبضات العواطف .

وكانت تستعين على إبرازذلك بالتشبيهات والاستعارات المادية وماإليها من صور البيان ، ولم تكن تلقى بالها إلى مايسمى بالتشبيهات الخيالية والوهمية لأن البيان عندها كما يدل عليه معناه اللغوى بل كما ينطق به اسمه : ظهور ووضوح .

فنتاجها على العموم صور مادية لا تخرج عن نطاق الحواس الظاهرة ، تلمس الحقائق وتعنى بالتفصيلات ، وتهتم بالأجزاء ، وتنفر من الغموض والإبهام ، وتدور حول الخصوص لاالعموم ، وتكره التدسس إلى ماوراء الماديات المنظورة ، لسبر أغوار النفس واستنباط سوانح العقلية الباطنية .

ولعل ذلك هو السبب الأكبر فى أنهم لم يبرعوا فى فنون القصص براعتهم فى الشعر فقد وجهوا كل عنايتهم إلى الفن الأخير ، وأنفقوا فيه ما يملكون من كنوز الألفاظ والصيغ اللماعة ، التى توائم هذه النظرات المتطامنة السطحية ، وازورّوا عن القصص لاقتضائه التغلغل إلى ماوراء الظاهر، والانسياب إلى أعماق النفوس النائية ، وتحليل العواطف والخوالج المتشابكة المتعقدة .

ولقد بالغوا فى التوضيح حتى وصلوا إلى ما يعرف الآن بالتجسيم والتشخيص.
فهذا المهلهل بن ربيعة يصف النجوم فيشبهها بالكائنات الحية من أناسىّ وبهائم فى قوله (١):

كأن كواكب الجوزاء عُوذ ... مُعطَّفة على رُبَع كسير
كأن الجدى فى مَثناة ربق ... أسير أو بمنزلة الأسير
كأن النجم إذ ولَّى سُحيراً ... فِصال جُلن فى يوم مطير
كواكبها زواحف لاغبات ... كأن سماءها بيدى مدير

وفى رواية أخرى لهذه القصيدة جاء هذان البيتان فى آخرها:

كأن الجدى جدى بنات نعش ... يَكُبُّ على اليدين بمستدير
وتحبو الشِّعريان إلى سُهيل ... يلوح كقمة الجبل الكبير

يقول: كأن كواكب الجوزاء نوق حديثات النتاج، عطفت على فصيل مكسور، فهى لا تتركه وهو لا يقدر على النهوض، وكأن الجدى قد شد بحبل مثنىّ فهو أحكم لشده، وكأن النجم — وهو الثريا — فصال تسير بطيئة معييات فى يوم مطير خوف الزلق فلا تسرع، وكأن سماءها أثقل من أن يديرها مدير؛ فهو إذا تكلف إدارتها لم يقدر عليها.

ومن يتأمل هذه الأبيات يخيل إليه، أنه بإزاء قطعة صاخبة من الحياة يملؤها الدأب والنشاط بما بث فيها الشاعر من معانى الحركة وعواطف الترابط والانجذاب، وبما خلع عليها من سمات الأناسىّ العقلاء.

---

(١) أمالى القالى — ٢ — ١٣٢.
(٢) العوذ بالضم: الحديثات النتاج من الظباء وكل أنثى جمع عائذ.
(٣) الربق بالكسر: حبل فيه عدة عرا.
(٤) الربع بضم ففتح: الفصيل يولد فى الربيع.

وامرؤ القيس أضفى على الليل صفة الحيوان فى قوله :

فقلت له لما تمطَّى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فاستعار له صلبا ، واستعار لطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ الكلكل — وهو الصدر — واستعار لمآخيره لفظ الأعجاز .

ويقول الآمدى : وقد عاب امرأ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات وهو فى غاية الحسن والجودة والصحة .

وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث ، وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً .

وهذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ، فلما جعل له وسطا يمتد ، وأعجازاً رادفة للوسط ، وصدراً متثاقلا فى نهوضه ، حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده ؛ لأنه تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصح له أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه .

وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة وأشـدها ملاءمة لمعنى ما استعيرت له [1] .

وشبه الوادى بجوف الحمار الوحشى إذا خلا من العلف فى قوله .

وواد كجوف العَير قفرٍ قطعته   به الذئب يجرى كالخليع المُعيَّل [2]

وشبه الجبل من انهمار المطر عليه وتكاثفه حوله بسيد أناس تلفف بكساء مخطط فى قوله :

كأن أبانا فى عرانين وَبله   كبير أناس فى بجاد مزمل

---

(١) الموازنة بين الطائيين — ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) الخليع المعيل : المقامر الكثير العيال .

قال قوم : أراد أن المطر قد خنق الجبل فصار كاللباس على الشيخ المتزمل .
وقال آخرون : إنما أراد أن المطر كساه من خضرة النبات ، وكلاهما حسن .

وفي رواية كأن ثبيراً . . . . .

والنابغة جعل الليل راعيا فى قوله :

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وهذا مستعار من إراحة الراعي الإبل الى مباءتها : أى ردها إلى موضعها الذى تأوى إليه .

فجعل الهم يأوى إلى قلبه بالليل كالنعم العازبة تريحها الرعاة مع الليل إلى أماكنها ، وهو أول من ذكر أن الهموم تتزايد بالليل [١].

والأعشى يجعل الحرب فحلا هائجا صائلا من الإبل :

فإن الحرب أمسى فحلها م فى النـــاس مُغتلما

ولبيد يجعل للبرد زماما ولريح الشمال يداً :

وغداة ريح قد كشفت وقِرَّة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

القرة : شدة البرد ، والشمال أبرد الرياح .

والمعنى : كم غداة شديدة البرد كففت فيها حدته عن الناس بإطعامهم الطعام .

وعمرو بن كلثوم يجعل اللؤم قارحا فى قوله للنعمان بن المنذر :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالة   فمجدك حولىّ ولؤمك قارح

والقارح : المسن من ذوى الحافر بمنزلة البازل من البعير .

والمعنى أن مجده حديث ، ولؤمه عتيق عريق .

وطفيل الغنوى يجعل الرحل من أكلة اللحوم فى قوله يصف هزال الناقة بطول السفر :

---

(١) ديوان المعانى — ١ — ٣٤٧

فوضعت كورى فوق ناجية   يقتات شحم سنامها الرحل

ومعن بن أوس يجعل للضغن أظفارا :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه   بحلمىَ عنه وهو ليس له حلم

وأبو ذؤيب الهذلى يجعل للمنية أظفاراً تنشبها فى فرائسها فلا تنجى منها العوذ والتمائم :

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمــــة لا تنفع

وأوس بن مغراء يجعل للؤم ثدياً فى هجائه بنى عامر :

يشيب على لؤم الفعال كبيرها   ويغذى بثدى اللؤم فيها وليدها

وأوس بن حجر يكنى عن شدة الحرب ونكارتها ، فيجعل لها ناباً معوجا كالحا.

وإنى امرؤ أعددت للحرب بعدما   رأيت لها ناباً من الشر أعصلا

ويتمثل هذا الأسلوب المحسوس أكثر ما يتمثل فى مدرسة زهير بن أبى سلمى ، وراويته : الحطيئة ، وراوية الحطيئة : هدبة بن الخشرم ، وراوية هدبة : جميل بثينة ، وراوية جميل : كثير عزة[١] .

وهى مدرسة يقول فيها الدكتور طه حسين باشا : كثر عندها التشبيه والمجاز والاستعارة، واتكأت فى وصفها على التصوير المادى[٢] .

والحق أن هذه المدرسة شديدة اللصوق بالمحسوس ، عميقة التأثر به تكب على صحائفه حين تقول ، فتنتزع منها كل ألوان البيان من تشبيه واستعارة وكناية ، كما ترى فيها الشغف بالتجسيم والتشخيص واضحا كل الوضوح .

فزهير يصف آثار الحرب وقبح نكايتها فى المتحاربين على السواء فى أبيات جامعة حكيمة ، فيصورها بالوحش فى ضراوته ، وأنها تلقح فى السنة مرتين ، وتلد فى كل مرة توءمين ، وأن هذا النسل جميعاً مشئوم كعاقر ناقة

---

(١) الأغانى ـ ٨ ـ ٩١ ـ « طبع دار الكتب » .

(٢) فى الأدب الجاهلى ـ ٢٨٦ .

صالح ؛ ولد من الشر وخلق للشر ، فالشر يجرى على أثره أينما حل !

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضرَ إذا ضرَّيتموها فتضرَم
فتعركُم عرك الرحى بثفالها وتلقَحْ كِشافا ثم تُنتج فَتتئم (١)
فتنتج لكم غلمانَ أشأم كلهم كأحمر عاد ثم تُرضع فتفطم

والحطيئة جعل لقلبه نظرات حادة شديدة :

ألا من لقلب عارم النظرات يقطِّع طول الليل بالزفرات

هذه كانت صورة البيان العربى الأصيل إلى انقضاء العهد الإسلامى : متانة سرد ، وصدق عاطفة ، وبساطة فكرة ، وبعد عن الرمزية والتجريد ، ونفور من التلبيس والإبهام ، والإغراق فى الخيالات والأوهام ، ومبالغة فى إلباس الأشياء صور المحسوسات ، لإخراجها من الخفاء إلى الجلاء ومن الغموض إلى الظهور .

وهذا يلائم طبيعة العربى الخالص ويوافق مزاجه ؛ فهو إنسان طليق حر صريح لا يوارب ولا يحتشم ، ويأنف الخضوع والتعبد للقوانين ، ويكره عبارات الملق والنفاق والدهان ، ولا يدين بأساليب الدهاء والنكراء والدبلوماسية الناعمة ، ولا يستطيع أن يكتم ما يحوك فى صدره ، وينطق بما يرضيه وإن أغضب غيره ، بل وإن جر عليه الشر ، باطنه كظاهره وسره كعلانيته ، وما فيه ينضح على فيه .

ولكن فى العصر العباسى تبدلت الحال غير الحال باختلاط الدماء وتمازج الثقافات وتلاقح العقول والأفكار ، وتلاقى الحضارات ، فنشأ عن تلك الروافد

---

(١) الكشاف بالكسر : أن تلقح النعجة مرتين فى السنة ، والإتآم : أن تلد الأنثى توءمين .

من الثقافات التي أمدت الأدب العربي والإسلامي بخصائصها وخصبها ودسمها أن ظهر لونان من الشعر وهما :

١ — الشعر الصوفي الذي يمثل الزراية على الدنيا ، ويدعو إلى كبت الشهوات والتفلت من قيود الجسد وأغلال المادية كسرا — سورة النفس ، والانطلاق في رحاب الملأ الأعلى ، والهيام بالذات القدسية التي هي مصدر كل جمال في الكائنات ، وظهرت فيه النزعة الرمزية التي تومئ بقصائد النسيب والغزل والخمريات وغيرها إلى أصول مواجد الصوفية وفنائهم في حب الله.

٢ — الشعر المتأثر بعقلية اليونان بعد ترجمة مصادر الثقافة اليونانية وبخاصة في عهد المأمون .

وهكذا لم تعد صور البيان كما كانت في العهد القديم جملا مادية ملموسة تمثل خصائص أمة واحدة ، بل أصبحت نتاج عصبة أمم انصهرت في بوتقة واحدة ، بل أخذت عند بعض الشعراء كأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي تبدو وكأنها تتمرد على قوالبها المألوفة ، وتخلع عنها مادتها الكثيفة ، وتشف وتصفو حتى تلحق بالوهميات التي تذاق بالحس الباطني وحده .

استمع إلى قول البحتري يصف ليلة مرت به — مع أن هذا الشاعر عرف بلزومه عمود الشعر — :

وليلة كأنها يوم أمل ظلامها كالدهر ما فيه خلل
كأنما الإصباح فيها باطل أزهقه الله بحق فبطل
ساعاتها أطول من يوم النوى وليلة الهجر وساعات العذل
مُؤصَدة على الورى أبوابها كالنار لا يخرج فيها من دخل

ففي هذا الوصف يبدو التأمل والتجريد ، كما يبدو الخفاء الناجم من تشبيه الحسي بالمعنوي ، وفيه تجميل للصورة وإن عده القدماء غير جميل[1] .

---

(١) نثار الأزهار — ١٧ نقلا عن شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل — ٢٣٧ .

وهذا أثر من آثار الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى بما أدخلاه على الذهن العربى من صفات عقلية جديدة ، وكأنى بالشاعر يتأثر بعناصر أفلاطونية فى تفكيره ، فهى صياغة ذهنية باطنية أبعد غوراً ومنالا من من الصياغة الحسية الظاهرة ففى ذلك تجريد ووهم وفرض وبعد وإغراق فى الخيال .

وليس من شك فى أن هذا التجريد والوهم لم يكن بعمد إليهما الشاعر القديم ، إذ كان يتكئ فى وصفه على المادة والحس ، وحقاً أن صانع الشعر العربى تغيرت صفاته العقلية القديمة [1] .

ومثل هذا الأدب المتأثر بالعقلية اليونانية نلحظ فى بعض نواحيه انصرافا عن المادة وزهداً فى الواقعية ، ورغبة عن المحسوسات ، وجنوحا إلى اقتناص الفكرة المجردة من أغوارها العميقة ، فلا بدع إذ رأينا فيه تراكم الفكر ، وتعانق المعانى ، وتزاحم الصور حتى تكاد تختنق ، فيشوبها الغموض واللبس ، وتمعن فى البعد عن الأسلوب الشعرى التقليدى ، فتدق على ذهن القارىء فلا يفهمها ، أو يفهمها توهما وتحس نفسه العجز عن شرح معناها ، بل لعل ناظمها نفسه يشعر بهذا العجز أيضاً .

ويظهر أن مسلم بن الوليد هو السابق إلى تلك الطريقة بإيغاله فى اختيار اللفظ والتأنق فى المعنى ، وقد صرح ابن قتيبة : بأنه أول من ألطف فى المعانى ورقق فى القول وعليه يعول الطائى « أبو تمام » فى ذلك وعلى النواسى [2] .

ونحن نشم عبقة من الإلطاف فى المعانى حينما نقرأ قوله :

إذا شئتما أن تسقيانى مدامة ... فلا تقتلوها كل ميْت محرم

خلطنا دما من كرمة بدمائنا ... فأظهر فى الألوان منا الدمَ الدم

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — ٧٠ — ٧٢

(٢) الشعر والشعراء — ٥٢٨

فقد جعل مزج الخمر بالماء قتلا لها ، ولكنه علق على هذا بأن القتل إماتة ، وأكل الميتة حرام فى غير حال الاضطرار .

ثم جعلها دما لحمرتها وخلطها بدمه حين شربها فنضح هذا المزاج دما على وجهه: يعنى حمرة اللون التى تبدو على الشارب .

وهذه المعانى فى جملتها مسبوق بها ، ولكن الذى لم يسبق به هذا التدقيق والتعمق فى المعنى ، والتماس العلل ، وربط الأسباب بالمسببات ، واستخدام القضايا العلمية ، واختيار القوالب الموحية المناسبة لذلك .

وقوله :

ياواشيا حسنت فينا إساءته نجّى حذارك إنسانى من الغرق

ففيه حسن تعليل بإثبات صفة ممكنة لموصوف ، فإن استحسان إساءة الواشى شىء ممكن ، لكنه لما خالف رأى الناس فى ذلك عقب عليه بذكر التعليل الكاشف المقنع : بأن حذاره أنقذ إنسان عينه من الغرق فى سيل الدموع ، لأنه اضطر إلى حبسها وترك البكاء خوفا منه .

وهو كقول الآخر :

عداىَ لهم فضل علىّ ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا

هم بحثوا عن ذلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فارتقيت المعاليا

وجاء بعده أبو تمام فأوغل فى هذه الصناعة حتى عد سابقا لعصره ، وذلك أنه اطلع على العلوم والآداب المترجمة فى عهده ، فدق عقله ورق خياله وصفا ذهنه ، واستخرج من كل هذا طريقته التى آثر فيها تجويد المعنى على سهولة الديباجة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية لكثرة لوازمها ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا .

وقد انتشر أمر أبى تمام لذلك على معاصريه ومن جاءوا بعدهم فتفرقوا فى شعره شيعا بين قادح ومادح .

فالمنكرون طريقته يرونه جافى نهج العرب وخرج عن جادتهم ، وأتى بشعر غامض عسير يرتق عن منال الأفهام .

يقول ابن الأعرابى — وقد أنشد شعراً له — : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل (١) .

وأنكر عليه أبو سعيد الضرير (٢) هذا الغموض — حينما رفعت إليه قصيدته فى مدح عبد الله بن طاهر التى أولها — :

أهُنَّ عوادى يوسف وصواحبه

فقال له : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟

فقال له : وأنت يا أبا سعيد ، لم لا تفهم من الشعر ما يقال (٣) ؟

وهو جواب يفحم الخصم ولكنه لا يقنع .

وسمعه إسحاق الموصلى ينشد شعراً فى منزل الحسين الضحاك، فقال له: يا فتى ، ما أشد ما تتكىء على نفسك (٤) !

يعنى : أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وإنما يستق من نفسه .

ويقول حذيفة بن محمد الطائى الكوفى — وكان من العلماء — : أبو تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال .

ويقول المرزبانى : وهو يغوص على المعانى ولا يريد أن يعطل شيئاً من كلام مستغلق (٥) .

وكان من أشدهم عليه القاضى الجرجانى والآمدى .

يقول فيه الأول : حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، وتبجح به فى غير موضع من شعره فقال :

فكأنما هى فى السماع جنادل وكأنما هى فى القلوب كواكب

---

(١) الموازنة — ١٥ (٢) فى هبة الأيام للبديعى — ١٣٤ : أنه أبو العميثل .
(٣) الموشح — ٣٢٥ — ٣٢٦ (٤) المصدر السابق — ٣٢٧
(٥) المصدر السابق — ٣٠٤ — ٣١٢ — ٣٢٤

فتعسف ما أمكن ، وتقلقل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمّله من كل وجه، وتوصل إليه بكل سبيل. ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر وكد الخاطر والحمل على القريحة ، فإن ظفر به فمن بعد العناء والمشقة وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته الكلال ، وتلك حال لاتهش فيها النفوس للاستماع بحسن، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف [1].

ويقول فيه الثانى ـ وكان معروفا بالتعصب عليه ـ : إنه اغتر بما سقط فى أشعار المتقدمين من العيوب وعليها فى العذر اعتمد ، طلبا منه للإغراق والإبداع وميــــلا إلى وحش المعانى والألفاظ ، وأسرف فى ذلك كل الإسراف .

ويقول : وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارة متفرقة فى أشعار القدماء لا تنتهى فى البعد إلى هـذه المنزلة فاحتذاها ، وأحب الإبداع وأغرق فى إيراد أمثالها واحتطب وأكثر منها [2] .

ولم يقس هؤلاء النقاد على أبى تمام هذه القسوة إلا لأنه فى رأيهم فارق عمود الشعر المألوف ، وخرج على مذهب الأعراب فى تناول المعانى من غير كلفة ولا معاناة ، وهام فى أودية العقل ومتاهات الفكر فى ظلال التصفية والتدقيق وتعطيل الحواس الظاهرة فى كثير من الأحيان ، مكتفيا بزفها فى غلالة كالسراب فيه حلم وإلهام وإيحاء .

فقد ملأ شعره بالتجسيم إذ نراه يجسم المعانى فى صورة مادية حسية حتى تثبت فى نفوسنا كأن يقول :

راحت غوانى الحى عنك غوانيا يلبسن نأيا تارة وصدودا

(١) الوساطة ـ ٢٢ ـ ٢٣ (٢) الموازنة ـ ٢٤٠

فقد جسم النأى والصدود فى هذه الثياب الغريبة غرابة ثوب الزمن فى قوله لبعض ممدوحية :

ومن زمن ألبستنيه كأنه إذا ذكرت أيامه زمنُ الورد

وهى كلها أثواب غريبة غرابة ذلك الشّنف من مآثر ممدوحيه إذ يقول :

حتى لو أن الليالى صورت لغدت أفعاله الغر فى آذانها شَنَفا

وقد صاغ أبو تمام من هـــذا التجسيم شيئا كثيراً فى أشعاره ، وراح يضيف إليه وشيا آخر من التشخيص كأن يقول فى الربيع :

رقت حواشى الدهر فهى تَمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسر

فقد مثل الدهر فى تلك الحواشى الزاهية المشرقة التى يتخايل فيها الثرى وكأنه عروس تتثنى فى حليها وتتكسر فى زينتها (١) .

والمــادحون لأبى تمام يعرفون له فضله فى اقتناص المعانى وقوة الذكاء وإن كان بعضهم لايخليه من اللوم .

ففيلسوف العرب الـكندى يفطن إلى حدة قريحته وعمق تفكيره ، فيقول حين نظر فى شعره : هذا رجل يموت قبل حينه ، لأنه حمل على كيانه بالفكر .

وفى رواية : لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده (٢) .

ويقول محمد بن الجهم : يغوص على المعانى الدقاق فربما وقع من شدة غوصه على المحال .

ويقول الخفاجى — بعد أن عرض لطرف من استعاراته — وهذا وأمثاله يعرفه الذوق ، ومثله يستحسنه شعراء العجم ، وتبعهم شعراء الروم ، فلعل مثله يتفاوت بحسب اللغات . (٣)

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — ١١٦

(٢) الموشح — ٢٣٧ — هبة الأيام — ٢٦

(٣) طراز المجالس — ٥

وفى هذه الكلمة تصوير لمذهب أبى تمام ، فالحق أن أكثر النقاد لم يفهموه حق الفهم ، لأنه لم يلتزم عمود الشعر الذى جرى عليه أسلافه فى صور البيان كما التزمه البحترى وغيره ، فالتوى عليهم شعره وعدوه بدعا من الشعراء .

ومن جميل التشخيص قول المتنبي :

ملامى النوى فى ظلمها غايةُ الظلم ‏ ‏ لعلّ بها مثل الذى بى من السقم
فلو لم تَغَرْ لم تَزْوِ عنىِّ لقاءكم ‏ ‏ ولو لم تُردكم لم تكن فيكم خُصْمى

جعل النوى تعشق فتصاب بالسقم مثله، وتغار منه فتحجب عنه الحبائب اللواتى تشاركه فى حبهن ، وجعلها تعقل وتفكر فتناصبه العداوة لأنها تريد من الحبائب ما يريد منهن .

وقول بعضهم :

إن المكارم أرواح يكون لها ‏ ‏ آل المهلب دون الناس أجساداً

فلم يكفه أن يشخص المكارم فينفخ فيها الحياة ، بل جعلها قوام الحياة وملاكها وهى الأرواح ، وجعل الأناسى الحية لها أجساداً .

وهى مرتبة فوق مرتبة التشخيص .

وقد أشار عبد القاهر إلى تشبيه الصورة بالمعنى فى بعض كلامه فقال : إن تنزيل الوجود منزلة العدم — إذا أريد المبالغة فى حط الشىء والوضع منه وخروجه عن أن يعتد به كقولهم : هو والعدم سواء — : معروف متمكن فى العادات ، وربما دعاهم الإيغال وحب السرف إلى أن يطلبوا

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٥٥

بعد العدم منزلة هى أدون منه حتى يقعوا فى ضرب من التهوس كقول أبى تمام :

أبنىّ تنظم قول الزور والفنَد وأنت أنذر من لاشىء فى العدد

وقوله :

هب مَن له شىء يريد حجابه ما بال لا شىء عليه حجاب

وقول ابن نباته :

مازلت أعطف أيامى فتمنحنى نيلا أدق من المعدوم فى العدم



الفصل الثامن

مذاهب البلغاء فى تشبيه المحسوس بالمعقول

اختلف النقاد من البلغاء فى جواز هذا النوع من التشبيه اختلافا يقتضينا أن نفصله فيما يلى :

(١) يقول العسكرى : وليس هذا التشبيه بالمختار ، ولو أن بعض الناس يستملحه لأنه أخرج ما يرى بالعيان إلى ما يعرف بالفكر [١] .

وهذا الرأى : هو رأى جمهرة المتأخرين — وعلى رأسهم السكاكى والخطيب والزنجانى والرازى والحموى — فإن تشبيه المحسوس بالمعقول عندهم غير جائز أصلا .

وسر ذلك : أن الحسىّ أقرب إلى الإدراك من العقلى ، ومعرفة المحسوس والإلمام بأحواله أيسر من تمثُّل المعقولات ، بل إن المعارف الحسية أساس المعارف العقلية غالباً ؛ فالمعقول فرع المحسوس لأنه مستفاد منه ومنته إليه ولهذا يقال : من فاته حس فقد فاته علم .

وما دام الأمر كذلك فإن هذا التشبيه يكون جاريا على غير الأصل المعروف ، وهو أن المشبه به أقوى فى وجه الشبه من المشبه ، وتشبيه القوى بالضعيف لا يجوز .

ويجب لذلك أن ينزل « المشبه به » المعقول فى هذه التشبيهات الواردة

---

(١) ديوان المعانى — ١ — ٣١٠

جميعاً على هذا المنوال منزلة أوضح محسوس مشاهد ادِّعاء ، حتى يصح تشبيه المحسوس — الذى هو أصل فى الوضوح — به على طريق المبالغة .

وإذن فهذا التشبيه يعد فى الحقيقة من باب قلب التشبيه [١] .

(٢) أجازه الرمانى [٢] مع استقباحه ؛ لأن التشبيه عنده يأتى على ضربين تشبيه حسن وتشبيه قبيح .

فالحسن : هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بياناً .

والقبيح : ما كان على خلاف ذلك .

وشرحه : أن ما تقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة والمشاهد أوضح من الغائب ؛ فالأول أوضح من الثانى ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة ، وما قد ألف أوضح مما لم يؤلف .

ثم عقب الرمانى على ذلك بأن عاب على بعض شعراء عصره قوله :

صدغه ضد خده مثلما الوعد م إذا ما اعتبرت ضد الوعيد

من قِبل أنه شبه الأوضح بالأغمض ، وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه .

وكذلك عاب قول بعضهم :

وله غرة كلون وصال فوقها طرة كلون صدود

(٣) أجازه ابن رشيق فقال — يرد على الرمانى — :

أما ما شرط فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، إلا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إذ كان قد قصد الشاعر أن يشبه مايقوم فى النفس دليله بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ، ولعله يقول أو

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٣١٢ — ٣١٣ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٨ — نهاية الإيجاز للرازى — ٥٩ . (٢) العمدة — ١ — ١٩٥

يقول المحتج له : معرفة النفس بالمعقول أعظم من إدراك الحاسة ، ولا سيما وقد جاء مثل هذا فى القرآن الكريم وفى الشعر الفصيح [١] .

وكذلك أجازه ابن السبكى أصالة دون أن يعده من القلب ، ورد على السكاكى والخطيب فيما ذهبا إليه : من أن وجه الشبه التخييلى كله من قلب التشبيه ، فأورد عليهما : بأنه إن قيل : إن الخيالى أضعف من الحسى فلا يجعل أصلا ، لزم منع تشبيه الحسى بالخيالى والعقلى [٢] .

(٤) ذهب ابن الأثير [٣] إلى أنه ألطف الأقسام الأربعة [٤] ، لأنه نقل صورة إلى غير صورة .

ويقول العلوى : هو من لطيف التشبيهات وأرقها ، وأدخلها فى البلاغة وأدقها ، ووجه البلاغة فيه : هو إلحاق المعانى بالأمور المحسوسة المدركة فى الظهور والجلاء ، فيصير فى الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس ، وهذا فى نهاية المبالغة . [٥]

(٥) يرى بعضهمْ جواز بعض ألوانه ، فالمغربى [٦] يقول : إن الإدراك العقلى وإن كان مستنداً إلى الإدراك الحسى ، إلا أنه لايلزم من ذلك أن المحسوس أقوى أبداً فى الشبه من المعقول وأشهر به ؛ لأنه إنما يكون كذلك حين يكون الوجه أصله الحسى ، ونحن نجوِّز أن يَكون أصله العقلى ، فيكون العقلى به أشهر وفيه أظهر .

فتشبيه العطر بخلق الكريم مثلا فى استطابة النفس له ، يكون من عكس التشبيه — كما قيل — ، لأن استطابة النفس للمشموم المحسوس أقرب من

(١) العمدة — ١ — ١٩٥ .
(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٣٢٧ .
(٣) المثل السائر — ١٥٧ .
(٤) يريد بالأقسام الأربعة : تشبيه صورة بصورة ، ومعنى بمعنى ، وصورة بمعنى ، ومعنى بصورة
(٥) الطراز — ١ — ٣٠٦ (٦) مواهب الفتاح — ٣ — ٣١٣

استطابة العقـــل للمعقول ، اذ تثبت له الاستطابة من طريق التوهم والقياس على الحسى ، فوجه الشبه هنـــا أقوى وأظهر فى المشبه الذى هو العطر .

ولكن تشبيه العطر بالخلق فى الشرف والارتفاع والتلذذ الروحانى ، يكون به وجه الشبه أتم وأوضح فى المشبه به وهو الخلق ، فلا يكون هناك حاجة إلى اعتباره من قلب التشبيه .

وزبدة هذا القول عند هؤلاء : أن تشبيه الحسى بالعقلى لا يكون دائما من قلب التشبيه ، وأنه جائز الوقوع بلا استنكار .

وأورد التنوخى رأيا غريباً فى تشبيه المعقول بالمحسوس والمحسوس بالمعقول .

وخلاصته : أنه لابد من التجوز فيهما جميعاً ، وأنه لامعنى لترجيح أحدهما على الآخر ، فإما أن نجيزهما معا أو نمنعهما معا .

وقد نبه ابن السبكى : إلى أن هذا رأى ثالث يقول : بنفى تشبيه المعقول بالمحسوس على سبيل الحقيقة .(١)

روس الشياطين.(٢)

وقد سرى الخلاف بينهم إلى وقوعه فى القرآن الكريم ، فأنكر بعضهم وقوعه فيه محتجا : بأن الكتاب الكريم جرى على الأصل الأبلغ فى أن الحسى أصل للعقلى .

وقال بعضهم بوقوعه ، وعد منه قوله — تعالى — : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين » .

وقد سأل إبراهيم الكاتب العريانى أبا عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣١٣

(٢) عرضنا لذلك بإيجاز فى فصل « التشبيه عند القدماء » — ٣٤ ج — ١

عن معنى الوعيد فى ذلك ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف .

فقال: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به. فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل [١] .

ويقول الجاحظ : وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة ، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل فى طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجها وكراهتها ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم .

ثم يقول : وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين : أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن [٢] .

ويعود مرة أخرى فيقول : زعم ناس : أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه .

والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير . وقد قالوا : ما عنى إلا رءوس شياطين معروفة بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم .

وقد قال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب المثل بشىء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى أنه

(١) نزهة الألباء للأنبارى — ١٤٣ — وفيات الأعيان — ٢ — ١٣٨ — ١٣٩ — ثمار القلوب — ٦١ .
(٢) الحيوان — ٤ — ١٣ (ط . الساسى)

لوكان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشياطين كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صوره لهم واصف صدوق اللسان بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق ؟

ويجيب الجاحظ بقوله : وإن كنا نحن لم نر شياطين صور رءوسها لنا صادق بيده ، ففى إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين .

أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان !

والوجه الآخر : أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير به ، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء ، والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير به .

وفى إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان ، دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت فى طبائعهم غاية التثبت .

.... فما القول فى ذلك إلا كالقول فى الزبانية وخزنة جهنم ، وصور الملائكة الذين يتصورون فى أقبح الصور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار ، وكذلك فى صورة منكر ونكير ، يكون للمؤمن على مثال وللكافر على مثال [١] .

ويقول المبرد : وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هذه الآية فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورءوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها !

---

(١) الحيوان — ٦ — ٦٥

وهؤلاء فى هذا القول كما قال الله — جل وعز — « بل كذّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

وهذه الآية قد وقع تفسيرها فى ضربين :

أحدهما : أن شجراً يقال له « الأستَن»[1] ، منكر الصورة يقال لثمره رءوس الشياطين .

وزعم الأصمعى : أن هذا الشجر يسمى : الصَّوْم .

والقول الآخر : — وهو الذى يسبق إلى القلب — : أن الله — جل ذكره — شنع صورة الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس[2] .

ويقول ابن رشيق : قال قوم : إن شجرة الزقوم — وهى أيضاً الأستَن — لها صورة منكرة وثمرة قبيحة يقال لها رءوس الشياطين .

وقال قوم : الشياطين : الحيات فى غير هذا المكان .

ثم يقول : والأجود الأعرف : أنه شبّه بما لا يشك أنه منكر قبيح ، لما جعل الله — عز وجل — فى قلوب الإنس من بشاعة صور الجن والشياطين وإن لم يروها عيانا ، نخوفنا الله — تعالى — بما أعد للعقوبة وشبهه بما نخاف أن نراه .

وقد قال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فشبه نصال النبل بأنياب الأغوال لما فى النفس منها .

---

(١) عن أبى حنيفة الدينورى : الأستن وزن أفعل : شجر يفشو فى منابته ويكثر ، إذا نظر إليه الناظر من بعيد شبهه بشخوص الناس . رغبة الآمل للمرصفى — ٦ — ٢٣٩ .

(٢) الكامل « شرح المرصفى » — ٦ — ٢٣٨ — ٢٣٩

وعلى هذا التأويل قال أبو تمام — وفيه عكس التشبيه — :

وأحسن من نور يفتقه الندى بياض العطايا فى سواد المطالب

وقال أعرابى قديم :

يزملون حديث الضغن بينهم والضغن أسود أو فى وجهه كلف

فوصفه بما يتصور ويقوم فى النفس ، كأنه يقول : لو كان صورة لكان هكذا .

وقال بعض المولدين :

وتدير عيناً فى صحيفة فضة كسواد يأس فى بياض رجاء

فاليأس على الحقيقة غير أسود ، لأنه لا يدرك بالعيان ، لكن صورته فى المعقول وتمثيله كذلك مجازاً ، والرجاء أيضاً على هذا التقدير فى البياض [1].

ويقول ابن قتيبة الدينورى : والعرب تسمى الحية شيطاناً .

ويقال: منه قول الله — عزوجل — : « طلعها كأنه رءوس الشياطين [2] »

وصفوة القول : أن فى الآية ثلاثة أقوال :

١ — أن الشياطين : هم متمردة الجن القباح الصور والمناظر كما وقر فى أذهان الناس .

٢ — أن الشياطين هم الحيات على جارى تسمية العرب .

٣ — أن الشياطين : شجر مخصوص منكر الصورة .

وعلى القولين الأخيرين لا يكون التشبيه فى الآية الكريمة مما نحن فيه من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وعلى القول الأول يكون منه .

وبأدنى تأمل يظهر رجحان قول من ذهب إلى أن الشياطين هم المعروفون فى أخيلتنا وتصوراتنا .

---

(١) العمدة — ١ — ١٩٥ — ١٩٦ (٢) أدب الكاتب — ١١٦

وقد كانت العرب تتمثلهم كما نتمثلهم اليوم على غاية الشناعة والبشاعة ، كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال ، ولهذا زعموا : أنهم بنات الله — تعالى عن ذلك علواً كبيراً — !

وقد قال أبو النجم العجلي في بنته ظلّامة :

كأن ظلامــــة أخت شيبانْ يتيمة ووالداها حيّانْ
العنْق منها عُطُل والآذان وليس في الرِّجل إلا خيطان
وقُصَّة قد شيَّطتها النيران فهى التى يُذعر منها الشيطان
أو تلك التي يضحكُ منها الشيطان !

أفلا تراه قال ذلك وإن لم يره ، لما قُرر في القلوب من نكارته وشناعته

وقال آخر في البقل :

وفي البقل إن لم يدفع الله شره شياطين يعدو بعضهن على بعض

وقال الراجز :

أبصرتها تلتهم الثعبانا شيطانة تزوجت شيطانا

ويذكر الثعالبي : أن الصاحب بن عباد كان يستملح قول أبي علي البصير في أبي هفّان ويستظرفه ، وكثيراً ما كان ينشده ويردده وهو :

لي صديق في خلقة الشيطان وعقول النساء والصبيان
من تظنونه فقالوا جميعــــاً ليس هذا إلا أبا هفان

أمثلة طريفة لتشبيه المعقول بالمحسوس .

قال مسلم بن الوليد :

أذكى من المسك أنفاساً وبهجتها أرق ديباجة من رقة النَّفَس
كأن قلبي وشاحاها إذا خطرت وقَلْبها قُلبها في الصمت والخرس[1]

(١) القلب بالضم : السوار .

تجرى محبتها فى قلب عاشقها   جرى السلامة فى أعضاء منتكس

وقال أبو نواس — ويعدونه غاية الغايات فى هذا الباب — :

معتقة صاغ المزاج لرأسها   أكاليل در ما لمنظومها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها   فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
وأدرك منها الآخرون بقية   من الروح فى جسم أضرّ به النهك
وقد خفيت من لطفها فكأنها   بقايا يقين كاد يذهبه الشك

وقال :

وندمان سقيت الراح صرفا   وأفق الليل مرتفع السجوف
صفت وصفت زجاجتها عليها   كمعنى دق فى ذهن لطيف

وقال :

فتمشت فى مفاصلهم   كتمشى البرء فى السقم

وقال أبو تمام :

ومسافة كمسافة الهجر ارتقى   فى صدر باقى الحب والبرحاء

وقال البحترى :

مشيب كنث السر أعيا بحمله   محدثه أو ضاق صدر مذيعه

وقال ابن الرومى :

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه   يذكرنا قبح الخيانة والغدر
فتى وجهه كالهجر لا وصل بعده   وأما قفاه فهو وصل بلا هجر

وقال ابن الزيات أو مانى الموسوس :

رب ليل أمد من نفس العا   شق طولا قطعته بانتحاب
وحديث ألذ من نظر الرا   مق بدلته بسوء العتاب

ووصال أقل من لمحة البا رق عوضت عنه طول اجتناب[1]

وقال السرى الرفاء فى الشمعة :

مفتولة مجدولة تحكى لنا قدّ الأَسَلْ[2]
كأنها عمر الفتى والنار فيها كالأجل

وقال أبو هلال العسكرى :

وليلة كرجائى فى بنى زمنى مسودة الوجه منسوبا إلى الفحَم

وقال الصاحب بن عباد فى القاضى أبى الحسن مع هدية عطر بعث بها إليه :

يأيها القاضى الذى نفسى له فى قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

وقال ابن حيدر :

مرحباً بالتى بها قُتل الهم م وعاشت مكارم الأخلاق
هى فى رقة الصبابة والشو ق وفى قسوة النوى والفراق
لست أدرى أمن خدود الغوانى سبكوها أم أدمع العشاق

وقال العلوى الأصفهانى :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاةٌ من البأساء بعد وقوع

وقال عبد الله بن حجاج :

وقينة تنضيمها فى الغنا أملح من قهقهة القُمرى[3]
غناؤها الممـدود بى فاعل فعل الغنى المقصور بالعُسر

وقال القاضى التنوخى :

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انساب منطلقا

---

(١) لهذه الأبيات قصة اقرأها فى زهر الآداب — ٣ — ١٦٤

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) لم ترو قهقهة القمرى في غير هذا الشعر .

فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا بَرْداً فصرنا كقلب الصب إذ عشِقا

وقال يصف الشمس يوم غيم :

ويوم كأن الشمس من تحت غيمه مفاخر قد غطينها بعيوب
إذا طلعت من فرجة فيه خلتها مخيلة جدوى من خلال جدوب
وقد مد ستراً فوقها فكأنها تغطي بكفران ثواب مثيب

وقال أمين الدولة التنوخي :

أتانا بكانون يشبُّ ضرامه كقلب محب أو كصدر حسود
كأن احمرار النار من تحت فحمه خدود عذارى في معاجرَ سُود[١]

وقال الشهاب محمود في بعض الحصون :

كأنه وكأن الجو يكنفه وهم تكنَّفه في طيِّه الفكر

وقال ابن الزقاق :

وكم طرقت قباب الحي مرتدياً بصارم مثل عزمي هِندوانيٍّ
والليل يسترني غربيب سُدفته كأنني خفر في خد زنجيٍّ

وقال :

زارت على شط المزار متيما بالرقتين ودارها تيماء
والطيف يخفى في الظلام كما اختفى في وجنة الزنجي منه حياء

وقال العماد الأصبهاني :

أجدَّك أن قد جاد وقت التعبُّس غزال بوصل لي وأصبح مؤنسي
وعاطيته صهباء من فيه مزجُها كرقة شعري أو كدين ابن يونس

---

(١) المعاجر جمع معجر كمنبر : ثوب تغطى به المرأة رأسها .

ويونس هذا : هو كمال الدين الشافعي . وكان يتهم بغلبة العلوم العقلية عليه (١) .
وقال الوراق التميمي :

أورد قلبي الردا لام عذار بدا
أسود كالغي في أبيض مثل الهدى

وقال شاعر :

يسقيك من كفه مداما ألذ من غفلة الرقيب
كأنها إذا صفت ورقت شكوى محب إلى حبيب

وقال آخر :

اسقني إن يومنا يوم « رام » ولرام فضل على الأيام
من شراب ألذ من نظر المعشوق م في وجه عاشق بابتسام

ورام : هو يوم الحادي والعشرين من كل شهر فارسي ، وهو يوم يلذون فيه ويفرحون .

وكذلك « بهرام » ، وهو يوم العشرين .

وقال آخر :

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما ذلا بعز مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما فقالا أُصبنا بابن يحي محمد
فقلت فهلا متما عند موته فقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزّى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال آخر :

اسقني خمرة كرقة ديني أو كعقلي ولا أقول كحالي
خيفة من توهُّم الناس أني قلت هذا في موطن لسؤال

---

(١) وفيات الأعيان — ١ — ١٧٦

وقال آخر :

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

وقال آخر :

فصرت أذل من معنى دقيق به فقر إلى مبنى جليل

ومما سارت به الأمثال قول القاضى التنوخى — وهو ممن يسلك هذه الطريقة كثيراً — :

وكأن النجوم بين سناها سُنَن لاح بينهن ابتداع

فإنه لما شاع وصف السنة بالبياض والإشراق ، كقوله — عليه الصلاة والسلام — : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها » ، واشتهرت البدعة وكل ما ليس بحق بالظلمة والسواد كقولهم : ليل الشرك ، أقام هذا الشاعر السنن مقام الأجناس التى لها إشراق وبياض ، والبدع مقام أجناس السواد والظلمة فصار ذلك عنده كشبه محسوس بمحسوس ، فجاز له التشبيه على هذا التقدير كقول أبى طالب الرَّقى :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فإنه لما كانت الأوقات التى تحدث فيها المكاره توصف بالسواد كقول من يناله مكروه : اسودت الدنيا فى عينى ، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر بالسواد من الظلام فشبهه به وعرفه به ، ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق ، والقلب القاسى يوصف بشدة السواد . فصار هذا القلب عنده اصلا فى فى السواد على هذا التقدير .

ومثل فؤاد الخلى من العشق وجه الناصبى [1] .

والشيعة تصف وجه الناصبى بالسواد ، ويشبه به كل شديد السواد كما قال الناشىء الأصغر :

---

(١) الناصبى : الذى يدين ببغض على — كرم الله وجهه — !

يا خليــلى وصاحبى من لؤىٍّ بن غالب
حكَمَ الحب جائر موجِب غيرَ واجب
يلدغ الناس إذ تعقرب م لدغ العقـارب

ومثله قول شاعر :

لك صدغ كأنه قلب فرعو ن ووجه كأنه يد موسى
وفم قد أتى ببرهان عيسى فهو بالطيب منه يحي النفوسا

وقال المطرزى : يُجعل البياض مثلا للصلاح ، والسواد مثلا للفساد والخيبة كقول البستى :

حكت معانيه فى أثناء أسطره أثارك البيض فى أحوالىَ السود

وقال :

ليس الكواكب فى الظلماء أحسن من . نعمائك البيض فى آمالىَ السود

ولعله مأخوذ من قول أبى تمام :

وأحسن من نَوْر تفتقه الصَّبا بياض العطايا فى سواد المطالب

ومما يتصل بذلك قول الشاعر :

أسفر ضوء الصبح عن وجهه فقام خال الخد فيه بلال
كأنما الخال على خـده ساعة هجر فى ليالى الوصال

فجعل ليالى الوصل بيضا وساعة الهجر سوداء .

وقد نظر إليه المعتمد بن عباد الأندلسى فى قوله(١) :

أكثرت هجرك غير أنك ربما عطفتك أحيانا علىَّ أمور
فكأنما زمن التهاجر بيننا ليل وساعات الوصال بدور

ومما يتفق مع قول الشاعر الأول قول الأسعد بن بليطة (٢) :

---

(١) وفيات الأعيان ـ ٢ ـ ٣٨ (٢) الذخيرة ـ ٣ ـ ٢٩٣

تنفس الصهباء فى لهواته كتنفس الريحان فى الآصال .
وكأنما الخيلان فى وجناته ساعات هجر فى زمان وصال

وقول شاعر :

مليح كالغزال وكالغزاله رأيت به هلالا فى غلاله
كأن بياض غرته رشاد كأن سواد طرته ضلاله
كأن الله صيره نبيا وصير حسنه أقوى دلاله
إذاماإزددت وصلازدت خَبْلا كأن حبال وصلك لى حباله

ومما جاء فى شعر العصريين قول البارودى :

وصاحب كهموم النفس معترض ما بين تَرْقُوة منى وأحشاء

وقول حافظ فى وصف القطار :

مرّ كاللمح لم تكد تقف العين م على ظل جرمه المترامى
أو كشرخ الشباب لم يدر كاسيه م تولّى فى يقظة أم منام

وقول الدكتور زكى مبارك :

وجَنّ علىّ الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاءً لئيم

ومن النثر المترجم عن لغة الغرب :

إن القاطرة التى تجرى اليوم على السكة الحديدية جبارة كالإرادة الإنسانية . جسورة خفيفة كالأمل (١) .

ومن قصيدة للشاعر الروسى « لرمنتوف » عنوانها : ليلة شاعر عربيد : ما أحوجنى إلى مياه مطهرة وزنابق بيضاء كأطياف ملائكة أبرار .

وهذه هى الخمر ، الخمر المبدعة تبرق أمامى كالأمل ، وتسطع كالعزاء ، وتضحك كالنسيان (٢) . . .

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٩٦ (٢) أخبار اليوم ١ — ١ — ١٩٤٩

وهذا اللون من التشبيه دليل التأمل والنظر فى الحالات النفسية المختلفة التى تظهر آثارها على الملامح ، كما أنه دليل على شدة تتبع الشاعر لهذه الحالات ، حتى أصبحت من الوضوح بحيث تشبه بها أوضح المظاهر الطبيعية وأشدها بريقاً ولمعاناً .

وإذا اتصل هذا بالتفكير الفلسفى القائم على التأمل فى النفس ومعرفة أحوالها ، فإنه يتصل كذلك بالصفة العظيمة التى تؤدى إلى التفنن فى طرق الأداء (١) .

ورأيى أن هذا النوع من التشبيه عنوان الترف العقلى . ودليل الثروة الفكرية والقدرة على اقتناص المعانى من أغوارها السحيقة ، وجوب آفاق الأخيلة الرحيبة بجناح قوى الخفق .

وهو لايسلس إلا لإنسان لماح الذكاء شفاف العقل ، عميق الملاحظة ، عامر الواعية الباطنية بالمعانى المختلفة ، والنظائر والأشباه الكثيرة .

والنوع الجيد منه المتلائم الطرفين لايعيا الذهن بفهمه ، ولايشعر بغرابته ، بل يلذه ويستروح إليه ، ويحس له نداوة وحلاوة لما تضمنه من طرافة وملاحة .

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ــ ٢٣٢

الفصل التاسع

التشبيه الرمزى

هذا موضوع له صلة وثيقة بالفصل السابق لأن فى كليهما تجريداً وتصفية وإرهافا وإلطافا ونفوذاً إلى ما وراء الحواس الظاهرة ، واستلهام القوى الباطنية ، واستشفاف الأشياء غير المنظورة وإن كانت الرمزية أكثر تغلغلا فى الخيال ، وتدسسا فى الوهم ، وتدليا فى أعماق الفناء .

ومهما يكن فهذا اللون بدع من الشعر العربى دخيل عليه ، ولهذا لا تستسيغه الأذواق العربية الخالصة إلا فى أحوال يسودها الاعتدال والاتزان ، فتظل الألفاظ ممسكة بزمام المعانى مسيطرة عليها ولو بقدر محدود .

إن الرمزية المقبولة هى التى يكون لها سند من الفهم الإنسانى العام ، ومن الإدراك الصادق بالبصيرة الصافية ، ومن تعاون العقل الباطن والعقل الواعى ، أو من المثالية وما يكمن وراء المادة من قوانين طبيعية ، وبذلك تكون مظهراً من مظاهر الفن ووسيلة للتعبير عما تعجز عنه اللغة المتعارفة ، ومنفذاً للخروج من الجو الفكرى المألوف ، أو الميدان الحسى الرتيب الذى تواضع عليه الناس ، والتحرر من القيود التى تغل التفكير وتقف به عند حدود النظرات المباشرة للأشياء من زاوية واحدة دائما (١) .

ونحن لا ننكر أن بعض الشاعريات المطبوعة الملهمة تستطيع أن تنفحنا بمعان إضافية غير المعانى الوضعية المستفادة من الألفاظ ، ولكننا لا نقر مسخ الألفاظ وتعطيل وظيفتها جملة ومواجهتنا بالمعانى عارية من صورها الطبيعية

---

(١) الأصول الفنية للأدب ـ ١٧٦

وأكسبتها التى تتبرج فيها وتطل علينا من نوافذها ، فنهيم على وجوهنا ضالين فى أودية مجهولة وفياف مبهمة لاتحدها صُوًى ولامعالم ، ولا تسلم سالكها إلى نهاية أمينة .

« إننا كما يقول أرسطو : فى حاجة لاستعارة صور من عالم المرئيات ، لنستعين بها على التعبير الخفى » (١) .

غير أن هذه الصور المستعارة لابد أن يشيع فيها الانسجام ، ويؤلف شملها التناسب ، وتؤاخى بينها لحمة القرابة أو صلة المودة ، وعلى قدر منزلتها من ذلك يكون حظها من الوضوح أو الغموض .

خذ مثلا قول « بودلير » من قصيدة عنوانها « الجمال » :

أنا جميلة أيها الفانون كحلم من حجر !

فهذا التشبيه غريب المعنى ، لأن الحلم لا يكون من حجر .

والواضح : أنه قصد الجمال الذى لا يبكى ولا يتألم ولا يضحك أو يفرح دائما ، وإنما هو صامت عميق الصمت (٢) .

ومثله قوله : تتبخر كل زهرة كالمجمرة ، ويهتز الكمان كفؤاد معنّى ، وقلب حزين . وبحران كئيب ، والسماء واجمة جميلة كمذبح رحيب !

ويقول « ملارمة » من قصيدة حوار :

وتذهل عيناها فى انتظار المجهول ، وتتأمل أحلام صباها متناثرة كأنها جواهر باردة !

ولا ريبة أن هذه التشبيهات مبهمة تكللها هالة من الضباب وعدم الوضوح الذى يحولها إلى رموز (٣) .

ومن يقرأ مثل هذه التشبيهات لابد أن تطول وقفته عليها ليصل إلى فهم

---

(١) خواطر الخيال المرحوم كامل حجاج — ٣٨ .

(٢) الرمزية والأدب العربى الحديث للأستاذ أنطون غطاس — ٨٧ — ٨٨

(٣) الرمزية والأدب العربى الحديث — ١٠ — ٤٥ — ٤٦ — ٥٨

ما يراد منها ، ولكنه سيعود بعد طول الشوط والاستنجاد بعقوله ومنقوله بالخيبة المؤلمة لأن المعنى فى بطن الشاعر كما يقولون!

فهذه المعانى لا تفهم فهما جليا ولهذا يعسر التعبير عنها ، لأنها لا تجرى فى فى نهج الألفاظ القويم المأثور ولا تقاس بمقاييس التعبير المألوف ، ولكنها تذاق بالحس الباطنى وحده ، أو تذاق كما يذاق اللبن والماء! وما طعم اللبن والماء؟

وقد تستطيع أن تقول : إن شأننا مع بعضها المستحسن ، كشأن أبى تمام مع هذه المغنية الفارسية التى يقول فيها :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدى فأعجبنى شجاها

ولا شك أن ما مثلنا به يعد من الضرب المعتدل ، ولهذا يمكن أن نسيغ بعضه ، فتشبيه الزهرة تتبخر بالمجمرة ، واهتزاز الكمان بالفؤاد المعنى لا يكاد نا تصوره لانتزاعه من عالم الحس الذى قرب فهمه منا ، ولكن تشبيه المرأة الجميلة بحلم من الحجر لا تجد له تأويلا مقنعا وإن جهدت فى الاحتيال له.

وليس ذلك بعجيب فالأمر كما يقول « ملارمة » إننى ابتدع لغة منها ينبثق شعر جديد ، شعر لا يدور على وصف الشىء بل على تأثيره ، لا يتكون البيت الشعرى فيه من ألفاظ ذات معنى ، بل من ألفاظ ذات نوايا ، بحيث تغيب قيم الألفاظ المعنوية أمام شعورنا .(١)

ويقول : إن البرناسيين (٢) يتناولون الشىء كله فيفقدون بذلك سحر الخفاء ، ويسلبون الذهن نشوة الطرب التى ينشئها فيه اعتقاده بأنه يخلق .

إن الشاعر إذا سمى الشىء باسمه فقد أفقد القصيدة ثلاثة أرباع المتعة ، وما هذه المتعة إلا أثر السعادة التى يشعر بها القارىء وهو يضرب رويدا رويدا فى أودية الحس ، وذلك هو الحلم .

---

(١) المصدر السابق ــ ٥٧

(٢) البرناسية : طريقة تبغض الشعر العاطفى وتؤثر جانب الصنعة على جانب الطبيعة .

فالشعر الرمزى ينكر الواضح ، وينفر من المحدود ، ويطلب المتخيل، ويبحث عن المشتبه ، ويحملك على أن تحلم لا على أن تفكر فالألفاظ عندهم لم تعد تدل على الأفكار أو الصور التى وضعت لها ، وإنما تدل كما تدل الرموز على مناسبات بعيدة ومشابهات مبهمة[١] .

ولكن أصحاب الطريقة الرمزية يرون أنهم معذرون فهم يقولون : إننا لا نعرف الشعور والفكرة إلا بطريقتين : دراسة تعبيرها الفسيولوجى ، ومعرفة الوجدان .

ولكن الفسيولجى ما هو إلا نتيجة الانفعال ، وليس بالانفعال نفسه ، ومعرفة الوجدان عمل بسيط لا يستطاع تمثيله أو تقليده .

وإذن ما هى الفكرة والشعور باعتبارهما الذاتى ؟

إننا لا نستطيع أن نعبر عن حقيقتهما ، كل بيان لها نراه مناقضا للآخر ، لأنها أشياء غير مادية ، ويأتى التصور لإغاثتنا بهذا بأن يجعلنا نسند إلى العواطف والفكر أشكال الأشياء المادية .

وهذا الإسناد الإلهامى يحدث فى الكلام الاعتيادى عدة صيغ تضطرد فى الازدياد والتكاثر لدرجة لا نهاية لها فى الكلام الفنى .

وربما استغرب القـــارىء أو استهجن الأوصاف التى يسندها علماء البسيكولوجيا إلى الفكرة ، ولكن الغاية تبرر الواسطة ، وما هى إلا وسائل يستعان بها على فهم الفكرة ، فتراهم يعبرون الفكرة وزنا ، فيقولون : فكرة ثقيلة وخفيفة .

ويعبرونها لونا ، فيقولون : فكرة قاتمة وسوداء وصافية ، ويعبرونها أبعادا فيقولون . فكرة عريضة وضيقة ومرتفعة وعميقة وسميكة ، ويعبرونها خاصية المتانة ، فيقولون : فكرة متينة ، وينسبون إليها مذاقا ، فيقولون :

---

(١) دفاع عن البلاغة للأستاذ الزيات بك — ١٣٢ .

فكرة حلوة ومرة وتافهة ، ويعبرون الشعور حرارة ، فيقولون : قلب بارد وحار .

وهذا منبع الإنشاء الشعرى ، ولولاه لاقتصر الشعراء على تبيان أسباب العواطف ونتائجها وأحجموا عن تصور العواطف نفسها .

وإن تعدد الرموز المستعملة فى تمثيل الحب تكاد تضحكنا ، إذ تظهر عجز الكتاب عن تعيين شيء غير مادى ، مثل قول « تيبو فيل جوتييه » عن المراهقين : إن نفوسهم كلون اللبن !

وحينما يجد الشاعر نفسه غير قادر على إظهار النفس ، يضطر لأن يبحث عن طرق غير رأسية ، وتشبيهات ليكشف عنها الحجب ، فالصور سر الكلام وروحه [١].

أو كما يقول — تشارلتن — :

قد يريد الشاعر أحيانا أن يقول مايستحيل قوله فى ألفاظ ، فثم ضروب من الخيال الجامح تحطم حدود الألفاظ ثم تلوذ بالفرار لأن طبيعتها تأبى عليها السكينة والقرار .

وهناك من الشعراء من يشطحون بخيالهم إلى تلك الضروب الشموس الشرود فلايرون من الحياة إلا جوانبها الغوامض الدقاق دون ألوانهـــا المحددة الواضحة ، وهم من يطلق عليهم فى الآداب الأوربية : اسم الشعراء الابتداعيين تميزا لهم عن فريق الاتباعيين الذين يذعنون بخيالهم وتفكيرهم للقيود والحدود .

فهؤلاء الشعراء الابتداعيون يريدون أن يعبروا عن تجارب مرت بهم وخواطر طافت بأذهانهم مما يستعصى على التعبير لأنهم إن ساقوها فى أدوات التعبير المألوفة باتت كالتجارب والخواطر المألوفة وهى ليست كذلك .

(١) خواطر الخيال — ٣٨ — ٣٩

وبديهى أنك لو جسمت الظل لم يعد ظلا ، لهذا نرى هؤلاء الشعراء ينتقون للتعبير عما فى نفوسهم ألفاظا توحى بالمعانى ولا تحددها ، وذلك باستخدام كلمات لم يكثر دورانها على الألسنة ولم تألفها الأسماع ، فتكون غرابتها وندرتها سببا فى إبهامها وعدم تحديدها ، لأنها عندئذ تكون كالوعاء الملىء بمادة مجهولة لاتدرى على وجه التحديد والدقة على أى شىء يحوى . وفى مثل هذه الحالات يكون للإبهام قوة أكثر مما للوضوح [١] .

ومن عاداتهم ألا يتقيدوا بهذه القواعد الجافة التى تضغط مشاعرهم ، وتكبل حياتهم ، وتعوقهم عن التوثب والانطلاق .

ولهذا نراهم قد أهملوا حروف التشبيه التى تجمع بين المشبه والمشبه به ولا ريب فى أن بقاء عضوى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية بلا رابط يربط بينهما يستفز الصور المتقاربة فى الضمير ويثيرها جميعا ، غير أن الإسراف والغلو فى هذا الباب يجعل من الألفاظ مجرد إشارات تعجز عن توليد الجو النفسى فى القارىء فتفقد الألفاظ غرضها ورسالتها .

وهم إلى ذلك يحسون علاقات وثيقة بين الألوان والأصوات والعطور وأن هذه الأشياء تعبر عن الفكر وللفكر علاقة أكيدة بها ، لأن الله ـ سبحانه ـ عندما خلق الكون أبدعه كوحدة كاملة لا تتجزأ .

فالحواس إذا يتحول بعضها إلى بعض من حيث المعقول الذى تنقله إلى النفس ، والاختلاف البين بين مظاهر المادة ، إنما هو اختلاف فى العرض ، أما الجواهر فواحدة .

و « لرمبو » قصيدة تسمى : « قصيدة الحروف » الصوتية فيها نظرية السمع الملون ، وهو باب من أبواب نظرية « العلاقات » .

وقد خلع رمبو على الحروف فيها شخصية ذاتية تنطبق عليه وحده :

---

(١) فنون الأدب ــ ١٠ ــ ١١

فالحرف A يوحى اللون الأسود فى بريق أجنحة الذباب تتململ أسرابا حول الأقذار النتنة فى خليج عميق الظل .

و E يوحى طهارة الدخان وثلوج الذرا والملوك البيض .

و I يوحى الدم الأحمر ، وضحكة الشفاه الجميلة فى غضبتها وسكرتها .

و U يوحى هزة البحار ، وهــــدوء مراع انتشرت فيها القطعان ، وأخاديد الجبين .

و O يوحى دقة التصوير الصارخ ، كما يوحى سكون العوالم والملائكة ، ولون البنفسج فى عينى حبيبه .

فالحروف قد حملت هذه الألوان عرضا واتفاقا .

وجاء بعده من رأى غير ذلك فألبسها ألوانا تختلف عن التى وشاها بها رمبو [١].

واللون الأحمر إجمالا فى شعر «رمبو» يرمز إلى الحركة والحياة الصاخبة ، والدم والمبدأ وشهوة الحب والنشوة العارضة ، وقد يرمز إلى القتال والثورة والغضب والأعاصير .

واللون الأخضر يمثل الكون والطبيعة والبحر بما فيه من سعة الانطلاق.

ويمتزج الأخضر بفكرة المستحيل الذى لا يبلغه الإنسان : من فردوس الطفولة والطهر والانعتاق والخلاص .

وقد يستخدم عنده الأخضر للوصف غير المألوف فيخلع على عازفى البيانو صفة الاخضرار .

وقد حظى اللون الأزرق عنده حظوة واسعة ، وفيه يرمز إلى العالم الذى لا يعرف حدوداً ولا تخوما، وفيه انطلاق إلى ماوراء المادة الكونية .

---

(١) الرمزية والأدب العربي ـ ٨٧ ـ ٨٨ ـ ٥٣ .

وهو غشاوة السكون التى تكشف عوالم الملائكة ، والألحان الموسيقية التى تبلغ الأعماق .

واللون البنفسجى لون الرؤى الصوفية .

وفى الأصفر والذهبى لون المرض والانقباض ، وقد يرتبط الأصفر بشعور الحزن والتبرم من الحياة ، والتحفز نحو عالم أطهر وأمثل .

ويترك اللون الأبيض فى نفس « رمبو » جوا من الطهر المثالى الذى لا يبلغه الإنسان فى رجسه ودنسه ، وفى البياض هدأة وسكينة ولون من الفراغ والجمود .

والحق أن الشعراء منذ القدم كانوا يرون فى الألوان خصائص تتقارب من الاعتبارات الرمزية المذكورة ، إلا أن الرمزيين أسرفوا ، وجعلوا من الاتجاه نظريات مستقلة بذاتها .

وفيما سبق ورد شىء من هذا كتشبيه السنة والوصال والرجاء والعطايا والهدى بالبياض ، والبدعة والصدود واليأس والمطالب والغى بالسواد إلخ.

وفى انعكاس المؤثرات على النفس واختلاط الحواس فى التعبير عنها نجد لمحات فى الشعر العربى وإن لم تبلغ فى ذلك مبلغ الرمزيات الخالصة .

فالمتنبى يقول فى مدح كافور :

كأن كل سؤال فى مسامعه   قميص يوسف فى أجفان يعقوب

يعنى أنه يفرح بسؤال السامع فرح يعقوب برؤية قميص يوسف . فجعل ما يسمع كأنه مما يبصر .

وقوله فى أبى بكر الطائى — وقد نام وقت إنشاده — :

إن القوافى لم تُنمك وإنما   محقتك حتى صرت ما لا يوجد

فكأن أذنك فوك حين سمعتها   وكأنها مما سكرت المرقد

(١) الرمزية والأدب العربى الحديث — ٩٣ — ٩٤ — ٩٥

فجعل الآذن تذوق وجعل القصيدة مما يشرب .

ويقول من قصيدة فى مدح سيف الدولة :

فى جحفل ستر العيون غباره فكأنما يُبصرن بالآذان

فجعل الأذن تبصر .

ويقول فى مدح عضد الدولة :

تنشد أثوابنـا مدائحه بألسن مالهن أفواه

إذا مررنا على الأصم بها أغنته عن مسمعيه عيناه

فجعل العين تسمع .

ويقول فى مدح ابن العميد :

فدعاك حُسَّدُك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا

خلفت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمعىْ من أبصرا

فجعل العين تسمع .

والمعنى أن مايراه الناس فيك من الصفات الشريفة التى خصك الله بها ، تُؤذن بأنه قد فضلك على الرؤساء ، وجعلك الأكبر بينهم وإن لم ينطق بذلك لفظا ، فكانت هذه الصفات الظاهرة فيك كالخلف لكلامه يفهم منها ما يفهم منه .

ثم مثّلها بالخط ، فإن معناه إنما يتناول بالبصر فيستفيد منه القلب ما يستفيده بسماع الآذان ، فكأنه لفظ مسموع .

هذا قول اليازجى فى تفسير البيت (١) .

والمعنى المراد فى رأيى : أن هذه الصفات النبيلة التى منحه الله إياها قامت دلالة الحال مقام الكلام الإلهى بتفضيله على غيره من الناس .

---

(١) العرف الطيب ــ ٥٦٩

وكلام الله — تعالى — لا يسمع بجارحة الأذن كما تسمع الأصوات الحادثة، بل يسمع بلا كيفية ولا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها[1]. كما فى تكليمه لموسى — عليه السلام — .

وكذلك هذه الصفات — وقد خلفت كلام الخالق فى ادعاء الشاعر — لا تدرك بالبصر ، ولكن بالحس الباطنى الروحانى ، والإدراك على هذه الصفة يتسامى فوق الجوارح الظاهرة جميعاً ، ويلغيها إلغاء تاما ، فيسمع الإنسان ويبصر ويذوق وما إلى ذلك بجميع كيانه ، وعلى هذا فليس غريبا أن يشبه هذه الصفات بالخط الذى يملأ مسمعى من أبصر ، لأن العين يصح أن تسمع فى هذه الحال .

ولتقريب ذلك نضرب مثلا بما يقع فى الأحلام ؛ فقد يرى الإنسان فى نومه أشياء لا حد لها ، ويسمع ألواناً من الأصوات ، وأفانين من القول ، دون أن يكون للعين والأذن دخل فى ذلك ، فإنهما معطلتان بلا ريب .

وفى مثل ذلك يقول البحترى :

بنفسى خيالا من أثيْلة كلما	تأوّهت من وجد تعرّض يُطمع
ترى مقلتى ما لا ترى من لقائه	وتسمع أذنى رجع ما ليس تسمع

ويقول تميم بن المعز :

ترى عذاريْه قد قاما بمعذرتى	عند العذول فيغدو وهو يعذرنى
ريم كأنّ له فى كل جارحة	عقداً من الحسن أو نوعا من الفتن
كأن جوهره من لفظه عرض	فليس تحويه إلا أعين الفطن
أخفى من السر لكن حسن صورته	إذا تأملته أبدى من العلن

---

(١) تفسير النسفى — ١ — ٢٧٢ « ط . المعارف » . الانتصاف على تفسير الكشاف لابن المنير — ١ — ٣٤٦ .

والشاهد فى البيت الثالث وهو الرؤية بعين الفطنة .

وكقول العقاد يصف الكروان :

كم صيحة لك فى الظلام كأنها دقات صدر للدّجنة عانى
خفّاقة النغمات تطفر فى الدجى فوق النسائم طفرة النشوان
إنى لأسمع منك إذ ناديتنى معنى يقصّر عنه كل بيان

والشاهد فى البيت الرابع حيث جعل المعنى يسمع .

ويقول صَرَّدُر :

وإذا الطيوف إلى المضاجع أرسلت بتحية منـــه فعينىَ تسمع

فجعل العين أذنا تسمع .

ويقول :

مستنشق عطرَ الثناء بسمعه ما كل طيِّبة تشم بمنخر

فجعل الأذن أنفا تشم .

وتقول زوجة قتادة بن مغرب اليشكرى تهجوه بالبخر :

فما جيفة الخنزير عند مغرِّب قتادة إلا ريح مسك وغاليه
فكيف اصطبارى ياقتادة بعدما شممت الذى من فيك أثأى صماخيه .

أثأى : أفسد . والمعنى : أنها تخاطب زوجها بأنها لاتستطيع الصبر على معاشرته بعد ما شمت من خبث نكهته ما أثر فى أذنها فكيف حال أنفها ! فجعلت الأذن تشم كالأنف كذلك .

ويقول ابن رشيق .

فشربتها من راحتيه م كأنها من وجنتيه
وكأنها فى فعلها تحكى الذى فى ناظريه

وأجازه أبو حديدة الشاعر فقال :

وشممت وردة خده نظرا ونرجس مقلتيه

فقال له ابن رشيق :

أحسنت فى شمك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حيث يقول :

كالخط يملأ مسمعىْ من أبصرا [١]

وقال الدكتور طه حسين باشا من مقالة يرثى بها الأستاذ عبد الرحيم محمود [٢] .... فإن أراد الصمت فابتسامة طويلة ترتسم على ثغره ، ويشيع نورها فيما يتحدث به إليك من الألفاظ ، وحتى فى هذه الحال كنت أفهم من هذا النور الذى تحسه الأذن ، وقدلا تراه العين معنى ابتسامه وما أكثر ما كان لابتسامه من المعانى .

فجعل الأذن تبصر .

ومما جاء من ذلك فى القرآن الكريم قوله — تعالى — : « ولنذيقنهم من من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » .

جعل مايرى مما يذاق ، لأن حس الذائق — كما يقول العسكرى — لإدراك مايذوقه قوى وللذوق فضل على غيره من الحواس ، ألاترى أن الإنسان إذا رأى شيئا ولم يعرفه شمه ، فإن عرفه وإلا ذاقه ، لما يعلم من أن للذوق فضلا فى تبين الأشياء . [٣]

وصور البيان الرمزى فى جملته يكثر فى شعر الغربيين ، وشعر المعاصرين من العرب الذين يتابعونهم فى مناهج تفكيرهم وأخيلتهم ، وبخاصة إخواننا شعراء المهجر الذين يقيمون بالدنيا الجديدة .

وشعراء لبنان أكثر البلاد العربية إيغالا فى هذا النوع لتأثرهم بالثقافة الفرنسية أكثر من غيرهم .

وفى مصر لايظهر أثره واضحا فى الشعر ، لأن الشعراء الكبار الذين

---

(١) بدائع البدائة لابن ظافر الازدى — ١ — ١١٤ .

(٢) الاهرام — ١١ — ٨ — ١٩٥١ (٣) الصناعتين — ٢٦٥

لحقوا بالرفيق الأعلى أمثال شوقى وحافظ ومطران وغيرهم لم يتركوا للخلف رسوما منه يسير على هداها ويتخذها إماما ، وهم بموضع القدوة لمن بعدهم.

والشعراء الذين تغلب عليهم الثقافة العربية ينكرونه أشد الإنكار ولا يتذوقونه بحال ، ويعدونه عيا وحصرا وقصورا فى العبارة عن تأدية المعنى ، بل يعدونه نوعا من الهراء والعبث .

والعقاد وهو من زعماء الحركة الابتداعية يزرى عليه ويضيق به ويعد أهله مرضى وقد حمل عليهم حملة شعواء فى بعض مقالاته[1] .

هذا كله مما فت فى عضد المفتونين به فلم ينفق له سوق ولم تخفق له راية ولكنه مع هذا لا يعدم له أنصارا وشيعة بمصر على رأسهم الدكتور « بشر فارس » وله فى ذلك جولات شعرية منها قصيدته التى عنوانها « إلى زائرة[2] »

لو كنت ناصعة الجبين هيهات تنفضنى الزيارة
ما روعـــة اللفظ المبين السحر من وحى الإشارة
ظل على وهج الجبين رسمته معجزة الإشارة
خط تساقط كالحزين أرخى على العزم انكساره

يريد بالظل على وهج الجبين .... مقلة العين .... وبالخط المتساقط الحزين .... جفونها الفاترة .

وكثيراً ما جادل النقاد دفاعا عن مذهبه هذا بدون أن يقنعهم أو يقنعوه

وكذلك تجد لهذا اللون لمحات واضحة لا تصل إلى حد الإغراق فى شعر الدكتور زكى أبو شادى والأستاذ محمود حسن إسماعيل وإن كان الأخير لا ينطق بغير العربية .

وأستطيع أن أجزم بحكم تجاربى أن النفس المصرية السهلة البسيطة البيضاء

---

(١) الكتاب ــ ١ ــ ١٩٤٨

(٢) المقتطف شهر ١٢ / ١٩٤٤ .

القرية الغور، الناشئة فى بلاد منبسطة الرقعة، متطامنة الجبال، معتدلة الجو، صافية السماء، ضاحية الشمس، سافرة الأقمار والكواكب، بعيدة عن تقلبات الجو. وتغيرات الطبيعة، لا تطرب لهذا النوع ولا تستجيب إليه، وسيظل يمشى متعثراً حتى تنشأ أجيال جديدة ربما وحدت فيه شيئاً يذاق.

فهذا الفن غريب على المزاج المصرى الذى تحيطه الواقعية من كل جانب ويطالعه الوضوح والصفاء فى الأرض والسماء، وتلفه الطبيعة الهادئة الوديعة الثابتة فى شملة من السكينة والطمأنينة، فلا جبال تناطح السماء وتكلل قممها الثلوج، وتأوى إلى مغاورها العميقة شياطين الإنس والجن، ولا غابات فيح صفيقة الظلال تسكن تحت أشجارها المتشابكة ما لا يحيط به الوهم من أنواع الوحوش والزواحف والحشرات. ولا سماء قاتمة الإهاب داكنة الجلباب ملثمة القمرين ضريرة النجوم تقهقه بهزيم الرعود وتبسم بشقيقة البروق ويوحى تلبد أساريرها وغموض قسماتها بالفراغ والرهبة والوجل ويثير الهواجس والوساوس ويبعث الفكر الخادر إلى اكتناه ما تحجب وراءها من حقائق واكتن من أسرار، والتماس تفسير لهذه الظواهر المبهمة المعجبة المرعبة معا!

وكلنا يذكر حينما رأى قوس قزح أول مرة مبلغ ما أوحى إليه من التأويلات والتعليلات العريقة فى الوهم، وكيف ذهب به الخيال فى شأنه كل مذهب ومالت به الظنون كل مميل.

وأحسب أن هذا من الأسباب التى جعلت شعراء سوريا ولبنان أقرب إلى اعتناق الرمزية من إخوانهم المصريين، فوق ما قدمناه من تأثرهم بالثقافة الغربية.

الفصل العاشر

التشبيه المتعدد

الأصل فى التشبيه : أن يأتى مفرد الطرفين ، كأن تشبه شيئا بشيء فى فقرة من النثر أو بيت من الشعر كقول الحسن البصرى : بدن لا يشتكى مثل مال لا يزكَّى .

وقول ابن قيس الرقيات فى مدح عبد الملك بن مروان :

يأتلق التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

ولهذا لم يقع التشبيه متعددا فى القرآن الكريم ، فلم يجيء فيه تشبيه شيئين بشيئين ولا أكثر من ذلك ، وإنما جاء تشبيه واحد بواحد فيما ورد من أنواع التشبيه جريا على أعراق البلاغة الأصيلة التى تنفر من التكلف والإغراق كقوله — تعالى — : « فكانت وردة كالدِّهان » فلما رآها تهتزُّ كأنها جانٌّ ولَّى مدبرا » .

ولكن بتراخى المدة عدل الشعراء عن البساطة والقصد ، إلى التعقيد والإسهاب ، ورغبوا فى التزيين والتنميق ، والمبالغة فى الوصف ، والافتنان فى التصوير ، فكان أن رأينا هذا التعدد الذى بلغ حينا حد الإملال .

وأبسط ألوان التعدد :

١ — أن يتعدد المشبه دون المشبه به ، ويسمى تشبيه التسوية .

سمى بذلك للتسوية فيه بين مشبهاته ، كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالى   كلاهما كالليالى
وثغره فى صفاء   وأدمعى كاللآلى

وقول البحترى :

آراؤكم ووجوهم وسيوفكم   فى الحادثات إذا دجون نجوم

٢ — أن يتعدد المشبه به دون المشبه وهو أكثر من الأول ، ويسمى تشبيه الجمع .

سمى بذلك للجمع بين المشبهات به .

كقول العطوى :

وكم قالوا تمن فقلت كأس   يطوف بها قضيب فى كثيب

ونَدمان يساقطنى حديثاً   كلحظ الحِب أو غَضّ الرقيب

وقول بعضهم فى الفضل بن الربيع :

كم من مقيم ببغداد على طمع   لولا رجاء أبى العباس لم يقم

البدر إن نظروا والبحر إن رغبوا   والحصن إن رهبوا والسيف ذو النقم

وقول آخر :

والثريا كأكرة أو لجام   أو بنان أو طائر أو وشاح

وقول البحترى فى وصف ضمور المطايا :

كالقسى المعطفات بل الأسهم   مبرية بل الأقلام

وقوله :

كأنما يبسم عن لؤلؤ   منضَّد أو برَد أو أقاح

ويقول المرتضى : إنه جمع فيه كل ما وصف به الثغر (١) .

وقد زاد عليه الحريرى فى قوله :

يفترّ عن لؤلؤ رطب وعن برد   وعن أقاح وعن طَلْع وعن حبب

وبعض الناس يروى بيت البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ   أوفضة أوبرد أو أقاح

(١) أمالى المرتضى — ٤ — ٨٦

وهى — كما زعموا — رواية أهل الأندلس والمغرب ، فيكون الثغر حينئذ مشبها بأربعة أشياء .

وقد تقدم البحترى أبو تمام بقوله :

وثناياك إنها إغريض ولآل تُؤم وبرق وميض [١]

فشبه الثنايا بثلاثة أشياء حقيقية، لأن حكم الواو غير حكم أو، لاسيما وقد أتى بالتشبيه بغير كاف ولا شىء من أخواتها ، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق [٢]

وقول البحترى أيضا :

كالسيف فى إخذامه والغيث فى إرهامه والليث فى إقدامه [٣]

وعده العسكرى من نوع تشبيه ثلاثة بثلاثة : أى من تعدد الطرفين على تقدير تكرير المشبه ، والخطب سهل .

وقول العسكرى :

كالسيف فى غمراته والبدر فى ظلماته والغيث فى أزماته

وقول عبيد الله بن طاهر :

واحرَبا من فراق قوم هم المصابيح والحصون
والأسد والمزن والرواسى والأمن والخفض والسكون

وقول الثعالبى فى الأمير أبى الفضل الميكالى :

لك فى المحاسن معجزات جمة أبدا لغيرك فى الورى لم تُجمَع
بحران : بحر فى البلاغة شابه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعى [٤]
وترسُّل الصابى يزين عُلوّه خطُّ ابن مُقلةَ ذى المحل الأرفع
كالنَّوْر أو كالسحر أو كالدر أو كالوشى فى بُرد عليه مُوشَّع

---

(١) الإغريض : ما ينشق عنه طلع النخل من الحبيبات البيض .
(٢) العمدة — ١ — ١٩٨ — ١٩٩ (٣) الصناعتين — ٢٣٩
(٤) الوليد : البحترى .

وقول ابن طباطبا :

أتانى قريض كنظم الجمان ... وروض الجنان وأمن الفؤاد
وعهد الصِّبا ونسيم الصَّبا ... وبَرد الفؤاد وطيب الرقاد

وقول الصاحب فى أبيات أهديت إليه :

أتتنىَ بالأمس أبياته ... تُعلل رُوحى بروْح الجنان(٢)
كبُرد الشباب وبرد الشراب ... وظل الأمان ونيل الأمانى
وعهد الصِّبا ونسيم الصَّبا ... وصفو الدنان ورجع القيان

ويلاحظ أن بيت ابن طباطبا وبيت الصاحب قد اتفقا فى الشطرين الأولين ، وذلك يحتمل الأخذ أو توارد الخواطر .

وقول آخر :

أفدى حبيبا له بدائع أو ... صاف تعالت عن كل ما أصف
كالبدر يعلو والشمس تشرق والغزا ... ل م يعطو والغصن ينعطف(٣)

وقول بعض العصريين :

ولست الثقيل ولا المستطيل ... على الصحب بين ذوات الحجال
ولكننى كنسيم الرياض ... وصفو المدام وعذب الزلال

والسابق إلى ذلك امرؤ القيس فى قوله — يشبه الأصابع — :

وتعطو برخص غير شَثْن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسحل

والأساريع واليساريع : دود يكون فى البقل والأماكن الندية ، وظبى : موضع بعينه ، والإسحل : شجر تدق أغصانها فى استواء .

يشبه بنانها الرخص الناعم غير الغليظ ولا الكز فى التناول ، بدود هذا المكان ، ومساويك هذا الشجر .

ومن النثر الرائع قول الثعالبى يصف شعر السرى الرفاء . وكتبت من

---

(٢) الروح بالفتح : الراحة والرحمة ونسيم الريح .
(٣) يعطو : يتناول .

ذلك محاسن وملحا وبدائع وطرفا كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح .

وقول ابن شُهيد — يصف الماء من رسالة التوابع والزوابع — : أزرق كعين السِّنَّور ، صاف كقضيب البلور ، انتخب من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح (١) ، ينصب من إنائه انصباب الكوكب من سمائه ، العين حانوته ، والفم عفريته ، كأنه خيط من غزل فلَق (٢) ، أو مخصر يضرب به من ورق ، يرفع عنك فترَدَى ، ويُصدع به قلبك فتحيا .

ولبعض الظرفاء فى وصف خط رديء : نظرت فى خط منحط ، كأرجل البط على الشط ، أو أنامل السرطان على الحيطان .

ولآخر فى وصف رجل : كان والله سمحا سهلا ، كأنما بينه وبين القلوب نسب ، أو بينه وبين الحياة سبب ، إنما هو عيادة مريض ، وتحفة قادم ، وواسطة عقد .

وأقل تعدد المشبه به أن يجيء اثنين كقول المتنبي :

تحمى السيوف على أعدائه معه ... كأنهن بنوه أو عشائره

وقول المعرى :

وسهيل كوجنة الحِبّ فى اللو ... ن وقلب المحب فى الخفقان

وقول القطامى :

فهن كالحلل الموشيّ ظاهرها ... أو كالكتاب الذى قد مسه البلل

(١) اللياح بالكسر والفتح : الأبيض (٢) الفلق : الصبح .

وقد يتعدد كل من طرفى التشبيه ، فإن أتى بالمشبهات أولا عن طريق العطف أو غيره ، ثم بالمشبهات بها كذلك سمى ملفوفا ، كقول امرىء القيس فى وصف العُقاب — وهو مما انفرد به [١] — :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العُناب والحشف البالى

شبه شيئين بشيئين مع التفصيل فى بيت واحد فأحسن التشبيه ، وجاء به فى غاية الجودة .

وقد قالوا : إنه لم ير مثله فى تشبيه شيئين بشيئين فى حالتين مختلفتين [٢] .

وتقديره : كأن قلوب الطير رطبا : العناب ، ويابسا الحشف البالى ، وهو أردأ التمر ، أو الضعيف الذى لانوى له ، أو اليابس الفاسد ، فشبه الطرى من القلوب بالعناب ، والعتيق اليابس بالحشف .

وخص قلوب الطير لأنها أطيب اللحوم ، وإنما كثرت هذه القلوب عند وكر العقاب ، لأن أفراخها تأكل لحوم الطير ما خلا القلوب فتلقيها خارج الوكر ، أو لكونها — ما دامت صغيرة — لا تأكل سواها فلا تأتى الكواسب لأفراخها إلا بهذه القلوب [٣] .

وظاهر أن التشبيه هنا لايراد منه التركيب ، فالكلام معقود على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة ، إلا أن أحدهما لايداخل الآخر فى الشبه .

وذلك أنه لم يقصد أن يجعل من الشيئين اتصالا ، وإنما أراد اجتماعا فى مكان فقط ، كيف ولا يكون لمضامّة الرطب من القلوب إلى اليابس هيئة يقصد ذكرها أو يعنى بأمرها . . . . كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف أكثر من كونهما فى مكان واحد .

ولو أن اليابسة من القلوب كانت مجموعة ناحية والرطبة كذلك فى ناحية

---

(١) الشعر والشعراء — ٥٥ (٢) الحيوان — ٣ — ١٥ .
(٣) المواهب الفتحية — ١ — ١٢٧

أخرى لكان الشبه بحاله ، ولذلك لوفرقت التشبيه هنا فقلت : كأن الرطب من القلوب عناب ، وكأن اليابس حشف بال لم تر أحد الشيئين موقوفا فى الفائدة على الآخر ، وليس كذلك الحكم فى المركبات .(١)

ومثله قول الوزير أبى عبد الله بن الحداد :

إذا ما بدا سربلته العيون وخرت وجوه إليه سجودا
هو البدر والغصن خدا وقدا كما أنه الظبى لحظا وجيدا

وإن أتى فيه بمشبه ومشبه به ثم آخر وآخر سمى مفروقا ، كقول امرىء القيس أيضاً :

وكشح لطيف كالجديل مُخصَّر وساق كأنبوب السَّقىّ المذلّل

شبه كشحها فى ضموره بخطام الجلد ، وساقها فى صفاء لونه بأنبوب البردى المسقّ المذلل بالإرواء .

وقول فضل الشاعرة (٢) فى قبيحة (٣) جارية المتوكل :

سلافة كالقمر الباهر فى قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب أهيف ناضر

وقول البحترى :

يُدوى الرجال ويَشفيهم بمبتسِم كابن الغمام وريق كابنة العنب

وقول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وَحْف أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

---

(١) أسرار البلاغة ـ ١٥٦ ـ ١٥٧ (٢) مدامع العشاق ـ ٧٥
(٣) سميت قبيحة لجمالها الرائع من باب تسمية الأضداد.

وقول أبي بكر الخوارزمى :

رُب ليل كطلعة الناصبيّ ذى نجوم كحُجة الشيعى [١]

وقول بعض الشعراء :

وليل كعين الظبي غيّرت لونه بكأس كعين الديك بل هى ألمع

فلما مزجت الروح منى براحها ترحّل عنى الغم والهم أجمع

قال الثعالبي : جمع بين عين الظبي وعين الديك فى بيت واحد ولعله لم يسبق إليه .

وعين الظبي تشبه بها العيون المستحسنة ، ومايوصف بالسواد [٢] .

وقد يشبه شيئان مختلفان بشيئين من جنس واحد ، كقول بشار :

من كل مُشتهر فى كف مشتهر كأن غرته والسيف نجمان

وقد كثر تشبيههم شيئين بشيئين حتى لم يصر عجباً — كما يقول ابن رشيق. [٣]

ويتدرج هذا النوع :

١ — من تشبيه شيئين بشيئين كما تقدم فى الأمثلة إلى تشبيه :

٢ — ثلاثة بثلاثة — بأداة أو بدونها — ، كقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنَم

العنم : شجر لين الأغصان يشبه بنان النساء ، وقال أبو عبيدة : هو أطراف الخروب الشامى ، وقيل : شجر له أغصان حمر ، وقيل : هو ثمر العوسج يكون أحمر ثم يسود إذا عقد ونضج .

وقوله :

إن أقبلت فالبدر لاح وإن مشت فالغصن ماد وإن دنت فالريم

---

(١) الناصبى : من يبغض عليا — كرم الله وجهه — .

(٢) ثمار القلوب — ٣٢٧ (٣) العمدة — ١ — ١٩٩

وقول أبى نواس :

يا قمرا أبصرت فى مأتم   يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيُذرى الدر من نرجس   ويلطِم الورد بعناب

وقد أعجب الناس بقوله هذا ، حتى لقد سئل ابن مناذر : من أشعر الناس؟ فقال الذى يقول : وأنشد البيتين .

ثم قال : هذا أشعر الجن والإنس .

ويقول ابن رشيق : وقد جاء بالشعر على سجيته ، وشاهدُ ذلك فى لفظه ، وإلا فهو قادر أن يجعل مكان الدر الطل ، حتى يتناسب الكلام ، لكنه لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة لما فيه من الكلفة .

ثم يقول ومن الناس من يرويه كذلك ، ومنهم من يرويه :

فيذرى الدر من جفنه [١]

وقد أخذه بعض المتأخرين فقلبه هجاء بقوله [٢] :

ياقردة أبصرت فى مأتم   تندب شجوا بتخاليط
تبكى فتذرى البعر من كوة   وتلطم الشوك بيلوط [٣]

وقول ابن المعتز — وهو من المقلوب — :

بدر وليـــل وغصن   وجه وشعر وقـد
خمـر ودر وورد   ريق وثغر وخد

وقد عده المرتضى من تشبيه ستة بستة ، فقال : وأما تشبيه ستة بستة فلم أجده إلا لابن المعتز فى قوله [٤] ، وأورد البيتين .

وهو وَهم منه ، فإن كل بيت مستقل عن الآخر بتشبيهاته الثلاثة .

---

(١) العمدة — ١ — ٢٠٠

(٢) الصناعتين — ٢٣٩ ، وفى ديوان المعانى — ١ — ٣٧ : وأعور أبصرت فى مأتم .

(٣) الكوة بالفتح والضم : النافذة فى الحائط .

(٤) أمالى المرتضى — ٤ — ٤٣

وقول ابن رشيق :

كأن ثناياه أقاح وخده   شقيق وعينيه بقية نرجس

وقول تميم بن المعز بن باديس :

وخمر قد شربت على وجوه   إذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد فى ثغور   كدر فى شعور مثل آس

وقول ابن حيوس :

ومُقرطَق يغنى النديم بوجهه   عن كأسه الملأى وعن إبريقه [١]
فعل المدام ولونها ومذاقها   من مقلتيه ووجنتيه وريقه

وقول حمدونة [٢] الأندلسية :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا   ومالهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة   وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى   ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وقول ابن نباته :

عرِّج على حرم المحبوب منتصباً   لقبلة الحسن واعذِرنى على سهرى
وانظر إلى الخال فوق الخد تحت لمى   تجد بلالا يُراعى الصبح فى السحر

وقول بعض الطالبيين يفخر :

وأنا ابن معتلج البطاح إذا عدا   غيرى وراح على متون ظواهر
يفترّ عنى ركنها وحطيمها   كالجفن يُفتَح عن سواد الناظر
كجبالها شرفى ومثل سهولها   خُلقى ومثل ظبائهن مجاورى

يريد أنه من قريش البطاح وهى عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم .

---

(١) المقرطق : لابس القرطق ، وهو لباس قصير أشبه بالقباء .
(٢) فى خزانة الأدب للحموى — ٨٢ : حميدة .

وقريش الظواهر : بنو الحارث وبنو محارب ابنا فهر ، سموا بذلك لأنهم نزلوا حول مكة وليست لهم . [١]

وقول بعضهم :

روضُ ورد خلاَله نرجس غض م بُخُفان أقحوانا نضيراً
ذا يباهى لنا خدوداً وذا يحكى عيونا وذا يضاهى ثغوراً

وقول آخر :

كأن ضلوعى والزفير وأدمعى طلول وريح عاصف وسيول

٣ — أو أربعة بأربعة ، كقول امرىء القيس فى وصف الجواد من معلقته :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سِرحان وتقريب تتفُل

شبه خاصرتى هذا الفرس بخاصرتى الظبى فى الضمور ، وساقيه بساقى النعامة فى الانتصاب والطول ، وعدوه بإرخاء الذئب وتقريب التتفل ، وهذه الأشياء أحسن ماتكون فى هذه الحيوانات .

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء ، وذلك أن مخرج قوله : له أيطلاظبى إنما هو على أنه له أيطلان كأيطلاظبى ، وكذا ساقان كساقى النعامة . [٢]

وقول يزيد بن معاوية :

ومدامة حمـــراء فى قارورة زرقاء تحملها يد بيضـــاء
فالراح شمس والحباب كواكب والكف قطب والإناء سماء

وقول ابن حاجب النعمان وزير القادر بالله :

ثغر وخد ونهد واختضاب يد كالطلع والورد والرمان والبلح

---

(١) العقد الفريد ٢ — ٢٠٣ — ٢٠٦ (٢) نقد الشعر — ٦٨

وقول الوأواء الدمشقي ، وقيل : هما لغيره : (١)

مجرة جدول وسماء آس وأنجم نرجس وشموس ورد
ورعد مثلث وسحاب كأس وبرق مدامة وضباب نَدّ(٢)

وقول المتنبي لابن عبد الوهاب — وقد جلس ابنه إلى جوار المصباح — :

أما ترى ما أراه أيها الملك كأننا في سماء مالها حُبُكُ (٣)
الفرقد ابنك والمصباح صاحبه وأنت بدر الدجى والمجلس الفلك

وقول ابن سكرة الهاشمي :

في وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعن في أحد
فالخد ورد والصدغ غالية والريق خمر والثغر من برَد

وقول الزغاري :

كأن السحاب الغُرّ لما تجمعت وقد فرقت عنا الهموم بجمعها
نياق ووجه الأرض قعب وثلجها حليب وكف الريح حالب ضرعها

وقول ابن رشيق :

بفرع ووجه وقدّ وردف كليل وبدر وغصن وحِقْف (٤)

ومن لطيف قول بعضهم — وقد أهدى إليه نرجس وأقحوان وشقائق وآس — فكتب إلى من أهداه :

لله ما أظرف أخلاقك م يا بحر الكرم
أهديت ما ناسبتها حسنا وظرفا وشيم
فما رأينا مهديا قبلك في كل الأمم
أهدى العيون والثغو ر والخدود واللِّمَم

---

(١) النجوم الزاهرة ـ ٥ـ ٣٢٣ (٢) المثلث : ثالث الأوتار، والمراد: العود نفسه.
(٣) الحبك : طرائق النجوم في السماء .
(٤) الحقف : بالكسر : المعوج من الرمل ، أو الرمل العظيم المستدير ، أو المستطيل المشرف .

ومن بديعه قول الصنوبرى — يفضل الربيع على غيره من الفصول: —(١)

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف النخل مُختَرفا ... فالأرض عريانة والجو مقرور(٢)
وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا ... فالأرض محصورة والجو مأسور
مالدهر إلا الربيع المستنير إذا ... جاء الربيع أتاك النَّوْر والنور
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور
تبارك الله ما أحلى الربيع فلا ... تُغرَرْ فقائسه بالصيف مغرور
من شمَّ طيب جنيّات الربيع يقل ... لاالمسك مسك ولا الكافور كافور

والشاهد فى البيت الخامس .

وقول البارودى :

من كل مائسة كالغصن قد جمعت ... بدائعا كلها للحسن أوضاح
فالعين نرجسة والشعر سوسنة ... والنهد رمانة والخد تفاح

٤ — وخمسة بخمسة ، كقول الوأواء الدمشقى — وقد أتى به من غير أداة — :

قالت متى النأى يا هذا فقلت لها ... إما غدا — زعموا — أو لا فبعد غد
فأسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضّت على العُنّاب بالبرَد

وفيه يقول العسكرى ولا أعرف لهذا البيت ثانيا فى أشعارهم .(٣)

وقد وجد له ثان بقول الحريرى المتقدم :

يفترّ عن لؤلؤ رطب وعن برَد ... وعن أقاح وعن طَلْع وعن حبَب

وقول ابن برون الأكشونى الأندلسى — يصف فرسا وردا أغر محجلا :

فكأن غرته وتحجيلاته ... خمس من السوسان وسط شقائق

---

(١) نثر النظم للثعالبى — ١٥٠ (٢) الاختراف : الاجتناء .
(٣) الصناعتين — ٢٣٩

قال أبو عامر بن شهيد : وهذا على التحقيق ستة بستة ، ولم أسمع بمثله من قبل :
وقال ابن الجلاب : وكلام أبو عامر هذا لايخلو من النقد (١) .

ذلك لأن الغرة مضافا إليها أربعة تحجيلات فى قوائمه الأربعة خمس لا ست .

ولكن لعله جعل السادس لون الفرس نفسه المشبه بالشقائق فى حمرته .
وقول ابن حزم :

كأنى وَهِىَ والكأس والخمر والدجى ثرًى وحياً والدر والتبر والسَّبَجْ (٢)

وقد علّق عليه بقوله : وهذا أمر لامزيد فيه ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك (٣)

ونسى ابن حزم أن يقول : إن بيته متكلف سخيف ، وليته أعفى نفسه من نظمه .

٥ — أوستة بستة ، كقول صفى الدين الحلى — وقد جاء به مع الطى والنشر المرتب — :

زنبق بين قُضب آس وبان وأقاح وعبهر وورود (٤)
لجبين وعارض وقوام وثغور وأعين وخدود

وقول ابن جابر الأندلسى :

إن شئت ظبياً أو هلالا أو دجى أو زهر غصن فى الكثيب الأملد
فللحظها ولوجهها ولشعرها ولخدها والقد والردف اقصد

وفى هذين البيتين يقول الحموى : صبرنا على « الأملد » لكونه صفة

(١) نفح الطيب — ٢ — ٢٣٩
(٢) السبج : الخرز الأسود .
(٣) طوق الحمامة — ١٥
(٤) العبهر : النرجس والياسمين .

الكثيب ، ولكن لم نصبر على دخول « القصد » يريد : « اقصد » فإنها زيادة أجنبية (١) .

ولو انصف لقال : لا نستطيع الصبر على البيت كله لأنه تلفيق محض .

٦ — أو سبعة بسبعة كقول قاضى القضاة نجم الدين البارزى .

يقطع بالسكين بطيخة ضحا   على طبق فى مجلس لا صاحبه
كبدر ببرق قدّ شمسا أهلّة   لدى هالة فى الأفق بين كواكبه

وقد نقده شهاب الدين أبو جعفر : بأنه نص فى اللف على ستة ، ونص فى النشر على سبعة ، لأن الأهلة راجعة إلى الأشطار وهى غير مذكورة فى اللف .

وكذلك قوله « ضحا » فى بيت اللف مطرح لانظير له فى النشر .

وقد رد عليه الحموى : بأن الأشطار تفهم من قوله : يقطع .

وقوله : «ضحا» ليس له عنده فى الحسن نظير ، وهى تقابل قوله : «شمسا(٢)» وهذا خطا من الحموى لأن الذى يقابل الشمس هو البطيخة لا الضحا وهذا لا يحتاج إلى بيان .

وقد قطع مصححو نهاية الأرب : أن البيتين كالآتى :

يقطّع بالسكين بطيخة ضحا   على طبق فى مجلس لان صاحبُه
كشمس ببرق قدّ بدرا أهلة   لدى هالة فى الأفق شتى كواكبه

وقالوا : إن هذا هو الصواب وما سواه تحريف (٣) .

والتحريف ما صوبوه لأنه ظاهر التكلف ، فلا معنى لقولهم : لان صاحبه وقولهم : شتى كواكبه ، وخلو الفعل « قد » من تاء التأنيث العائدة على الشمس خطأ نحوى ، وجعل البطيخة بدرا يزرى بها ، لأنها تكون بطيخة قرعاء .

---

(١) خزانة الأدب — ٨٣   (٢) المصدر السابق والرقم .
(٣) نهاية الأرب — ١١ — ٣٥ .

ويشهد لقولنا قول الآخر :

أتانا الغـــلام ببطيخة وسكينة جلوها صقالا
فقطع بالبرق شمس الضحا وناول كل هلال هلالا

على أن قول البارزى كله لايستحق هذه العناية .

٧ — أو ثمانية بثمانية ، كقول علاء الدين بن مقاتل الحموى :

خدود وأصداغ وقد ومقلة وثغر وأرياق ولحن ومُعرب
فورد وسوسان وبان ونرجس وكأس وجريال وجَنك ومطرب[١]

٨ — أو عشرة بعشرة ، كقول بعضهم :

شعر جبين محيا معطف كفَل صدغ فم وجنات ناظر ثغر
ليل صباح هلال بانة ونقا آس أقاح شقيق نرجس در

ويلاحظ أن تشبيه تسعة بتسعة لم يرد فى كلامهم .

ومما تقدم من الأمثلة نستنبط ماياتى :

١ — أن أفضل هذا النوع ، المتعدد الطرفين، وأقربه إلى الفطرة، وأبعده من التعسف والتعقيد ، ما وقع فيه تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد .

وقد مدحه قدامة وعده من دلائل البراعة والمقدرة ، فقال : اعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين فى بيت واحد ، كان فى ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك فى بيتين ، ولذلك فضل قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا « البيت »

على قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقَّب

لأنه جمع فى البيت الأول وصف شيئين بشيئين ، وإنما وصف فى الآخير شيئاً واحداً [٢] .

---

(١) الجنك : آلة للطرب معرب . (٢) نقد النثر — ٩٠

٢ — أن تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه أكثر ما ورد من هذا النوع فى شعر الشعراء المولدين .

٣ — أن المقبول منه ينتهى عند تشبيه أربعة بأربعة — كما يؤخذ من التأمل فى الأمثلة — ولا بأس بخمسة حينما يعدل عن التشبيه إلى الاستعارة ؛ كقول الوأواء المتقدم :

فأسبلت لؤلؤاً . . . .

٤ — تشبيه خمسة بخمسة إن جرى على غير طريق الاستعارة ، لا يسعه البيت الواحد إلا بعسر وكلفة ، وأما ما فوق ذلك فلا يقع إلا فى بيتين .

٥ — مازاد على تشبيه أربعة بأربعة يشوبه التعقيد والتعسف وضعف النسج ونضوب الماء والرونق ، ويزداد قبحه بزيادة صعوده فى العدد حتى يستحيل إلى لون من الثقل والتنافر اللفظى كتوالى الروابط والإضافات والأفعال وما أشبه ذلك .

٦ — لم يرد عن الأقدمين أكثر من تشبيه أربعة بأربعة كقول امرىء القيس :

له أيطلاظبى . . . .

وفى ذلك يقول المرتضى : تأملت ما اشتملت عليه تشبيهات الشعراء ، فوجدت أكثر ماشبهوا فيه الشىء بالشىء الواحد ، أو الشيئين بالشيئين . وقد تجاوزوا ذلك إلى تشبيه ثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة وهو قليل[1] .

---

(١) أمالى المرتضى — ٤ — ٣٦

الفصل الحادى عشر

نشأة التشبيه المتعدد

قدمنا أن الأصل فى التشبيه الإفراد ؛ فيشبه شيء بشيء فى بيت واحد .

وأول من ابتدع التعدد فى طرفى التشبيه امرؤ القيس حين وصف العقاب بقوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا « البيت »

فشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد، واتبعه الشعراء فى ذلك ، فقال لبيد :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامها

الزبر بضمتين : الكتب جمع زبور .

يقول : كشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها .

وأقلام مضافة إلى ضمير زبر ، واسم كأنها : ضمير الطلول .

فشبه الطلول بالزبر ، والسيول بالأقلام ، بل زاد فشبه جلاء هذه عن هذه بتجديد تلك لتلك .

ثم جاء بشار من المحدثين فقال :

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويحكون عنه أنه قال : ماقرّ بى القرار منذ سمعت قول امرىء القيس .

كأن قلوب الطير . . .

حتى صنعت :

كأن مثار النقع . . . .

قال ابن رشيق : فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت

امرئ القيس فى ترتيبه كبيته ، وإن كان المراد تشبيهين فى بيت ، فقد قال الطرماح فى صفة ثور وحشى :

يبدو وتضمره البلاد كأنه ... سيف على شرف يُسَلّ ويُغمَد

وهذا فى نهاية الجودة [١] .

ويقول الباقلانى: واستبدعوا تشبيهه — أى امرىء القيس — شيئين بشيئين على حسن تقسيم ، ويزعمون : أن أحسن ما وجد فى هذا للمحدثين قول بشار :

كأن مثار النقع . . .

وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم والتفصيل ، ولم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل [٢] .

ويقول العسكرى فى بيت بشار: شبه ظلمة الليل بمثار النقع ، والسيوف بالكواكب ، وبيت امرىء القيس أجود ، لأن قلوب الطير رطبا ويابساً أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب . [٣]

والحق أنه لامعنى للموازنة بين البيتين ، لأن بيت امرىء القيس من تشبيه المفرد بالمفرد ، لأن انضمام الرطب إلى اليابس من القلوب ، والعناب إلى البالى الحشف لايتألف منه هيئة ولا يقصد ذلك .

وأما بيت بشار فتشبيه مركب فى طرفيه ، وفى وجهه كذلك ، وهو الهيئة الحاصلة من هوىٍّ أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار ، متفرقة فى جوانب شتى .

ولذلك وجب الحكم — كما يقول عبد القاهر — : بأن الكلام إلى قوله « وأسيافنا » فى حكم الصلة للمصدر وجارى مجرى الاسم الواحد ، لئلا يقع

---

(١) العمدة ـ ١ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢) إعجاز القرآن ـ ٧٣ ـ ٧٤ (٣) الصناعتين ـ ٢٣٨ .

فى التشبيه تفريق ويتوهم أنه كقولنا : كأن مثار النقع : ليل ، وكأن السيوف : كواكب .

ونصب الأسياف لا يمنع من تقرير الاتصال ، ولا يوجب أن يكون فى تقدير الاستئناف ، لأن الواو فيها بمعنى « مع » . . . وهى إذا كانت بمعنى مع لم يكن فى معطوفها الانقطاع ، وأن يكون الكلام فى حكم جملتين [١] .

وبهذا يسقط تفضيل الباقلانى بيت امرىء القيس على بيت بشار بما ذكره من صحة التقسيم والتفصيل ، لأن بشارا لم يرد التقسيم ، وإنما أراد انتزاع هيئة مكتملة من طرفى التشبيه المركبين ، وقد جاء فيها بتفصيل أوسع وأكثر .

وأما موازنة العسكرى بين البيتين فلا يقام لها وزن ، لأنه عد التشبيه مفردا ثم هو — إلى ذلك — قصر نظره على جزئيات تافهة لا تقدم ولا تؤخر .

وقد أعجب النقاد بيت بشار ، فقيل له [٢] — وقد أنشد البيت المتقدم — : ماقيل أحسن من هذا التشبيه ؟ فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط ولا شيئا منها ؟

فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من هذه الأشياء ، فيتوفر حسه وتذكو قريحته .

ثم أنشدهم قوله :

عميت جنينا والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم مَوئلا

وغاض ضياء العين للعلم رافداً ... لقلب إذا ماضيَّع الناسُ حصَّلا

كأنه أخذ هذا من الأثر : « ما انتقصت جارحة من إنسان إلا كانت ذكاء فى عقله » .

ولذلك ضرب المثل بعين بشار ، لأنه كان أعمى أكمه لم يبصر شيئا قط

(١) انظر أسرار البلاغة من — ١٤٠ — إلى — ١٥٩

(٢) معاهد التنصيص — ١ — ١٤٣ .

وهو قائل هذا البيت (١).

وإذا كان امرؤ القيس سبق الشعراء بتشبيه شيئين بشيئين ، فقد سبقهم أيضا بتشبيه شيء بشيئين فى قوله يصف البنان .

وتعطو برخص غير شثن كأنه — أساريع ظبي أو مساويك إسحل

وتشبيه أربعة بأربعة فى بيته المتقدم .

له أيطلاظبي . . .

فكان أول من فتح هذا الباب (٢).

وبهذا الابتكار وأمثاله استحق امرؤ القيس أن يلقب « أمير الشعراء » لأن شعره فى جملته أقل من شعر زهير تنقيحا وتهذيبا ، ومن شعر النابغة صفاء ونقاء .

قيمة التشبيه المتعدد.

لاخلاف أن التشبيه المتعدد فى بعض صوره ينتزع منا الاستحسان ، لأنا نرى فيه مظهر الاستيعاب والتقصِّى ، وقوة الملاحظة ، والبراعة فى الجمع بين الأشياء المتناسبة . والقدرة على نظمها فى سلك قصير ، ولكن النقاد — مع هذا — لايرتفعون به إلى منزلة التشبيه المركب لخلوه من الهيئة ذات التفاصيل الكثيرة والجزئيات المتضامة المنسجمة ، يفعل فيها الخيال فعله ، ويبدع — ما وسعه — فى تأليفها وتنسيقها وتوشيتها وتحبيرها وتحليتها فى صورة كلية مونقة خلابة تهز أنفسنا من الأعماق ، وتثير فيها ألوانا مختلفة من الانفعالات .

وفى هذا يقول عبد القاهر : واعلم أن ماكان من التركيب فى صورة بيت امرىء القيس .

كأن قلوب الطير . . . . .

---

(١) ثمار القلوب — ١٧٩ (٢) العمدة — ١ — ١٩٩

فإنما يستحق الفضيلة من حيث اللفظ ، وحسن الترتيب فيه ، لالأن للجمع فائدة فى عين التشبيه [١].

ويقول ابن يعقوب المغربى : ليس فيه هيئة يعتدبها ويستحسنها الذوق ، أو يستطرفها السامع ، وإنما الفضيلة فى اختصار ماتعلق به هذا التشبيه المتعدد من ترتيبه ، ولافضيلة له باعتبار الهيئة لانتفاء حسنها . [٢]

ويقول الحموى : المراد من حسن التشبيه وبليغه غير كثرة العدد فى الصفات، فقدأوصله البارزى إلى سبعة ، وأوصله الناس إلى أكثر من ذلك . ولكن جُلّ القصد هنا غير كثرة العدد ، فإن المراد من التشبيه غرابة أسلوبه وسلامة اختراعه . [٣]

ويقول ابن شهاب العلوى الحضرمى : التشبيه المقصود عند البديعيين هنا : هو التشبيه المركب ، وهذا هو العزيزالممنوع ، أما تعددالتشبيه منغير تركيب فهوأمرسهل ، وقدبلغ فيه الشعراء إلى ثمانية بثمانية وتسعة بتسعة[٤] ، وعشرة بعشرة [٥] .

وربما كان فى بعض هذه الأقـــوال شوب من المبالغة ، ولكن فيها حق كثير .

وحفظ الترتيب فى هذا النوع غير واجب ، فإن حفظ فيه الترتيب فلأجل الشعرفقط ، كقول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا ... نيروأطراف الأكف عنم

فإنه يصح فى غير الشعر ألا يتبع هذا النظام المخصوص فتبدأ بأيها شئت والمعنى على حاله .

---

(١) أسرار البلاغة ــ ١٠٨ (٢) مواهب الفتاح ــ ٣ ــ ٤٤٨

(٣) خزانة الأدب ــ ٢١٧

(٤) ذكرنا فيما سبق : أننا لم نعثر على مثال للتشبيه بتسعة بتسعة .

(٥) إقامة الحجة على التقى بن حجة ــ ٣٦ .

الفصل الثانى عشر

القريب المبتذل ، والبعيد الغريب

هذا فصل لم يخل كلامهم فيه من اللبس والاضطراب ، ومرد ذلك إلى الخلط بين الأشياء وعدم التدقيق فى بيان معنى كل منها .

فالخطيب مثلا جعل القريب والمبتذل شيئا واحدا ، وكذلك البعيد والغريب ، فكان أن قال : القريب المبتذل ، والبعيد الغريب دون أن يذكر حرف العطف بين كل اثنين ، ثم عرف كل اثنين منهما تعريفا واحدا ، فالقريب المبتذل : هو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق نظر ، لظهور وجهه فى بادىء الرأى .

والبعيد الغريب : هو مالا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعدفكر ، لخفاء وجهه فى بادىء الرأى .[1]

واقتصر الرازى [2] من هذه الأسماء الأربعة على القريب والغريب وجعلهما متقابلين .

والقريب عنده : ما يخطر ببالك عند ذكر المشبه ، كنظرك إلى السيف عند سله ، فإنه يذكرك بلمعان البرق .

والغريب : هو الذى تحتاج فى إدراكه إلى دقة نظر وقوة فكر ، كتشبيه البرق بإصبع السارق فى قول كشاجم :

أرقت أم نمت لضوء بارق مؤتلق مثلَ فؤاد العاشق
كأنه إصبع كف السارق

---

(١) الإيضاح ــ ١٨٢ (٢) نهاية الإيجاز ــ ٧١

ويفهم من كلام عبد القاهر : أن البعد والغرابة عنده سواء ، فهو يقول: والمعنى الجامع فى سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشىء مما لاينزع إليه الخاطر ، ولا يقع فى الوهم عند بديهة النظر إلى نظيره الذى يشبه به ، إلا بعد تثبت وتذكر ، وفكر للتفس عن الصور التى تعرفها ، وتحريك الوهم فى استعراض ذلك واستحضار ما غاب عنه (١).

أما شراح التلخيص فقد وافقوا فى بعضها وخالفوا فى بعضها الآخر ، فالقريب عندهم : ما يحصل من غير تدقيق نظر .

وهو مثل كلام الرازى والخطيب .

والبعيد : ما كان كثير التفصيل ، أو كان قليل التفصيل ، إلا أن المشبه به فيه غير غالب الحضور فى الذهن : أى عند ذكر المشبه .

والغريب : ما كان قليل الاستعمال (٢) .

والمبتذل : الكثير الاستعمال ، أو هو كما يقول الزمخشرى : الملهوج بذكره المستعمل (٣) .

إذ الابتذال فى الأصل : الامتهان ، أطلق وأريد به التداول وكثرة الاستعمال ، لأن الشىء المتداول بين الناس يكون ممتهنا (٤) .

وهم بهذا التقسيم يجعلون القريب فى مقابل البعيد ، والمبتذل فى مقابل الغريب .

ونحن لانجد فرقا بين البعد والغرابة واللغة تساعد على ذلك ، ففى المعاجم اللغوية : الأباعد : ضد الأقارب ، والأباعد : الغرباء أيضا ، واغترب فلان : إذا تزوج إلى غير أقاربه .

لذلك نستطيع أن نوافق الرازى على جعله البعد والغرابة شيئا واحدا ،

---

(١) أسرار البلاغة — ١٢٥ واقرأ كذلك من ١١٠ إلى ١٢٠

(٢) عروس الأفراح — ٣ — ٤٤٨ (٣) أساس البلاغة .

(٤) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٤٣

ولكننا لا نستطيع أن نوافق الخطيب على أن القريب هو المبتذل ؛ إذ ليس كل قريب مبتذلا ، ذلك لأن الابتذال يرجع إلى كثرة الاستعمال أكثر من القرب ، فمثلا قول العباس الصولي :

فكن كيف شئت وقل ما تشا وأبرق يمينا وأرعد شمالا
نجابك لؤمك منجى الذباب حمته مقاذيره أن ينالا

يعد قريبا فضلا عن شهرته ولكنه لا يعد مبتذلا .

وكذا قول سعيد بن حُميد :

أهاب وأستحيي وأرقب وعده فلا هو يَبداني ولا أنا أسأل
هو الشمس مجراها بعيد وضوءها قريب وقلبي بالبعيد موكّل

فإن الحصري يقول فيه : وهذا المعنى ، وإن كان كثيرا مشهورا . فما يكاد يداني في الإحسان فيه (١) .

وقد فرقوا بين القريب والمبتذل فقالوا :

١ — إن كان قريب التناول بحيث يمكن لكل أحد التشبيه به ، ولكن اتفق أنه لم يكثر استعماله فلا يكون مبتذلا .

٢ — إن كان قريب التناول وكثر استعماله يكون مبتذلا .

٣ — إن كان بعيدا عن كثير من الإدراكات بحيث لا يفوز بالتشبيه به إلا القليل من الأذكياء والبلغاء ، ولكن جرى استعماله كثيرا حتى عد مبتذلا من حيث كثرة ممارسة البلغاء له لا من حيث ظهوره لعامة الناس فيعد من البعيد الغريب (٢) .

فقولهم صريح إذن في أن القريب لا يكون مبتذلا إلا إذا صاحبته كثرة تداول .

---

(١) زهر الآداب — ٤ — ١٦٨ (٢) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٤٣

بل يجب أن نحتاط فى هذا القول أيضا . فهناك ألفاظ لا يمكن أن تخلق جدتها وينصل لونها أبد الآبيد لأسباب كثيرة منها .

١ — أن تكون قد اكتسبت قداسة وروحانية وجلالا بورودها فى الكتب المنزلة ، أو كانت مما نطق بها الرسل وأصحابهم وأئمة الأديان وحكماء البشرية .

فتشبيه القرآن الكريم للقمر فى نقصه بعد الزيادة بالعُرجون القديم .

وتشبيه الرسول — صلوات الله عليه — الناس فى أنهم سواسية بأسنان المشط ، سيظلان حيين ما دامت الحياة .

٢ — أن تكون كثيرة الإشعاع موفورة الحظ من الرقة والدقة والبهاء والجمال ، أو القوة والعظمة والجبروت ، كالشمس والقمر والظبي والريم والمها والغصن والزهر والندى والنسيم والمدام ، والأسد والجبل والبحر والنار والصاعقة والعاصفة، إلى غير ذلك مما هو رقيق أو جميل أو قوى .

٣ — ألا يمكن الاعتياض عنها بغيرها كالشباب والهرم ، والحياة والموت ، والقوة والضعف ، والحرب والسلم ، والفقر والغنى ، والكبر والصغر ، والأم والأب .

٤ — ان تكون ألفاظا تاريخية كتب لها الخلود وسارت بها الأمثال مدحا وذما كحاتم في الكرم ، ومادر فى البخل ، وسحبان فى الفصاحة ، وباقل فى العى . وعرقوب فى الخلف إلخ .

ولذلك رأينا أبا تمام لا يرى بأسا أن يمدح ولى عهد الخلافة بهذا البيت :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

لأن هذه الأسماء صارت رموزا على المثُل العليا فى هذه الصفات . فليس الغرض التشبيه بحاتم أو الأحنف وإنما الغرض الوصف بالغاية القصوى فى هذه المعانى ، لذلك لم يكن معنى لاعتراض الفيلسوف الكندى

عليه ، ولعله أراد أن يمتحن ذكاءه وقوة عارضته ، كما أن أبا تمام راغ عن الحقيقة حين قال :

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وإن كان قد أفحم خصمه .

لأنه فى بيته لم يشبه الأكثر بالأقل كما فى الآية الكريمة التى قصد منها تقريب الفهم ، وإنما هو قد وصف عظيما بما هو أعظم منه ، لأنه أراد أن « ولى العهد » بلغ أسنى ما يمكن أن يصل إليه البشر فى هذه الخصال التى تعالم الناس أصحابها ، وهو كما تعلم ادعاء لا حقيقة لأنه ليس من الضرورى أن توجد هذه الصفات أو بعضها فى شخص لأنه ولى عهد أو ملك مثلا .

وقد جرت العادة أن يتمثل بجرأة الأسد حتى النسوان والصبيان ؛ لأن الأسد سيد السباع ، كما أن العقاب سيد الطيور ، والفرس سيد الدواب[1] .

وسيظل ذكر السيف غضا لا يبلى مع ما عرف وما يعرف من أدوات القتال الجهنمية التى تركته أثرا من الآثار ؛ لأنه أصبح رمزا للحرب ولآلاتها جميعا ؛ لذلك لم نعجب من قول « هتلر » فى بعض خطبه « أنتم فى حماية السيف الألمانى » ، وقول رئيس جمهورية فرنسا حينما استحرّت المعركة فى الحرب العالمية الثانية « لقد امتشقت فرنسا حسامها » .

ولبعض الألفاظ رسوخ فى ميدان التفكير على توالى الحقب مما يجعلها مشبعة بالمعانى والتجارب والذكريات التى نسجها حولها الزمن وأودعها طياتها . وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة وتجعل أثره ممتدا إلى آفاق فسيحة .

ولعل هذه الأنواع من الكلمات والعبارات هى التى لا تستغنى عنها اللغة فى جميع عصورها مهما تبدلت حياة المتكلمين بها واختلفت بيئاتهم ؛ لأن الزمن قد ثبّت دعائمها وأوضح معالمها حتى أصبحت الأجيال المتعاقبة تحرص

---

(١) ثمار القلوب — ٣٠٦ .

عليها ، وتعمل على صيانتها ، كما تعمل على صيانة الآثار التاريخية التى تذكرها بماضيها ، وتربطها بحاضرها ومستقبلها ، وقد يكون هذا من بعض أسباب خلود الفن والأدب[١] .

ولاشك أنه توجد فى اللغة العربية كما فى غيرها تعبيرات ابتذلت بكثرة الاستعمال ، وهى ما يسميه الأستاذ « ديو مبين » الفرنسى « كليشيه »[٢] .

ولكن يجب أن يعرف أن هذا الابتذال عرض طارىء عليها ، وأن كثيراً منها بادىء ذى بدء كانت ذات سنا وبهجة ورونق وماء تجمل فى الآذان وتنبل فى الصدور ، فمثلها كمثل الغيد الأماليد فى طراءة السن وزهو الصبا ، ثم تدول دولتها وتحول حالها بتتابع السنين ، فإذا هن عجائز دميمات تقتحمهن العيون وكن فتنتها ، وتصدف عنهن القلوب وكن كعبتها ، ولله المتنبى إذ يقول :

متّعينا بحسن وجهك مادا م فحسن الوجوه حال تحول

وفى ذلك يقول الإمام عبد القاهر : قد يسبق الأول إلى تشبيه لطيف يحسن تأمله ويدل على ذكائه ، ويشهر حتى يخرج إلى حد المبتذل وإلى المشترك فى أصله ، وحتى يجرى على دقة تفصيل فيه مجرى المجمل الذى تقوله الوليدة الصغيرة والعجوز الوَرْهاء . فإنك تعلم أن قولنا لايشق غباره الآن فى الابتذال كقولنا : لايلحق ولايدرك ، وهو كالبرق ونحو ذلك ، إلا أننا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وأن هذا الابتذال أتاه بعد أن قضى زمانا بطراءة الشباب وجدة الفَتاء وبعزة المنيع ، ولو قد منعك جانبه وطوى عنك نفسه ، لعرفت كيف يشق مطلبه ويصعب تناوله ، وأظهر منه قولنا : « أما بعد » منسوبا فى الأصل إلى واحد بعينه وإن كان الآن فى

(١) الأصول الفنية للأدب للأستاذ عبد الحميد بك حسن — ١٨٨ .
(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك — ١ — ١٨٠ .

البذلة ، كقولنا هذا بعد ذاك مثلا ، وهذا الحكم فى الطرق التى ابتدأ بها الأولون ، والعبارات التى لخصها المتقدمون والقوانين التى وضعوها ، حتى صارت فى الاشتراك كالشى المشترك من أوله ، والمبتذل الذى لم يكن الصون من شأنه ، والمبذول الذى يعترض دونه المنع فى شيء من زمانه[(١)] .

ورب نفيس جلب إليك من الأمكنة الشاسعة وركب فيه النوى الشطون . وقطع به عرض الفيافى ، ثم أخفى عنك فضله حتى جهلت قدره أن سهل مرامه واتسع وجوده ، ولو انقطع مدده عنك حتى يحتاج إلى طلبه من مظنته لعلمت إحسان الجانى به إليك ، والجالب المقرب نيله عليك ، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت . وكذلك رب شيء نال فوق مايستحقه من شغف النفوس به وأكثر مما توجبه المنافع الراجعة إليه ، لأنه لايتسع اتساع الأول الذى فوائده أعم أو أكثر ووجود العوض عنه عند الفقر أعسر ، فكسبت عزة الوجود هذا عزا لم يستحقه بفضله . كما منعت سعة الآخر فضلا هو ثابت له فى أصله .

أسباب الابتذال :

ويرجع الابتذال إلى أشياء تمت إلى النفس بصلة قوية .

١ — إدراك الشيء مجملا أسهل من إدراكه مفصلا ؛ لعدم احتياجها فى فهمه إلى ملاحظات متعددة ؛ إذ التفصيل على أنظار كثيرة وتعريفات صعبة الإدراك ، ولذا كان العام أعرف من الخاص فإذا كان الوجه كذلك كان أمراً ظاهراً سهل التناول .

وهذا الحكم بأسبقية الجملة إلى النفوس من التفصيل ، يعم السمع وغيره من الحواس ، ويأتى التفصيل بعد ذلك فتستبين به أشياء كانت مطوية ، ولهذا قيل : النظرة الأولى حمقاء .

---

(١) أسرار البلاغة ــ ١٥٣ ــ ١٥٤ ــ ١٥٥ .

وبإدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع وهكذا . وإنك فى إدراك ما تراه أو تسمعه أو تذوقه كمن ينتقى الشيء من بين جملة ، وكمن يميز الشيء مما قد اختلط به ، فأما حين لا يهمك التفصيل فأنت كمن يأخذ الشيء جزافا وجرفا .

والأمر كذلك فى القلب فالجمل أبدا هى التى تسبق إلى الأوهام وتقع فى الخاطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية والاستعانة بالتذكر ، وكلما أوغل الفكر فى التفصيل كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والعقل إلى التأمل والتمهل أشد .

فالاشتراك مثلا فى الصنعة من جهة الجملة على الإطلاق يقل عن أن يحتاج فيه إلى قياس وتشبيه ، نحو كلا الشيئين أسود أو أحمر ، فإن دخل فى التفصيل شيئاً احتيج بعد ذلك إلى إعمال الفكر مثل تشبيه حمرة الخد بثمرة التفاح والورد ، فإن زاد تفصيله بخصوص تدق العبارة عنه ، ويتعرف بفضل تأمل ازداد الأمر قوة فى اقتضاء الفكرة وذلك مثل قول الشاعر :

كأن على أنيابها كل سُحرة صياح البوازى من صريف اللوائك

فأنه أرفع طبقة من قول امرىء القيس :

كأن صليل المرو حين تُشِذُّه صليل زيوف يُنتقدن بعبقراً [١]

لأن التفصيل والخصوص فى صوت البازى أبين وأظهر منه فى صليل الزيوف [٢] .

٢ — الشيء مع ما يناسبه أقرب حضوراً منه مع مالا يناسبه .

فإن هناك مناسبة بين طرفى التشبيه ، فإن هذا التناسب من شأنه أن

(١) المرو : الحجارة البيض الرقاق ، وتشذه : تنحيه .
(٢) أسرار البلاغة — ١٣٠ — مواهب الفتاح — ٣ — ٤٥٥

يخطر فى الذهن الأشياء المتقاربة فى الصفات ، لأنها من واد واحد، والطيور على أشكالها تقع كما قال الشاعر .

فإذا استحضر الخيال بعضها حضر غيره تبعا له بلا كلفة ولا مشقة ، لوضوح وجه الشبه الذى يقضى بسرعة الانتقال من أحد المتشابهين إلى الآخر ، كتشبيه العنبة السوداء الكبيرة بالإجّاصة [١] فى الشكل والمقدار واللون ، والجزرة الكبيرة بالفجلة فى الشكل والمقدار .

وهذه القاعدة خاضعة لما يسميه علماء النفس : « تداعى المعانى » وهو ارتباط بين خاطرين يستدعى حضور أحدهما فى الذهن عند حضور الآخر به ، ويسمى المعنى الداعى بالمقدم والمدعو بالتالى .

وذلك أنه لا توجد فى العقل حقيقة منفردة ليس لها اتصال بغيرها من الحقائق ، ولا يلج الحواس شىء من غير أن يربط نفسه بحقيقة سابقة أو يذكر بمعنى قديم .

ومن عادة المعانى أن يدعو بعضها بعضا وتتآزر وتلتئم .

والنشاط العقلى فى أى لحظة زمنية ، هو حلقة من سلسلة متصلة هى مجرى شعور الإنسان الذى يبدأ منذ ولادته وينتهى بنهاية حياته ، فهو وحدة مستمرة وإن كانت دائمة التغير ، إذ أننا لو تأملنا فى حلقة من هذه السلسلة : أى ما يحتويه الشعور فى لحظة ما لوجدناها متصلة بالوحدة الشعورية السابقة لها ، كما أنها بدورها ذات شأن فى تعيين الحلقة التى تأتى بعدها .

وهذه العمليات الشعورية أو العقلية تستمر فى غير انقطاع ، حتى فى

---

(١) الإجاصة : البرقوقة .

أثناء النوم وإن كان نشاطها وقتئذ فى أحط درجاته [١] .

ويرى الفيلسوف « هربارت » أن قوة دموج المدركات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية ، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم ، كذلك المعانى بتلك القوة تتآخى وتتآزر ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معا فى مادة معنوية يسيغها الذهن ويمتصها المخ ، كما تمتص الإسفنجة الماء وتتوقف عليها الحياة .

ومن المعروف أن لتداعى المعانى جوامع كثيرة ، أهمها فى موضوعنا هذا جامع التشابه ، كأن تكون بين الصورتين العقليتين شىء من التماثل يستدعى إحداهما إلى الحضور فى الذهن ، وكلما عظم التشابه قويت الرابطة بين المعنيين وأسرع أحدهما للاتصال بأخيه [٢] .

٣ — كثرة تكرار المشبه به على الحس ودورانه على الفكر فى كل الأوقات أوجلها تثبت صورته فى النفس وتجعله سريع الخطور بالبال ، لأن من عادة النفس أن تنتقل بسرعة إلى ما ألفته وأنست به قبل غيره لما بينهما من علاقة قديمة ، وهكذا يلحق التشبيه الابتذال .

فمثلا تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة فى الاستدارة والإستنارة لايخلو من التفصيل ، ولكن كثرة شهود المرآة وتكررها على الحس أوجب ابتذالها ، لأن كل شبه يرجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن تحس أبداً، فالتشبيه المعقود عليها نازل مبتذل ، وما كان بالضد من هذا وفى الغاية القصوى من مخالفته ، فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع .

ثم تتفاضل التشبيهات التى تجىء واسطة لهذين الطرفين بحسب حالها منهما ، فما كان منها إلى الطرف الأول أقرب فهو أدنى وأنزل ، وما كان

---

(١) مبادىء علم النفس التعليمي — ٩٤ .

(٢) علم النفس وآثاره فى التربية والتعليم — ١٤٧ إلى ١٥٠ — الغرائز — ٩٤ — ٩٥ علم النفس الأدبى — ٣٩ إلى ٤٢ — علم النفس التعليمى — ١٣٢

إلى الطرف الثانى أذهب ، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريب أجدر .

٤ — استحضار الأمر الواحد أيسر من استحضار غير الواحد ، وهذا الأصل له علاقة بالأصل الأول بالتفصيل والإجمال ، ومن هنا كانت وحدة الجهة بين الطرفين تسقط التشبيه عن درجة الاعتبار كتشبيه الزنجى بالفحم ، لأن المتعدد صعب الاستحضار بخلاف الواحد الداعى إلى القرب .

ومما يلاحظ أن قدامة [١] يؤمن بقرب التشبيه الذى يدنى إلى الاتحاد بين الطرفين .

ولهذا رأيناه يعد قول امرىء القيس :

له أيطلاظبى وساقا نعـــامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفلُ

من أحسن التشبيهات .

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هى بعينها ، وأفعال بأفعال هى هى أيضاً بعينها إلا أنها من حيوان مختلف .

والأمر كما قال فى قرب التشبيه إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشىء ، وإنما حُسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك كما قال الأشجعى :

كأن أزيز الكير إرزام شخبها إذا امتاحها فى محلب الحى ماتح

فشبه ضرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء البعيدة .

ولو كان الوجه ماقال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعى ضرع عنزه بضرع بقرة حتى تتناسب أو خِلف ناقة ، لأنه إنما أراد كبره وكثرة مافيه من اللبن ، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذى دل به على أعظم ما يكون من كبر الضرع وكثرة لبنه [٢] .

---

(١) نقد الشعر — ٦٥ — ٦٨ (٢) العمدة — ١ — ٩٧

الفصل الثالث عشر

قيمة التشبيه البعيد الغريب

للتشبيه البعيد الغريب فى النفس وقع شاج يتغلغل إلى قرارتها ، ويهز أعمق أوتارها ، ويلمس مكان الطرب والاستحسان منها ، لأنه هبط عليها من أفق عال لاتستطيع أن ترتفع إليه بقوتها الذاتية ، وأطل عليها من نافذة سحرية لم تكن تترقب أن تطالعه منها .

والنفس مجبولة على أن تهش لمثل هذا العزيز النادر الذى ترى فيه اتساعا لمداركها ، وتوشية لخيالها ، وامتدادا لصلتها بالكائنات ، وترويحاً لكدها ولغوبها ، وهد هدة لهمها وانقباضها ، برؤية الصور الجميلة المونقة من أثقال الحياة وأوزار العيش .

ثم هى إلى ذلك تشعر بما يشعر به الصائد عند الظفر بصيد ثمين بعد طول المصابرة وإنفاد الجهد ؛ فإن سروره بمالم يكن يقع فى حسابه لايعدله إلا طول الحنين إلى نيله ، وفرط الصبابة بالحصول عليه ، ومقاساة اللوعة فى ترقب اقتناصه ، ولولا تفاوت الكلام فى دقة معناه ولطف ترتيبه وملاحة تركيبه واحتياج العقول إلى هتك أستاره عن أسراره الخفية ، لما كان لكلام فضل على كلام ، ولتساوى فى الفضل جميع الأنام ، ورحم الله الجاحظ إذ يقول : وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ، ولذة السبع بلطع[1] الدم وأكل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان قرعه .

---

(١) لطع الدم . شربه .

وفى هذا يقول القطامى :

وهن يَنبِذن من قول يُصبن به	مواقع الماء من ذى الغُلة الصادى

ويقول ابن الزيات فى أبى تمام :

رأيتك سمح البيع سهلا وإنما	يُغالَى إذا ما ضنَّ بالشىء بائعهْ
فأما إذا هانت بضائع بيعه	فيوشك أن تبقى عليه بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب ورده	ويفسد منه أن تباح مشاربه

ويقول العسكرى :

بقدر الصبابة عند المغيب	تكون المسرة عند الحضور
وأطيب ما كان برد الثغور	إذا هو صادف حر الصدور

ويقول ابن وكيع :

قالوا عشقت كثير التيه ممتنعا	فقلت هيهات عنكم غاب أطيبه
لو جاد هان وقلت الجود غايته	وإنما عزَّ لما عــزَّ مطلبه

ويقول آخر :

لولا اطِّراد الصيد لم تك لذة	فتطاردى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أخو الشباب وماله	من لذة حتى يصيب غليلا

وما نقرؤه فى تاريخ الأدب من تهلل الخلفاء والملوك والأمراء لسماع بيت من الشعر لشاعر غواص على المعانى الدقيقة ، رسام للصور المبتكرة ، نسّاج للديباجة الفاخرة ، فيزحف بعضهم عن دستة آونة ، ويجلس من اتكاء مرة، ويقوم من قعود أخرى ، وينادى بعضهم : أحشوافاه دراهما ، إنما هو الطرب لهذا البزّ النفيس يجلبه الشاعر من سوقه إلى سوقهم ، والانبهار

---

(١) ينبذن . يرمين .

بهذه القدرة على استنزال المعانى النافرة العصية من سمائه إلى أرضهم ، والبهجة بهذا التوفيق الخارق فى التأليف بين أشياء يرونها بعيدة كل البعد ، ويراها قريبة كل القرب .

إن ما يميز الفنان العظيم هو إحساسه الأصيل بالأشياء ، وهذه الأصالة لا ترجع إلى الإدراك الأسهل والأرهف والأسرع ، ولكن إلى الفكر الأوسع المنظم المملوء بالفلسفة ، وإلى قوة الاستقراء والتعميم التى تجعله يستخرج من الشيء المدرك كل المعانى المبهمة الغامضة التى كان يحويها .

لذلك كانت عظمة العباقرة كما يلاحظ ، رسكن ، تظهر فى طريقتهم فى النظر إلى التفاصيل .

إنهم فى نفس الوقت الذى يدركون فيه الطابع المميز للشيء يدركون جميع ملامح الجمال التى يشترك فيها هذا الشيء مع مراتب من الوجود أعلى وأرفع ، أفليس هذا الإدراك للتشابه الكلى فى الاختلاف الكلى هو بعينه ما كان يطلق عليه ، ليبنتس ، اسم الإحساس الفلسفى الحقيقى [١] .

ألست ترى السحر عيانا بيانا فى قول ابن طباطبا يهجو على بن رستم :

أنت أعطيت من دلائل رسل الله آيا بهـا علوت الرءوسا
جئت فرداً بلا أب وبيمنا ك بياض فأنت عيسى وموسى

فقد رماه بأنه دعيٌ وهو أفحش ما يهجى به إنسان، وعيره بالبرص وهو أخبث الأدواء المنفرة المعضلة . ثم غاص غوصة فى أغوار الفكر خرج بعدها بدرة فائقة لا تقع إلا للآحاد فى الزمن المتطاول ، وهى تشبيهه بنبيين من طواويس الأنبياء ، خصا بمعجزات باهرة خرقت العوائد ! فكيف أتيح لهذا الشاعر أن يلعب بعقولنا ويلهو بعواطفنا ، فيلبس الذم فى أبشع شياته لباس المدح فى أبهى سماته ! فهل حام فى خيالك — وأنت تقرأ البيت الأول

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ١٤٢ .

أن الشاعر يتخلص منه إلى هذا المعنى العجيب: هجاء إنسان أشد الهجاء، بانه نبي من الأنبياء !

وأنت ترى كل يوم الصلعان من الناس — ولعلك واحد منهم — وتشاهد كيف يتحيَّف الصلع شعورهم تدريجا فيمتد بياض جباههم على مدى الأيام ، وينقص سواد رءوسهم شيئا فشيئا ، ولكن هل أتيح لك أن ترسم هذه الصورة التي رسمها ابن الرومي :

يجذب من نقرته طُرَّة ... إلى مدى يقصر عن نيله
فوجهه يأخذ من رأسه ... أخذ نهار الصيف من ليله

واسمع قوله أيضاً يشبه القوادة بالمقص :

تسعى لكي تجمع وسطيها ... كأنها مسمار مِقراض

فهل يمكن أن توصف القوادة بأبلغ وأدق وأوضح وأوجز من هذا المعنى ! مسمار مقراض يضم وسطين !

أليست هذه الصورة من نوادر ما يقذفه الشيطان على ألسنة الشعراء أحيانا !

قد كان مبلغ الشعراء أن يشبهوا القوادة بالخمر في تيسيرها عسر النساء كما يقول بعضهم .

لقد لقَّبوا الراح بالعجوز وما ... تخرج ألفاظهم عن العادهْ
ألانت الغادة التي امتنعت ... فصح أن العجوز قواده

ولكن أين هذا المعنى من ذاك ! أين سنبلة الأرض من سنبلة السماء !

وقد أكثر الشعراء من وصف الخال فأحسنوا وأجادوا ، ولكن هل استطاعوا مجتمعين أن يقولوا فيه مثل قول ابن حمديس :

ياسالبا قمر السماء جماله ... ألبستني للحزن ثوب سمائه
أضرمت قلبي فارتمى بشرارة ... وقعت بخدك فانطفت في مائه

ما الذى يقوله هذا الشاعر ؟ .

يقول : إن محبه سعَّر قلبه ناراً ، فطارت منه شرارة وقعت على خده الغض البض ، فانطفأت فى مائه ، فاستحالت فوقه نقطة سوداء !

وهل تلد النار غير الرماد ، وهل يسلم من يلعب بالنار من أن يحرقه الشرار ؟! .

ألست ترى أن الشاعر قد أبدع فى جمعه بين الماء والنار ، وأنه علل فأحسن التعليل !

ثم انظر إلى قول المتنبي :

كأن الهام فى الهيجا عيون   وقد طبعت سيوفك من رقاد

شبه الرءوس فى الحرب بالعيون ، والسيوف بالرقاد ، والرقاد لاينزل عادة إلا العيون كما قال عبد المطلب بن هاشم :

كالنوم ليس له مأوى سوى المقل .

فكذلك هذه السيوف لا تجد محيداً عن الهام ، فلا تنزل إلا فيها .

ولا توصف السيوف فى إصابة المقاتل بأبرع من هذا .

وليس كل شاعر يستطيع أن يأتى بهذا المعنى الدقيق اللطيف ، بل إن هذا المعنى فى فهمه محوج إلى فكر دقيق لطيف .

ولكن مامدى هذا البعد ؟

أهو الاستغلاق والغموض بسبب الوحشية والغرابة والمعاظلة وهو التعقيد اللفظى ؟

أهو تعسر الانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى المراد من اللفظ ، وهو المسمى بالتعقيد المعنوى ؟

أهو عدم التلاؤم بين الطرفين فيدفع أحدهما فى قفا الآخر ويصك وجهه وينادى بالبراءة منه ؟

إن هناك بعدا يرجع إلى عمق المعانى وخصبها واكتنازها وطرافتها وترتيب بعضها على بعض ، ودقة المسلك فى التقاط الشبه من نواح تعز على غير الفكر اللماح والنظر النافذ . فترى الصلة بين الطرفين واضحة وضوح الشىء المتعين فى مكانه . ولكنك مع هذا تؤمن بأنها صلة غريبة لأنها لم تكن تخطر لك على بال ، وكيف لا تكون غريبة وأنت ترى الشيئين المختلفين وضعا موضع المؤتلفين !

وهذا الحسن تجده فى الألوان أيضا ، فلا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود ، وهذه هى العلة فى حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة ولهذا جاء قول الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيض   والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا   والضد يظهر حسنه الضد[1]

وهناك بعد أقرب من القرب ، ولكنه اختفى فى ظلام دامس من رداءة الصنعة . وسوء النسج ، ووهن الربط ، وفساد المقايسة ، فآفته من معرضه الذى نص فيه ، وصورته التى تقمصها .

ومع هذا يجب أن يكون معروفا أن هذا البعد المحمود الذى نعنيه ، ليس هو الإفراط فى التدقيق حتى تأتى بما يجهد ذهن الخاصة ويسمو على متناول أفهامهم، فالشأن ــ كما يقول عبد القاهر ــ : إنى لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب وإنما أردت القدر الذى يحتاج إليه فى نحو قوله :

فإن المسك بعض دم الغزال

(١) سر الفصاحة ــ ٦٠ ــ ٦١

فأنت تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعانى كالجوهرة فى الصدف لا تبرز لك إلا أن تشقه عنها ، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه ، ثم ما كل فكر يهتدى إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه ، ولا كل خاطر يؤذن له فى الوصول إليه ، وما كل أحد يفلح فى شق الصدفة ويكون فى ذلك من أهل المعرفة ، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له.[1]

ومذهب عبد القادر هذا لا يزال هو المذهب السائد حتى عصرنا الحاضر. فهذا الدكتور طه حسين باشا يقول : كنت أقرأ فى كتاب « لبول فاريرى » عن « مالارميه » . فإذا بيول فاريرى عندما أراد أن يحدد الشعر يقول : إن الشعر هو الكلام الذى يراد به أن يحتمل من المعانى ومن الموسيقى أكثر مما يحتمل الكلام العادى .

والشاعر المجيد حقا يمتاز من غير المجيد : بأنه إذا تحدث إليك لم يمكنك أن تسير معه كما تسير مع نفسك . وإنما يضطرك أن تفكر وأن تجهد نفسك فى أن تفهمه وتحسه وتشعر معه ، فأبو تمام هذا هو الشاعر الذى يأتيك بأشياء لا تكاد تسمعها حتى تأخذك الدهشة . وإذا أنت قد خرجت عن طورك واضطررت إلى أن تفكر مع الشاعر وإلى أن تسير معه .[2]

وقد كشف عبد القاهر عن هذا البعد وبيّن حدوده وقيوده بقوله : واعلم أنى لست أقول لك : إنك متى ألّفت الشيء ببعيد عنه فى الجنس على الجملة ، فقد أصبت وأحسنت . ولكن أقول بعد تقييد وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين فى الجنس وفى ظاهر الأمر شبها صحيحا معقولا ، وتجد للملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهبا وإليهما سبيلا ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس فى وضوح اختلافهما

(١) أسرار البلاغة — ١١٠ — ١١١ (٢) من حديث الشعر والنثر — ١٥٧

من حيث العين والحس، فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لايتصور فلا . لأنك تكون فى ذلك بمنزلة الصانع الأخرق يصنع فى تأليفه وصوغه الشكل بين شكلين لايلائمانه ولا يقبلانه حتى تخرج الصورة مضطربة ويجيء فيها نتوء ، ويكون للعين من تفاوتها نبو ، ولم أرد بقولى : إن الحذق فى إيجاد الائتلاف بين المختلفات فى الأجناس ، أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل فى العقل ، وإنما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك إليها ، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ، ولذلك يشبه المدقق فى المعانى بالغائص على الدرر . [١]

فمثلا قول جرير فى الأخطل :

والتغلبى جنازة الشيطان

من البعيد المرغوب عنه لغموض معناه حتى عدوه من العى كما يقول المرزبانى [٢] .

وكذ قول أبى نواس :

وإذا ما الماء واقعها أظهرت شكلا من الغزل

لؤلؤات ينحدرن بها كانحدار الذّر من جبل

شبه الحبب فى انحداره بنمل صغار تنحدر من جبل ، وهذا من البعد على غاية لايحتاج إلى بيان وإيضاح [٣] .

وقول بعض الشعراء :

ملا حاجبيك الشيب حتى كأنه ظباء جرى منها سنيح وبارح

فالتشبيه فى غاية البعد لفقد الملائمة بين طرفيه ، فأى علاقة بين شيب الحواجب ، وبين الظباء التى يجرى بعضها يمينا وبعضها شمالا !

---

(١) أسرار البلاغة ــ ١٢٠ ــ ١٢١ .
(٢) الموشح ــ ١١٨ (٣) المثل السائر ــ ١٦٤ (٣) ثمار القلوب ــ ٣٩

ولكن انظر كيف شبه إسحاق الموصلى أباريق الخمر بالظباء فأجاد التشبيه فى قوله :

كأن أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم تخلق لهن عظام

فهذا من البعيد القريب معاً .

ثم انظر إلى البعيد المخترع فى قول ابن الرومى :

مديحى عصى موسى وذلك أننى ضربت به بحر الندى فتضحضحا
فياليت شعرى إن ضربت به الصّفا أيبعث لى منه جداول سُيَّحا
كتلك التى أبدت ثرى الأرض يابسا وأبدت عيوناً فى الحجارة سُفَّحا
سأمدح بعض الباخلين لعله إن اطرد المقياس أن يتسمّحا

قال الثعالبى : ولولم يفترع غير هذا المعنى البكر لكان أشعر الناس ، إذ شبه مدحه بعصا موسى التى ضرب بها البحر ، فيبس وضرب بها الحجر فانبجس ، وذلك أن ابن الرومى مدح جوادا فبخل ، فقال سأمدح بخيلا فلعله أن يجود على هذا القياس .

سبب البعد .

قدمنا أن البعد والغرابة فى التشبيه ترجع إلى خفاء وجه الشبه فى بادىء الرأى ، فيحتاج الأمر إلى إمعان وتدبر فى استخراج ما يكمل به القصد .

وهذا الخفاء يرجع إلى أشياء كثيرة :

١ — كثرة التفصيل فى وجه الشبه ، وهو أن يكون أمورا كثيرة بعيدا كل منها عن الآخر فى الخيال كما فى تشبيه سقط الزند بعين الديك فى الشكل واللون ، وكتشبيه الإنسان بالخنفساء فى اللجاج .

وكقول الراجز — [١] وهو من بديع ما قيل فى انقلاب الشمس عند الغروب [٢] — :

صب عليه قانص لمـــا غفل   والشمس كالمرآة فى كف الأشل

وفى رواية :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل   لمـــا رأيتها فوق الجبـــل

وهو يشبه الشمس بذلك عند طلوعها [٣] .

والشبه على كل حال يصلح للشمس فى حالى الشروق والغروب .

وجه الشبه : الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق ، والحركة السريعة المتصلة مع تموج الإشراق واضطرابه بسبب تلك الحركة ، حتى يرى الشعاع كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانب الدائرة ، ثم يبدو له فيرجع من الانبساط الذى تراه إلى انقباض كأنه يجمعه من جوانب الدائرة إلى الوسط ، فالشمس إذا أحد الإنسان النظر إليها ليتبين جرمها وجدها مؤدية إلى هذه الهيئة ، وكذلك المرآة فى كف الأشلّ .

ومثله عند العسكرى قول أبى النجم

وصارت الشمس كعين الأحول

ومن ذلك قول المعوج الشاعر فى معناه :

كأن شعاع الشمس فى كل غدوة   على ورق الأشجار أول طالع

دنانير فى كف الأشل يضمها   لقبض فتهوى من فروج الأصابع

وهو مأخوذ من قول أبى الطيب :

وألقى الشرق منهـــا فى ثيابى   دنانيراً تفرّ من البنان

(١) اختلف فيه فقيل : الشماخ أو ابن أخته أو ابن المعتز أو أبو النجم . معاهد التنصيص — ١ — ١٤٤ .   (٢) ديوان المعانى — ١ — ٣٥٩

(٣) بغية الإيضاح للأستاذ عبد المتعال الصعيدى — ٣ — ٢٤

(٤) الشرق : الشمس .

وقول القاضي الفاضل :

والشمس من بين الأرائك قد حكت   سيفاً صقيلاً في يد رعشاء

وقول التّلعفري :

أفدي الذي زارني في الليل مستتراً   أحلى من الأمن عند الخائف الدهش
ولاحت الشمس تحكي عند مطلعها   مرآة تبر بدت في كف مرتعش

وقول إدريس بن اليماني العبدي :

وكأن النجم حين بدا   درهم في كف مرتعش

ونقله بعضهم إلى معنى آخر فقال في الخمر :

كانت سراج أناس يهتدون بها   في سالف الدهر قبل النار والنور
تهتز في الكأس من ضعف ومن هرم   كأنها قبس في كف مقرور

٢ — ندرة حصول المشبه به في الذهن إما عند حضور المشبه لبعد المناسبة بينهما كما مر في تشبيه البنفسج بنار الكبريت .

وإما مطلقا : أي بصرف النظر عن حضور المشبه ، لكونه مركباً خيالياً كالنارنجة وشمس من عقيق في سماء زبرجد ، أو وهمياً كأنياب الأغوال ، أو عقلياً كاليهود والحمار يحمل الأسفار .

وقد تكون الندرة لقلة تكرره على الحس كما سبق .

وذهب الخطيب : إلى أن ندرة حضور المشبه في الذهن موجبة للغرابة على الإطلاق ولو كان الوجه جليا لا تفصيل فيه ، وقد يكون الإجمال حينا أبلغ من التفصيل لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب كما سبق في باب الإيجاز (١) .

---

(١) عروس الأفراح ـ ٣ ـ ٤٧١

أنواع التفصيل .

وأنواع التفصيل فى وجه الشبه الموجبة للغرابة له كثيرة العدد ، وقد ذكر الدسوقى : أنها تبلغ اثنى عشر نوعا [١] .

وذكر عبد القاهر : أن القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف ، وإلا فدقائقه لاتكاد تضبط [٢] .

وأعرف هذه الأنواع ثلاثة :

١ — أن تأخذ بعض الأوصاف وتدع بعضها الآخر كقول امرىء القيس :

حملت ردينيا كأن سنانه   سنا لهب لم يتصل بدخان

. فإن الشاعر عمد إلى تفصيل دقيق جميل لا يمكن أن يسنح بديهة فى الخاطر من غير تفكير ولا تروية ، فهو قد عرف بعد التثبت والموازنة بين الأصل والفرع أن سنان الرمح لا يشبه اللهب على إطلاقه ، لأن اللهب لا ينفك عن دخان يخالطه ، فرأى أن ذلك يقدح فى حقيقة التشبيه ويثلم كماله . وإذن فلا مناص من استثناء الدخان ونفيه عن السنان ، لأنه لا يوجد فى رأسه ما يشبهه وبذلك تم التشبيه من غير عيب لحقه .

وإنك لتحس الفرق واضحاً بين البيت المتقدم وبين قول عنترة العبسى : يصف حملة ورد بن حابس على نضلة الأسدى :

يتابع لا يبتغى غـــيره   بأبيض كالقبس الملتهب

مع أن المشبه به واحد فيهما وهو شعلة النار ، لأن الأول فصّل حين استثنى الدخان ، والثانى أجمل بترك الاستثناء .

ومثل قول امرىء القيس قول السرى الرفاء يصف الخمر :

كأن الشّرب يتهبون ناراً   لها لهب وليس لها دخان

---

(١) حاشية الدسوقى — ٣ — ٤٥٣   (٢) أسرار البلاغة — ١٣٥ .

وقول النميرى :

أهدى لنا بَرَدا يلوح كأنه ⁂ فى الجو حبّ لآلىء لم يثقب
أو ثغر حوّاء اللّثات تبسمت ⁂ عن واضح مثل الأقاحى أشنب

وهذا النوع يسمى « الإيغال » فى علم المعانى ، وهو أن يستوفى الكلام معناه قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى المقطع فيضيف إليه معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا حسناً .

ومن ذلك أيضاً قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ⁂ وأرحلنا الجَزع الذى لم يثقَّب

فقد أتى على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع ، وهو خرز يمنى صينى فيه سواد وبياض تشَّبه به الأعين .

ثم لما أتى بالقافية أوغل بها فى الوصف وجوّده وأكّده بقوله : لم يثقب وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه لأن عيون الوحش غير مثقبة .

وقول زهير من معلقته :

كأن فُتات العهن فى كل منزل ⁂ نزلن به حَبُّ الفنا لم يحطم

فالعهن : الصوف الأحمر ، والفنا : حب أحمر تنبته الأرض وإذا كسر أبيضَّ ، فاستظهر فى القافية لما أن جاء بها بأن قال : لم يحطم .

فأكد التشبيه بإيغاله فى المعنى .

وقد سئل الأصمعى من أشعر الناس ؟

قال : من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، وإلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافيه فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى نحو قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل ⁂ رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء قبل المسلسل ، ثم قال : المسلسل فزاد شيئاً .

وقوله :

أظن الذى يجدى عليك سؤالها   دموعا كتبديد الجمان المفصّل

فتم كلامه بالجمان ، ثم قال : المفصل ، فزاد شيئاً (١) .

ومن ذلك قول حسان :

كأن ريحهم فى الناس إذ خرجوا   ريح الكلاب إذا ما مسّها المطر

فاستوفى المعنى عند قوله : ريح الكلاب .

ثم قال : إذا ماسها المطر فجاء بتتميم حسن . (٢)

والكلاب تزداد رائحتها خبثا بالبلل ، قال الشاعر :

يزداد نتّنا على المديح كما   يزداد نتن الكلاب بالمطر

٢ — أن يكون التفصيل بالنظر إلى خاصة فى بعض الجنس كالتى تجدها فى صوت البازى وعين الديك حين تشبه صوت الناقة بالأول والخمر الصافية بالثانية، فليس كل صوت يشبه صوت البازى لأن له صرصرة متميزة يعرف بها ، وليست كل حمـــرة كحمرة عين الديك ، لأن حمرتهـا رقيقة ناصعة . وسوادها صاف براق .

٣ — أن يكون التفصيل بأخذ الأوصاف جميعها التى يتألف منها التركيب فى المعنى ، فتنظر إليها فى المشبه على جهة التّقصى ثم تطلبها فى المشبه به كذلك حتى تعثر على وجه الشبه كاملا كقول ابن وكيع التنيسى فى البلح :

أما ترى النخل طارحا بلحا   جاء بشيرا بدولة الرطب

كأنه والعيون تنظره   إذا بدا زهره على القضب

مكاحل من زمرد خرطت   مقمّعات الرءوس بالذهب

فهو قد نظر من البلح إلى الحجم والقدّ والهيئة واللون الجزئى، ثم قصدله

(١) الصناعتين — ٣٧٠ — العمدة — ٢ — ٤٦   (٢) ديوان المعانى — ٢ — ٤٦

مثالا فوجده فى المكاحل المخروطة من الزمرد المقمعات الرءوس بالذهب بخلاف قول عبد الصمد فيه .

كأنه فى ناضر الأغصان زمرد لاح على تيجان

فإنه لم ينظر لغير الاشتراك فى اللون الأخضر .

وقد مرت بك أمثال كثيرة من هذا النوع فى مراعاة وجه الشبه .

كثرة التفصيل أفضل .

ويتفاوت التفصيل فى الأفضلية فما نظر فيه إلى ثلاثة أشياء أو ثلاث جهات أفضل مما نظر فيه إلى شيئين أو جهتين ، وما نظر فيه إلى شيئين أو جهتين أفضل مما نظر فيه إلى شىء واحد أو جهة واحدة .

وذلك كقول الناجم :

خذها مشعشعة قهوة تصب على الليل ثوب النهار
ويسبلها الخد جريالهـــا فتهديه للعين يوم الخمار

وقول العسكرى :

شقائق كمناظر المخمور وأقحوان كثغور الحور
ونرجس كأنجم الديجور

فذكر الأول حمرة العين عند الخمار فقط ، وأما الثانى ، فشبه ما يعترى بياض العين والحماليق من الحمرة عند الخمار مع سواد الحدقة بحمرة الشقائق ، فاعتبر عدة أشياء فى الطرفين .

وقول بعضهم فى الرمان :

لله رمانة من فوق دوحتها مثالها ببديع الحسن منعوت
فالقشر حُق نضار ضُمَّ داخله والشحم قطن له والحب ياقوت

وقال آخر :

رمانة صبغ الزمان أديمها فتبسّمت فى خضرة الأفنان

فكأنما هى حُقّة من صندل قد أودعت خرزا من المرجان

فالأول راعى أربعة أشياء وهى حق من الذهب مضموم الداخل ، والشحم المشبه بالقطن ، والحب المشبه بالياقوت .

والثانى راعى شيئين فقط ، وهما حقة الصندل والحب المرجانى .

وقول ابن هانىء الأندلسى :

كأن عمود الصبح خاقان عسكر من الترك نادى بالنجاشىّ فاستخفى

وقول حازم الأندلسى :

كأن بياض الصبح معصم غادة جنت يدها أزهار زُهر الدجى لَقطا

فالأول اقتصر على ذكر البياض المتمثل فى خاقان الترك ، وذكر السواد المتمثل فى نجاشى الحبشة ، وكأنه قال : إن بياضا صاح بالسواد فاختفى ، على أن تشبيه الصبح والليل بالخاقان والنجاشى مطروق .

أما الثانى فقد تصرف وأكثر من التفصيل ، فبياض الصبح معصم غادة ، والدجى حديقة أزهارها النجوم ، وكف الغادة البيضاء تنحى على هذه الأزهار فتلقطها واحدة بعد أخرى ، وهو المناسب لطلوع الصبح وأفول النجوم ؛ لأنها لا تختفى مرة واحدة ، بل تزول مع الظلام شيئا فشيئا لا كما يفيده قول ابن هانىء .

ومن الاستقصاء فى التفصيل قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نُطير غرابا ذا قوادم جون

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضا ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث يلى معظم الصبح وعموده لمع نور يتخيل منها فى العين كشكل قوادم إذا كانت بيضاء .

وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر ، وهو أنه جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستعجلها ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها .

ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه أخيراً ، فقال: تطير غرابا ولم يقل غراب يطير مثلا ، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعا به هادئاً فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه ، أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أسرع لطيرانه وأعجل وأمد له وأبعد لأمده ؛ فإن تلك الفزعة التى تعرض له من تنفيره أو الفرحة التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته مما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول وألا يسرع فى طيرانه بل يمشى على هينة ، ويتحرك حركة غير المستعجل .

وجملة القول أنك ما زدت فى التشبيه على مراعاة وصف واحد وجهة واحدة ، فقد دخلت فى التفصيل والتركيب وفتحت باب التفاصيل ثم تختلط المنازل فى الفضل بحسب الصورة فى استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد (١) .

(١) أسرار البلاغة ـ ١٤٣ ـ ١٤٥

الفصل الرابع عشر

رفع الابتذال عن التشبيه

ليس الابتذال مما يصحب التشبيه دائما وأبدا كالأمراض المعضلة التى تستعصى على الطب ، ولكنه سقم طارىء يمكن علاجه ، فنى قدرة البليغ الحاذق أن يضفى على التشبيهات المبتذلة معارض من نسجه الموشى أو أشعة من خياله الفضفاض ، أو يتصرف فيها نوعا من التصرف بنقلها من جهة إلى أخرى ، أو يضيف إليها نكتة بيانية ، فينقلها من ذل الابتذال إلى عز الصيانة ، ومن ضعة القرب إلى شرف البعد .

ووسائل ذلك كثيرة منها :

١ — أن يأتى بالتشبيه مطويا أو مشارا إليه كقول الناجم :

طالبت من شرّد نومى وذعَرْ بقبلة تُحسن فى القلب الأثرْ

فقال لى مستعجلا وما انتظر ليس لغير العين حظ فى القمر

فهو يسوى نفسه بالقمر فى أن المتعة به مقصورة على العين فقط ، فجاء بالتشبيه ضمنيا لاشتراكهما فى هذه الصفة فأثبت له ضمنا أنه قمر ، وبذلك أخرج التشبيه عن دائرة الابتذال ، لأن التشبيه بالقمر لاكته الألسن من القديم .

ويقول ابن بسام فى قول ابن دراج القسطلى :

حتى بدا الصبح مشمطًّا ذوائبه يطارد الليل موشيّاً أكارعه

الأكارع : الأطراف .

أصاب فى الإشارة إلى التشبيه لأنه أومأ إلى أن الصبح كالثور الوحشى

وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض وأكارعها موشية خاصة [١] .

ويقول الشهاب الخفاجي فى « الإيماء [٢] » : وهو إما إيماء الى التشبيه كقوله :

جاءوا بمَذق هل رأيت الذئب قط

أو إيماء إلى غيره .

وكنت قبل هذا سميته طيف الخيال ، وهو أن يرتسم فى لوح فكرك معنى صورته يد الخيال فتصبه فى قالب المتحقق ، وترمز إليه بجعل روادفه وآثاره محسوسة ادعاء ، كما أن ما يلقى إلى المتخيلة فى المنام يرى كذلك . ولا يلزم من ابتنائه على الكناية والتشبيه أن يعد منهما لأمر ما يدريه من له خبرة بالبديع .

وفى كتاب الإشارة لابن عبد السلام : من المجاز تنزيل المتوهم منزلة المتحقق .

ومن أمثاله قول المنازى [٣] :

وقانا لفحة الرمضاء واد　　　سقاه مُضاعَف الغيث العميم

نزلنا دَوْحه لحَنى علينا　　　حنوَّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا　　　ألذ من المدامة للنديم

يصدّ الشمس أنى واجهتنا　　　فيحجبها ويأذن للنسيم

يروع حصاه حالية العذارى　　　فتلمس جانب العقد النظيم

شبه الحصى بالدر ضمنا .

وقول المعرى فى درعياته :

إن رهـا ظمآن فى مَهْمه　　　يسألك منها جرعة للفم

---

(١) الذخيرة ـ ١ ـ ٦٩　　(٢) طراز المجالس ـ ٤

(٣) الصحيح أنه لحمدونة الأندلسية كما حققه أبو جعفر الأندلسى . خزانة الأدب للحموى ٨٣ ـ ٨٤ .

وقوله :

وقد أهوت إلى درعى لميس ... لتملأ من جوانبها الإداوه[١]

شبه الدرع بالماء فى صفائها ولألائها ضمنا .

وقول غالب الحجام فى مليح يلعب بتفاحة :

عاينته وبكفه تفاحة ... قد أُلبست من وجنتيه بُرْدها

يرمى بها فى وجهه ويظنها ... من خده سقطت فيبغى ردها

شبه التفاح بالخد ضمنا والتشبيه مقلوب .

وقول البديع :

إذا اقتنصت منه خراسانُ لفظه ... أماطت نساء الحى در المخانق

أى استغنت النساء بدر لفظه عن در عقودها .

ومن بدائع هذا النوع :

قول المتنبى :

رأت وجه من أهوى بليل عواذلى ... فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر

وقوله :

ولما التقينا والنوى ورقيبنا ... غفولان عنا ظَلت أبكى وتبسِم

فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها ... ولم تر قبلى ميتا يتكلم

وقول الثعالبى :

وكأن بابل أصبحت فى جفنه ... وكأنما الأهواز فى شفتيه

يومى، إلى أن جفنه ساحر ، لأن بابل موطن « هاروت » و « ماروت » ملكى السحر .

وإلى أن ريقه حلو كالسكر ، لأن الأهواز معروفة بالسكر .

(١) الإداوة : أداة التطهر .

وقد ذكر المرزبانى (١) : أنه مما وقع كالإيماء قول الفرزدق :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتاب المنزل

وتأويل الشعر : أن بيت جرير فى العرب كالبيت الواهى الضعيف .
وقوله : قضى عليك به الكتاب المنزل : يريد قول الله — عز وجل — :
« وإن أوهن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وقول آخر :

يرومون بى غير المكان الذى له   خلقت وبعضى منكر ذاك من بعضى
فقولوا لبدر التم يترك سماءه   ويحتل من أجل التواضع فى الأرض

وقول آخر :

وحديث إذا سمعناه لم ند   ر بخمر نضحتنا أم بشهد
أنفت من براقع الخز والقز   م خدود قد برقعوها بورد

وقول آخر :

لا آكل التفاح دهرى ولو   جنته كفى من جنان الخلود
تالله لا أتركه عن قلًى   لكننى أتركه للخدود

وقول آخر :

رصدت غفلة الرقيب فزارت   تحت ليل مطرَّز بنهار
فتعجبت من سُراها فقالت   غير مستَطرف سرى الأقمار

وقول ابن منير :

لا تخدعنك وجنة محمرةٌ   رقت ففى الياقوت طبع الجَلمَد

وقول الإسعِردى :

قد كدت أحرق خده يوم النوى   بتنفّس لو لم يكن ياقوتا

---

(١) الوشح — ١٠٢ .

وقول ابن زيدون :

لا يَهنأ الشامت المرتاح خاطره   أنى معنًى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة   أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب   قد يُودع الجفن حدُّ الصارم الذكر

وقول أبى تمام :

أبا القاسم المحمود إن ذكر الحمد   وقيت الرزايا ما تروح وما تغدو
فإن تك قد نالتك أطراف وعكة   فلا عجب أن يُوعك الأسد الورد
بنا لا بك الشكوى وليس بضائر   إذا صح نصل السيف ما لقىَ الغمد

وقول شوقى :

هام الفؤاد بشـــادن   ألف الدلال على المدى
أبكى فيضحك ثغره   والكِمُّ يفتحه الندى

الكم بالكسر : كأس الزهرة يريد : أن فمه كالزهرة .

ومن نوادر المطوى ما كتب به ابن مطروح إلى البهاء زهـير يستهديه ورقا ومداداً : [١]

أفلست ياسيدى من الورق   فابعث بدَرج كعرضك اليَقَق [٢]
وإن أتى بالمداد مقترنا   فرحبا بالخدود والحدق

يشير إلى أن الورق كالخدود والحبر كالحدق .

فسيرّ إليه البهاء ما طلب وكتب معه :

مولاى سيّرت ما رسمت به   وهو يسير المداد والورق

---

(١) ديوان البهاء زهير ـ ١٤١

(٢) اليقق بفتحتين : الشديد البياض ؛ يقال : أبيض يقق ، وأحمر قانىء وأصفر فاقع ، وأسود حالك ، وأخضر ناضر ، وأزرق غامق ، ويقال : ناصع الجميع .

وعزَّ عندى تسيير ذاك وقد شبَّهته بالخدود والحدق

وقد أفاض عبد القاهر فى قيمة التشبيه المطوى وأثره فى رفعة شأن التشبيه المبتذل، وخلع أشعة الحسن عليه حتى كأنه شىء جديد !

يقول . . . . من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء ، وبالبدر فى النور والبهاء ، وبالصبح فى الظهور والجلاء ، ونفى الالتباس والخفاء .

وذلك فى المشترك العامى والظاهر الجلى . . . . فإذا ما ركِّب عليه معنى ووصلت به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح ، فقد صار ـ بما غير من طريقته ، واستؤنف من صورته ، واستجد له من المعرض ، وكسى من ذلك التعرض ـ داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك بالفكرة والتعمل ، ويتوصل إليه بالتدبير والتأمل ، وذلك كقولهم — وهم يريدون التشبيه — : سلبن الظباء العيون ، كقول بعض العرب .

سلبن ظباء ذى بقر طُلاها ونُجلَ الأعين البقر الصُّوارا (١)

وقوله :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى نداك فقاسته بمــا فيها

وقوله :

لم تلق هذا الوجه شمسُ نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وقوله :

واهتز فى ورق الصِّبا فتحيرت حركاتها غصن البانة الأملود

وقوله :

فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله

إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما لديه لأمسى حاتما وهو عاذله

---

(١) الطلا : الأعناق جمع طلية بالضم ، والصوار ككتاب وغراب : القطيع من البقر .

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ، ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه ، وأتيت به من طريق الخلابة والسحر فى مسلك السحر ومذهب التخييل ، فصار لذلك غريب الشكل ، بديع الفن ، منيع الجانب لايدين لكل أحد .

وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه والحالة التى تراها تنفى الاشتراك وتأباه ، إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف .... فهو إذا قال : سرقن الظباء العيون فقد أوهم أن ثمّ سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم — إذا نظرت — أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر [١] .

٢ — أن يشترط فى تمام التشبيه وجود وصف لم يكن ، أو انتفاء وصف كان ولو ادعاء ، أو بعبارة أخرى . أن يقيد المشبه أو المشبه به أو كلاهما بشرط وجودى أو عدمى يدل عليه بصريح اللفظ أو سياق الكلام ، بشرط أن يكون ذلك على وجه دقيق .

ويسمى هذا التشبيه : التشبيه المشروط .

وذلك كقول أعرابى :

ألا حبذا البرد الذى تلبَسينه ... وياحبذا مَن باعك البردَ من تَجْر
فلو كنت ماء كنت ماء غمامة ... ولو كنت دُرا كنت من درة بِكر
ولو كنت لهوا كنت تعليلَ ساعة ... ولو كنت نوما كنت إغفاءة الفجر
ولو كنت ليلا كنت قراءَ جُنّبت ... نحوسَ ليالى الشهر أو ليلةَ القدر

وقال رجل يهجو :

لو كنت ريحا كانت الدبورا ... أو كنت غيما لم يكن مطيرا

(١) أسرار البلاغة — ٢٧٧ إلى ٢٨٩ .

أو كنت ماء لم يكن طهورا　　أو كنت مخا كنت مخارِيرا (١)
أوكنت بَرداً كنت زمهريرا

وقول آخر :

لو كنت ماء لم تكن بعذب　　أو كنت سيفا كنت غير عضب
أو كنت لحما كنت لحم كلب　　أو كنت عَيْراً كنت غير نَدب (٢)

وقال رجل من بنى تميم :

لو كنتم ماء لكنتم زبداً ، أو كنتم لحما لكنتم غُدداً ، أو كنتم غنما لكنتم نقَداً (٣) .

وقال عوف بن محلِّم :

وصغيرة عُلِّقتهـــا　　كانت من الفتن الكبار
كالبـــدر إلا أنها　　تبقى على ضوء النهار

وقال ابن الرومى يصف إنسانا بكثرة الأكل :

شبه عصا موسى ولكنه　　لم يخلق الله له فاها
رفقا بزاد القوم لاتفنه　　يا ناقة الله وسقياها

وقال المتنبي :

لو كنت عصرا منبتا زهَرا　　كنت الربيع وكانت الوردا

وقوله :

لو كنت بحرا لم يكن لك ساحل　　أو كنت غيثا ضاق عنك اللُّوح (٤)

وقال المعتمد بن عباد فى أبيه :

سَميذع يهب الآلاف مبتدئا　　وبعد ذلك يُلفى وهو معتذر

(١) الرير والرار : الرقيق الفاسد .　　(٢) الندب : الجسور .
(٣) النقد بفتحتين : صغار الغنم .　　(٤) اللوح بالضم : الجو .

له يد كل جبار يقبلها   لولا نداها لقلنا إنها الحجر(١)

وقال سيف الدين بن جبارة فى الأهرام :

لله أى غريبة وعجيبة   فى صنعة الأهرام للألباب
أخفت عن الأسماء قصة أهلها   ونضت عن الإبداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة   من غير ما عمد ولا أطناب

وقال ابن سناء الملك :

نعم هى سعدى وهى لى قمر سعد   وصال ولا صد وقرب ولا بعد
يعانقها من دونىَ العقد وحده   فيا عجبًا ياقوم هل يعشَق العقد
هى البـــدر إلا أنه كله سنا   هى الغصن إلا أنه كله ورد
ولو أبصر النّظام جوهر ثغرها   لما شك فيه أنه الجوهر الفرد

ولشاعر فى نارَنجة :

يارُب نارجة يلهو النديم بها   كأنها كرة من أحمر الذهب
أو جذوة حملتها كف قابسها   لكنها جذوة معـــدومة اللهب

وقال آخر :

هو البحر إلا أنه عذب مورد   وذا عجب أن العذوبة فى البحر

وقول البارودى :

قد أشبهتنى فى الهوى لكنها   لم تحكنى فى لوعتى وشقائى

وقال :

طَرف لو ان الظُّبا كانت كلحظته   يوم الكريهة ماأبقت على وَدج

وقال شوقى من أندلسية :

والنيل يقُبل كالدنيا إذا احتفلت   لو كان فيهـــا وفاء للمصافينا

---

(١) الحجر : الحجر الأسود .

والسعد لو دام والنعمى لو اطّردت والسيل لو عفّ والمقدار لو دِينا

وقال بعض العصريين فى القرآن الكريم :

وكل فاصلة منه منغمة لولا الجلال لقلنا جَرسها وتر

ومن هذا النوع قول البحترى :

كالبدر إلا أنها لا تجتلى والشمس إلا أنها لا تغرب

وقد قال فيه الآمدى : المعنى أن عيون الناس كلهم ترى البدر وتجتليه وهى لا تراها العيون ولا تجتلى، وإنما قال: لا تجتلى لأنها محجوبة، فإذا كانت فى حجاب فهى فى غروب، لأن الشمس إذا غربت إنما تدخل تحت حجاب.

فظاهر المعنى أنها كالبدر إلا أن العيون لا تراها ، وكالشمس إلا أن العيون لا تفقدها .

وهذا القول متناقض كما ترى .

قال الشريف المرتضى : وما المخطىء غير الآمدى .

ومراد البحترى بقوله أوضح من أن يذهب على متأمل ، لأنه أراد بقوله — والشمس إلا أنها لا تغرب — أى إنها لا تصير حيث تتعذر رؤيتها وتمتنع كما تتعذر رؤية الشمس على من غربت عن أفق بلده ، والمرأة وإن احتجبت باختيارها، فإن ذلك ليس بغروب كغروب الشمس لأنها إذا شاءت ظهرت وبرزت للعيون ؛ والشمس إذا غربت فرؤيتها غير ممكنة ، ولهذا لا يصح أن يقال فيمن استظل بدار أو جدار عن الشمس : إنها غربت عنه وإن كان غير راء لها ، لأن رؤيتها ممكنة بزوال ذلك المانع ، ولا كذلك القول فى احتجاب المرأة فلا تناقض فى بيت البحترى على ما ظنه الآمدى .

ولبعضهم فى هذا المعنى :

قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا ما فيك يا بدر لى من وجهها خلف

تبدى لنا كلما شئنا محاسنها وأنت تنقص أحيانا وتنكسف

فمعنى قوله :ـ وأنت تنقص وتنكسف ـ جارمجرى غروب الشمس لأنه فضلها على البدر من حيث كان بروزها لمبصرها موقوفا على اختيارها ، والبدر ينقص وينكسف على وجه لا تمكن رؤيته ، كما فضلها البحترى بأنها لا تغرب حتى تصير رؤيتها مستحيلة والشمس كذلك [١] .

٣ ـ أن يكون الشعراء [٢] قدلزموا طريقة واحدة من تشبيه شيء بشيء ، فيأتى الشاعر من تشبيه بغير الطريق التى أخذ فيها عامة الشعراء .

من أمثال ذلك أن أكثر الشعراء يشبهون الخوذ بالبَيض كما قال سلامة ابن جندل .

كأن نعاما باض فوق رءوسهم

وقوله : كأن نعام الدَّوِّ باض عليهم [٣]

وأكثر الشعراء يلتزمون هذا التشبيه .

وجاء أبو شجاع الأزدى فقال :

هل أر إلا الخيل تعدو كأنما سَنَوَّرهافوق الرءوس الكواكب [٤]

فشبهها بالكواكب .

وربما كان الشعراء يأخذون فى تشبيه شيء بشيء والشبه بين الشيئين من جهة ما ، فيأتى شاعر آخر فى تشبيه من جهة أخرى فيكون ذلك تصرفا أيضاً ، مثال ذلك أن جل الشعراء يشبهون الدرع بالغدير الذى تصفقه الرياح والغرض من ذلك الشكل ، وذلك أن الريح تفعل بالماء فى تركيبها إياه بعضا على بعض ما يشبهه فى حال التشكيل .

فقال سلامة بن جندل عادلا عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللين .

---

(١) أمالى المرتضى ـ ٤ ـ ١٠ ـ ١٢

(٢) نقد الشعراء ـ ٦٩ (٣) الدو : الفلاة الواسعة .

(٤) السنور : جملة السلاح .

وذلك أن اللين من جودة الدرع لصغر قتيرها ، ورءوس المسامير ، وحلقها .

فألقوا لنا أرسان كل نجيبة وسابغة كأنها متن خرنق

فشبهها فى لينها بظهر الأرنب .

وقال يذكر بريقها وهو وجه غير الوجهين الأولين :

مداخلة من نسج داود سكها كمنكب ضاح من عماية مشرق(١)

وكقول شهاب الدين الظاهرى :

رأت شيبتى قالت عجيب مع الصبا مشيبك هذا صفه لى بحياتى

فقلت لها ماذاك شيب وإنما سناك بقلبى لاح فى وجناتى

فقد جرت العادة ألا ينكر الشاعر الشيب وإنما يترف به مكرها ، ويأخذ فى تحسينه وتحبيبه إلى المحبوب وإن كان موقنا بأنه لا يحسن ولا يحب !

إذا كان شيبى بغيضاً إلىّ فكيف يكون إليها حبيبا

ولكن هكذا رسمهم فى ذلك وسنتهم من القديم ، والأمثلة على هذا يخطئها العد ، وحسبنا قول بعض العصريين .

عجبى للحسان يزهدن فى الشيب م وما الشيب غير هالة نور

قلت يا « نُعم » لا تُراعى لشيبى إنه حلية الحليم الوقور

ناسب الأوجهَ الرّقاق بياضا وحكى وَمضه رفيف الثغور

هو كالدر فى نحور الرعابيب م وكالنّور فى حفاف الغدير

ولكن شهاب الدين الظاهرى لم يسلك هذا الطريق المسلوك ، فيقر بالشيب ثم ينبرى لوصفه بأجمل الأوصاف لعل ذلك يغطى على عيبه ، ولكن جحده أصلا وادعى أن هذا البياض نور الحبيبة قرّ فى قلبه وتألق فى عارضيه .

وذلك كما ترى نهج طريف مستملح وقد سلكه البهاء زهير أيضا فقال :

وليس مشيبا ماترون بعارضى فلا تمنعونى أن أهيم وأطربا

(١) عماية : جبل .

فما هو إلا نور ثغر لثمته   تعلّق فى أطراف شعرى فألهبا
وأعجبنى التجنيس بينى وبينه   فلما تبدى أشنبا رحت أشيبا

وقد سلك أبو تمام مسلكا وسطا ، فقد اعترف بالشيب ثم انتقل إلى ما يشبه الإنكار فى قوله :

ولا يروِّعك إيماض القتير به   فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب[١]

وأحسب أنه أول من فتح الباب للشعراء فى ذلك المعنى .

وجاء ابن المعتز فقال :

قالت كبرت وشبت قلت لها   هذا غبار وقائع الدهر

وكقول الخالدى يصف النجوم :

كأنما أنجم السماء لمن   يرمقها والظلام منطبق
مال بخيل يظل يجمعه   من كل وجه فليس يفترق

فقد جرى الرسم على تشبيهها بالمصابيح والدرر وأزهار النرجس إلى غير ذلك، ولـكن الخالدى افترع طريقة لا تمت بصلة إلى طرائقهم فجاء بتشبيه بكر غريب .

٥ — أن يقلب التشبيه ، أو يجمع بين عدة تشبيهات فى بيت واحد سواء أتعدد الطرفان أو أحدهما .

وقد سبق الكلام على ذلك بالتفصيل

٦ — أن يتصرف فيه بنوع من التصرف وهو أمر لا تحصى شعبه ، كقول الحلاوى الموصلى فى وصف رسالة :

كتبت فلولا أن هذا محلل   وذاك حرام قست لفظك بالسحر
فوالله ما أدرى أزهر خميـــلة   بطرسك أم در يلوح على نحر

---

(١) القتير : الشيب .

فإن كان زهراً فهو صنع سحابة　　وإن كان درا فهو من لجة البحر

فتشبيه اللفظ الحسن بالزهر والدر مبتذل، لكنه لما قيد الزهر بأنه زهر خميلة ، والدر بأنه يلوح على نحر .

ثم ضم إليه سر الحسن فى الزهر وهو أنه صنع سحابة ، وسر الحسن فى الدر وهو أنه من لجة البحر ارتفع شأنه ، وخرج بذلك من الابتذال إلى الغرابة .

وقول ابن المعتز :

لنعم، أحاديث عذاب لو أنها　　جنى النحل لم يمجج حلاوتها النحل

والناس كلهم يشبهون حلاوة الحديث بحلاوة العسل ، وهو قد انفرد بهذه الزيادة التى لا شك أنها ترفع الابتذال عن التشبيه .

وقول الوزير المغربى يصف خفقان القلب :

كأن قلبى إذا عنّ ادكاركم　　ظل اللواء عليه الريح تخترق

وفى مثله يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة :

أبكيتمو عينى دما لفراقكم　　فكأنما إنسانها مجروح
وكأن قلبى حين يخطر ذكركم　　لهب الضرام تعاورته الريح

فالأول اقتصر على تشبيه خفقان القلب ، والثانى شبه القلب المشوق باللهب فى حرارته ، وشبه خفقانه باضطراب اللهيب حين تختلف عليه الريح بالهبوب فزاد عليه زيادة بينة .

وقول عمر بن أبى ربيعة :

بينما ينعتننى أبصرننى　　مثل قيد الرمح يعدو بى الأغر (١)
قالت الكبرى ترى من ذا الفتى　　قالت الوسطى لها هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها　　قد عرفناه وهل يخفى القمر !

(١) الأغر : يريد فرسه .

وفى هذه الأبيات ألوان شائقة من البلاغة يحسن بيانها ، وإن كان الشاهد فى البيت الأخير .

فأولا تدل هذه الأبيات على حذق عمر بوضع الكلام فى مواضعه كما يقتضيها الإعراب .

فإن القوافى جميعها لو أطلقت من عقال النظم لكانت مرفوعة ، فلو أن قائلا قال : إن عمر كان يعرف قواعد النحو لم يبعد !

وذلك أمارة السليقة العربية الأصيلة .

وثانياً أنه يتضمن بلاغة نفسية عميقة تدل على معرفة هذا الشاعر الغزل بأخلاق النساء وأهوائهن واختلافهن فى التصريح والإخفاء على حسب أسنانهن وعقولهن ، ولعل ذلك كان سبباً فى شغف النساء به وانعطافهن نحوه .

فقد ذكر أولا ما يفهم منه أن الكبرى لم تكن رأته من قبل ، وأنها كانت تهواه على السماع — والأذن تعشق قبل العين أحيانا — وأنها كانت تود رؤيته فلما أتيحت لها الرؤية لم تتمالك أن أظهرت من الكلف به ما دعاها إلى التحفى فى المسألة عنه ، سالكة فى ذلك أسلوب تجاهل العارف الذى يتضمن شدة الوله وعمق الصبابة ؛ لأن عقلها بحكم سنها وإحكام التجارب لها ، وقدرتها على ستر ميولها وكبت عواطفها ، يمنعها من التصريح باسم من تحب .

ثم ثنى بأن الوسطى قد سارعت إلى تعريفه بالاسم العلم ، فكانت دون الكبرى فى التوقر والثبات . وهو ما يقضى به سنها وقلة ممارستها لتجارب الزمن وشئون الغرام .

ثم ثلث بأن بين أن الصغرى كثيرة التعلق به كبيرة الانجذاب إليه ، حتى إنها شبهته بالقمر الذى يشبه به كل بالغ الغاية فى الحسن والجمال ، فلم يبق ريب فى أنها تحبه وتهيم به .

وتصريحها بهذا الحب الذى جمجم به أختاها يلائم سنها ويوائم عقلها .

فالصغيرات تغلب عليهن الغرارة والبراءة ، فلا يستطعن أن يكتمن شيئا عما يجول بخواطرهن ويحوك فى صدورهن .

وذكر عمر شغف الصغرى به ، ووصفها له بالصباحة والملاحة ، يريد منه أن يعبر بدلالة الالتزام على أنه فتىّ السن ، ريق الصبا ، جديد سربال الشباب لأن الكواعب النواشىء النواعم الدل لا يمنحن حبهن إلا لمن كان فى مثل سنهن ، ولله أبو تمام حيث يقول :

أحلى الرجال من النساء مواقعا   من كان أشبههم بهن خدودا

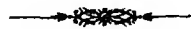
ومن بدائع البيت الأخير : أن التشبيه بالقمر لم يجر على الطريقة الساذجة السائدة التى نصل لونها وبلى ثوبها ، فأصبحت مبتذلة مملولة ، ولكنه أخرج مخرج المثل مع اتساق الوزن له ، فزاده عذوبة ورشاقة وحسنا .

ومن ذلك قول ابن المستوفى الإربلى :

رأت قمر السماء فأذكرتنى   ليالىَ وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرا ولكن   رأيت بعينها ورأت بعينى

وفى تفسير البيت اختلفت المذاهب ، وقد قال فيه ابن حجلة : وللناس عليه كلام ، ولهم على فهمه زحام ، حتى إن بعضهم وضع فيه كتابا .

وأحسن ماقيل فيه : أنه كان ناظراً إليها وهى كانت ناظرة إلى قمر السماء ، فاستعار عينها لنظره واستعار عينه لنظرها ، وبهذا النظر المستعار للطرفين ينقلب الوضع ، فيصير قمر السماء قمراً مجازياً ، ووجهها قمراً على الحقيقة .



الفصل الخامس عشر

انتزاع التشبيه

يستطيع البليغ أن يجد مجالا رحبا لانتزاع صور التشبيه من مظاهر الطبيعة ، ومجالى الصناعة ، ومسائل العلوم ، وعادات المجتمع ، إلى غير ذلك مما يقع تحت بصره ، أو يطرق سمعه ، أويحوك فى صدره ، أويجول بخاطره ولا سيما إذا كان غزير المعرفة ، ثاقب الفكر ، واسع الخيال ، نافذالبصيرة ، بعيد النظر ، دقيق الملاحظة .

ونحن إذا تأملنا وجوه التشبيهات المختلفة من رؤى حسية ، أومعان عقلية ، أو صور خيالية ، أو نبضات وجدانية ، وجدنا أنها أشياء التقطت من هذا الخضم الزاخر ، والمضطَرب الواسع الذى نعيش فيه بأجسامنا وأفكارنا ومشاعرنا .

فهذا الكون بسمائه وما أظلّت ، وأرضه وما أقلّت ، كتاب ضخم مفتوح للنظر المتوسم ، والفكر المروِّى ، والعقل المتأمل القادر على الانتفاع بهذه الثروة الضخمة .

ومن هنا كانت كثرة الأسفار ، ومعاناة الأحداث ، وممارسة التجارب ، والاختلاط بالناس ، والانغماس فى غمار المجتمع ، والتزود من الثقافات المنوعة ، مما يعين على استنباط التشبيه الصائب العميق الدقيق .

وكلما امتدت الفتوحات العلمية ، وتعددت روافد الفكر ، وانبسطت رقعة الحضارة ، كثرت المنادح أمام البلغاء لصوغ صور البيان الأنيق ، والتفنن فى تنويعها وتلوينها .

مصادر الانتزاع .

ومصادر الانتزاع لا يمكن حصرها ؛ لأن كل ما يحيط بالأديب اللماح الذكاء، المستوعب النظر، كنوز من المعانى السَّرية لا تنفد على إنفاق .

بل كثيراً مايستفيد الفطن من كلام الحشوة والعامة والدهماء، ولا يرى فى ذلك غضاضة ولا معابة عملا بالأثر الشريف «الحكمة ضالة المؤمن ينشدُها حيث يجدها» .

يحدِّث ابن الأثير[1] : أن بعض العبيد الأحابيش الذين لا يستطيعون تقويم صنع الألفاظ فضلا عما وراء ذلك وذاك، رأى صبيا فى يده طاقة ريحان، فقال : هذه طاقة آس تحمل طاقة ريحان !

فلما سمعت ذلك منه أخذتنى هزة العجب ؛ وذكرت شعر أبى نواس الذى تواصفه الناس فى هذا المعنى، وهو قوله :

وردة جاء بها شادن فى كفه اليمنى لحيَّانا
سبحت ربى حين أبصرتها ريحانة تحمل ريحانا

ويذكر أنه سأل بعض أغتام[2] الأعجام عن حاله - وكانت النكبات قد توالت عليه - فكان جوابه : لم يبق عندى ارتياع لوقوع نائبة من النوائب .

وهو معنى قول الشاعر :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وقول المتنبى :

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

(١) الأغتم : الذى لا يفصح. (٢) المثل السائر - ٢٢ - ٢٣

وأنه سمع امرأة توفى ولدها البكر تقول : كيف لا أحزن لذهابه ، وهو أول درهم وقع فى الكيس !

ولا يستحى ابن الأثير أن يصرح : بأنه أخذ هذا المعنى وأودعه كتاب تعزية إلى بعض الإخوان — وقد توفى ولده الأول — فقال : وهو أول درهم ادخرته فى كيس الادخار ، وأعددته لحوادث الليل والنهار .

ويذكرون : أن أبا تمام حين قال صدر بيته المشهور :

وأحسن من نور تُفتقه الصَّبا

وقف يردده وإذا سائل يسأل على الباب ويقول : مِن بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا .

فقال أبو تمام — متمما البيت — :

بياض العطايا فى سواد المطالب

وفى أخبار أبي نواس : أنه شاهد نصرانيا من العامة يرتكب بعض الفواحش فى خربة من الخربات ، فأخذ أبو نواس يلومه ويعنفه ، فقال له الرجل : يا أبا نواس ، لا تلمنى فإن لومك يحبب لى أن أعود إلى مثلها .

فأخذ أبو نواس هذا المعنى وقال :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وفى أخبار المعتمد بن عباد أنه فى بعض خروجه للتنزه رأى ثمرة تين قد أدركت ، فسدد إليها عصا كانت فى يده فأصابها وثبتت فى أعلاها ، فأطربه ما رأى من حسنها وثباتها ، فقال لابن حاج — وكان صباغا — أجز :

كأنها فوق العصا

فأجابه مسرعا :

هامة زنجى عصا

فزاد طربه وسروره وأمر له بجائزة سنية [1] .

(١) بدائع البدائه ـ٦٦ ـ ٦٧

هذا قليل من كثير مما يسوقونه دليلا على أن المعارف قد تستفاد من غير أهلها، وتستخرج من غير معدنها.

وقد كان ابن الخشاب البغدادي يتفقده طلبة العلم، فيجدونه واقفا على حلقات القُصَّاص والمشعبذين، وقد ليم على ذلك — وهو من أئمة العلم — فقال: لو علمتم ما أعلم لما لمتم، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة، ففي ضمن هذيانهم تجرى معان غريبة لطيفة، لو أردت أنا أو غيري أن نأتي بمثلها لما استطعنا ذلك، وقديما قالوا: رب رمية من غير رام.

وصفوة القول: أن علماء البيان نظروا إلى التشبيه من جهة الصورة والشكل واللون والهيئة، ومن جهة ما يدخل تحت الحواس، ومن جهة الغريزة والطباع إلى غير ذلك، وكان أساسهم في كل هذا هو الاسترشاد بما يعمله العقل من انتزاع الصورة الجديدة من شيء واحد، أو من عدة أشياء يجمع بعضها إلى بعض (١).

وقد يكون الانتزاع من قصة دينية أو اجتماعية، كقول المتنبي يرثي محمد بن إسحق التنوخي:

كفل الثناء له برد حياته   لما انطوى فكأنه منشور
وكأنما عيسى بن مريم ذكرُه   وكأن عاذَر شخصه المقبور

يشير إلى قصة إحياء المسيح — عليه السلام — لعاذر بعد موته بإذن الله.

وقول ابن الحجاج الكاتب:

قد أذنب القوم وأُلزمته   كأنهم أولاد يعقوب
إذ جعلوا يوسف في جبِّة   وأوقعوا الذنب على الذيب

---

(١) الأصول الفنية للأدب — ١٢٨

وذنب يوسف يضرب مثلا لمن يرى بذنب جناه غيره وهو برىء الساحة منه .

ومثله قول أبى الشيص :

وقائلة وقد بُصرت بدمع   على الخدين منهمر سكوب
أتكذب فى البكاء وأنت خِلو   قديما ما جسَرت على الذنوب
جفونك والدموع تجول فيها   وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف حين جاءوا   على لَبَّاته بدم كذوب
فقلت لها فداك أبى وأمى   رَجمت لسوء ظنك بالغيوب

وقول بشار فى أبى مخلَد :

أبا مخلَد ما زلت سبَّاح غَمرة   صغيراً فلما شِبتَ خيمت بالشاطى
كِسنّور عبدالله بيع بدرهم   صغيراً فلما شبَّ بيع بقيراط

وسنور عبد الله يضرب مثلا لمن يكون مرجواً فى صغره ، فإذا كبر تراجع ولم يفلح .

وقبله قال الفرزدق فى هذا المعنى :

رأيت الناس يزدادون يوما   فيوما فى الجميل وأنت تنقُص
كمثل الهر فى صـــغر يُغالى   به حتى إذا ما شب ينقُص

والعامة تقول عندنا : كالعبيد كلما كبروا صغروا .

على أن ابن خلكان يقول : قد كشفت عن سنور عبدالله بالمظان ، وسألت أهل المعرفة بهذا الشأن فما عرف الخبر عن ذلك ولا عثرت له على أثر .

ويقول : ثم ظفرت بقول الفرزدق السابق ، ومن هنا أخذ بشار قوله

وليس المراد هراً بعينه بل هراً يكون له قيمة في صغره وينقص منها في كبره [١] .

ويخيل إلى أن بشاراً لم ينسب السنور إلى من اسمه « عبدالله » اعتباطا ، بل لا بد أن يكون هناك هر له حكاية يعلمها بشار ولم يتوصل ابن خلكان إلى معرفتها ، وإلا فمامعنى نسبته إلى عبد الله بالذات ، في حين أنه كان قادراً أن يأتي به خلواً من النسبة كما فعل الفرزدق ولا يقع في هذا الحشو المعيب !

وقول شاعر في قواد :

من ذم إدريس في قيادته فإنني شاكر لإدريس
مَنْ بمستصعب فجاء به أطوع من آدم لإبليس
وكان في سرعة المجيء به آصف في حمل عرش بلقيس

إشارة إلى قصة سليمان — عليه السلام — مع بلقيس ملكة سبأ ، وإحضار وزيره آصف لعرشها منكراً كما جاء في القصص الديني .

وقول شوقي في الدستور :

يوم الخميس وراء فجرك للهدى صبح وللحـــق المبين نهار
أقبلت بالدستور أبلج زاهرا يفتنُّ في قَسماته النظار
يحمى لفائفه ويحرس مهده شيخ يذود وفتية أنصار
فكأنه عيسى الهدى في مهده وكأن سعداً يوسف النجار

إشارة إلى قصة مريم — عليها السلام — وميلاد عيسى من غير أب .
ويوسف النجار كان خطيب مريم قبل حملها بالمسيح .

وقوله من أندلسية :

بتنا فلم نخل من رَوح يراوحنا من برّ مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفُلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا

(١) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٠٧

إشارة إلى قصة موسى — عليه السلام — وهو طفل حين رمته أمه فى اليم خوفا عليه من بطش فرعون .

وقول محمود غنيم فى وصف الراديو :

كأنما كل أذن أذن سارية وكل ناء ينادى نائيا عمــــر

إشارة إلى قصة عمر وسارية بن زُنَيم ونداؤه له ـ وهو على منبر المدينة ـ: يا سارية الجبل .

وكان سارية بنهاوند ببلاد الفرس يغزو ، وقد اجتمع العدو بالجبل .

أو من مسائل دينية كقول بشار :

فؤادى فيك مجنون ولو أستطيع كَبَّلتُهُ
وأنت الحجر الأسود لو يخلو لقبّلته

وقول كشاجم :

فديت زائرة فى العيد واصلة لمستهام بها للوصل منتظر
فلم يزل خدها ركناً ألوذ به والخال فى صحنه يغنى عن الحجر

وقول سراقة الأندلسى :

وصاحب كالزلال يمحو صفاؤه الشك باليقين
لم يحص إلا الجميل منى كأنه كاتب اليمين

وهو عكس ما قاله المنازى :

وصاحب خلته خليلا وما جرى غدره ببالى
لم يحص إلا القبيح منى كأنه كاتب الشمال

إشارة إلى ملكى الحسنات والسيئات : « رقيب » وعتيد »

وقول التنوخى فى النيلوفر :

فكأنه فى الماء صاحب مُذهَب أغراه وَسواس بأن لم يَطهر(١)

---

(١) المذهب بضم الميم وفتح الهاء وكسرها : شيطان الوضوء .

وقول أبي تمام في مالك بن طوق — وقد حجبه — :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طالما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فأدخلها

وقول السري الرفاء :

عجب الناس كيف ضعت ومثلي بفناء الأمير ليس يُضاع
قلت إذ أعوز الشفيع وأعيا الإذن م فيما أروم والإستماع
هذه جنة الخلود ومالي من حميم ولا شفيع يطاع

أو من حقائق التاريخ والسير كالذي أنشده أبو أحمد العسكري :

ليس له ما خلا اسمَه نسب كأنه آدم أبو البشر

وقول الضرير القزويني :

وصاحب لي بطنُه كالهاويه كأن في أمعائه معاويه

وكان معاوية — ض — رغيب البطن منهوما بالطعام .

وقول ابن المعتز :

فكأن الهوى امرؤ علوىّ ظن أني وَلِيت قتل الحسين
وكأني لديه نجل زياد فهو يختار أوجع القِتلتين

إشارة إلى قتل الحسين — عليه السلام — في عهد تولية عبيد الله بن زياد على العراق .

ومثله قول شوقي :

ظمئت ومثلي برى أحق كأني حسين ودهري يزيد

وقول أبي مسهر الكاتب في بعض العراقيين :

حار في الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب في زياد

(١) معرضة : ظاهرة .

فدع عنك الكتابة لست منها ولو أغرقت ثوبك فى المداد

إشارة إلى استلحاق معاوية زياداً بأبيه أبى سفيان ، وإثبات نسبه فى بنى أمية .

وقول ابن الرومى فى صياد :

تستأنس الطير إلى قوسه كأنها محراب داود

وقد قيل : إن داودَ — عليه السلام — لحلاوة نغمته كانت الوحش والطير تعكف عليه إذا قام فى محرابه يقرأ الزبور .

وقول العرجى فى وصف بنية :

كأنها غير أن الإنس ترفعها مما بنت لسليمان الشياطين

وقول البحترى فى بركة المتوكل :

كأن جن سليمان الذين وَلوا إبداعها فأدقّوا فى معانيها

وقول صبرى فى الأهرام :

كأنها والعوادى فى جوانبها صرعى بناء شياطين لشيطان

وهو أبلغ من سابقيه لأنه زاد عليهم بأنها تصرع الحوادث بقوة بنائها وإحكامها .

وقول شاعر كوفى :

بكت دار بشر شجوها أن تبدّلت هلال بن قَعقاع ببشر بن غالب

وما هى إلا كالعروس تنقّلت على رغمها من هاشم فى محارب

والتاريخ يحدثنا أن العرب كانت ترمى بالخسة بعض القبائل مثل محارب وسلول وجَرم وباهلة وعاملة .

وقول شاعر :

وتُركىِّ نقى الخـد ألمى بقد ماس كالغصن الرطيب

له شعر حكى مجنون ليلى يخط إذا مشى فوق الكثيب

وقد روى عن المجنون أنه فى توحده بالقفار كان يخط بيده على الرمل.

وقول آخر يهجو:

مطبخ داود فى نظافته أشبه شيء بعرش بلقيس
ثياب طباخه إذا اتسخت أنقى بياضا من القراطيس

يرميه بالبخل لأن نظافة المطبخ والطباخ دليل على عدم الطبخ وانقطاع الضيوف.

أو من الاعتقادات الشائعة كقول بعضهم:

لقاؤك للمبكر يوم سوء ووجهك أربعاء لا تدور

والمراد بالأربعاء: أربعاء آخر الشهر وقد ورد أنها نحس.

وقول آخر:

كأن كانوننا سماء والجمر فى وسطه نجوم
ونحن جن بحافتيه والشرر الطائر الرجوم

إشارة إلى الاعتقاد بأن الشهب المتطايرة ترجم بها الشياطين.

وقول ابن شرف فى رأس أسود على رمح:

كأن هامته والرمح يحملها غراب بين على بان النقا نعقا

والناس يتشاءمون بالغراب وبخاصة الأسود ويعدونه نذير الفراق.

أو من عادات الناس والحيوان كقول شاعر فى وهب بن وهب البحترى:

لكل أخى فضل نصيب من العلا ورأس العلا طرا عقيد الندى وهب[1]
وماضر وهبا عيب من جحد الندى كما لا يضر البدر ينبحه الكلب

(١) العقيد: المعاهد والحليف.

ومثله قوله المعرى :

تعاطوا مكانى وقد فتهم   فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحونى فما هجتهم   كما نبح الكلب ضوء القمر

يروون فى معناه : أن الكلب إذا أصابه ألم البرد ورأى ضوء القمر ، توهم أنه يدفىء كما تدفىء الشمس ، فإذا رقد فيه لم يجده دفيئا ، فينبح كأنه يضجر منه ويغضب ، كما ينبح السحاب إذا ضجر من كثرة مطره .

وقال آخرون : إنه كان لامرأة تدعى حومل كلبة كانت تجوّعها ، وأن كلبتها نظرت إلى القمر قد طلع فنبحت تتوهمه رغيفا أو شيئا يؤكل .

قال الخفاجى : وهذا شىء لا يصح له معنى ، والقول الأول أولى .

والتشبيه مثل تعاوره الناس قديما وحديثا ، وهو كعنز أشعب التى ظنت قوس قزح علفا أخضر ، فرمت نفسها عليه فاتت (١) .

وقول أحمد النسفى يهجو رجلا :

ينام إذا ما استيقظ الناس للعلا   فإن جن ليل فهو يقظان حارس
كذلك كلب الناس ينعس يومه   ويسهر طول الليل والليل دامس

ومن عادة الكلب أنه ينام نهاره ويسهر ليله .

وقول ابن لنكك فى أبى رياش :

قل للوضيع أبى رياش لا تُبَل   ته كل تيهك بالولاية والعمل
ما ازددت حين وليت إلا خسة   كالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل

وقول شوقى فى الشمس :

فيالك هرة أكلت بنيها   وما ولدوا وتنتظر الجنينا

---

(١) شفاء الغليل — ١٧١

ويقولون : إن من عادة القطة أن تأكل أولادها إذا اشتد شغفها بهم كما يقول الشاعر :

أما ترى القطة من ودادها　　تأكل ما عز من أولادها

وقول ابن المعتز :

مر بنا تُشرق الطريق به　　فى قَد غصن وحسن تمثال
تخلته والعيون تأخذه　　من كل فج هلال شـــوال

وقد جرت العادة أن تستجلى العيون هلال شوال ليتحققوا من يوم العيد الأصغر .

وقول الأرّجانى :

تقصد أهل الفضل دون الورى　　مصائب الدنيا وآفاتها
كالطير لا يحبس من بينها　　إلا التى تطرب أصواتها

وقول ابن رشيق :

أُحب أخى وإن أعرضت عنه　　وقلّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض　　كما قطبت فى وجه المدام

أو من النواميس الطبيعية كقول العبدى :

ثقلت زجاجات أتتنا فُرَّغا　　حتى إذا ملئت بصِرْف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت　　وكذا الجسوم تخف بالأرواح

ويقولون : إن جسم الميت أثقل منه وهو حى :

وقول ملك بلنسية مروان بن عبد العزيز — وقد نظر إلى لحيته وقد شابت — :

ولما رأيت الشيب أيقنت أنه　　نذير لجسمى بانهدام بنائه
إذا ابيض مخضرُّ النبات فإنه　　دليل على استحصاده وفنائه

وقول الخطيب الإشبيلى :

وكل إلى طبعــه عائد ... وإن صدّه المنع عن قصده
كذا المـاء من بعد إسخانه ... يعود سريعاً إلى برده

وقول قوام الدين الواسطى :

باضطراب الزمان ترتفع الأنذال ... م فيـه حتى يعم البـلاء
وكذا المـاء ساكنا فإذا حرك ... م ثارت من قعره الأقذاء

وقول المعرى :

والخل كالمـاء يبدى لى ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الـكدر

وقول البغدادى النقاش :

إذا وجد الشيخ فى نفسه ... نشاطا فذلك أمر خفى
ألست ترى أن ضوء السرا ... ج له لهب قبل أن ينطفى

وقول ابن طباطبا العلوى :

بأبى الذى نفسى عليه حبيس ... مالى سواه من الأنام أنيس
لا تنـكروا أبداً مقاربتى له ... قلبى حديد وهو مِغناطيس

ومثله قول صفى الدين الحلى :

إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وقول طاهر الجزرى :

محاسنه هيولى كل حسن ... ومِغناطيس أفئدة الرجال[1]

وقول أبى الفتح البستّى :

لئن كسفونا بلا علة ... وفازت قِداحهمُ بالظَّفَر
فقد يكسِف المرءَ مَن دونه ... كما يكسِف الشمسَ جِرمُ القمر

---

(١) الهيولى : أصل الشىء .

وقال شاعر :

أرى الأموال فى اللؤماء تثوى ... وتجتنب الكرام من الرجال
كذاك الدر فى ملح أجاج ... وليس يكون فى عذب زلال

وقول آخر :

إن الجهول تضرنى أخلاقه ... ضررَ السعال لمن به استسقاء

وقول شوقى :

لا تحفلى بجناها أو جنايتها ... الموت بالزّهر مثل الموت بالفَحَم

أو من مصطلحات العلوم والفنون وأسماء الأشياء وما إليها كقول أبى فراس الحمدانى :

تناهض الناس للمعالى ... لما رأوا نحوها نهوضى
تكلّفوا المكرمات كداً ... تكلّف الشعر للعروضى

وقول البرَدْخَت (١) يهجو حفص بن أبى بردة — لعيبه شعر المرقش الأكبر — :

لقد كان فى عينيك ياحفص شاغل ... وأنف كثَيْل العَوْد عما تَتبعّ (٢)
فعينك إقواء وأنفك مُكفأ ... ووجهك إيطاء فأنت المرقّع
تَتَبّع لحنا من كلام مرقش ... وخَلقك مبنى على اللحن أجمع

وقول المتنبى :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة ... أنت البديع الفرد من أبياتها

وقول النفيس القطارسى :

وذى هيئة يزهو بوجه مهندس ... أموت به فى كل يوم وأبعث

---

(١) البردخت : من بنى ضبة ، ومعناه بالفارسية : الفارغ . الشعر والشعراء — ٢ : ٤٤٧ .

(٢) الثيل بفتح الثاء وكسرها : وعاء قضيب البعير أو القضيب نفسه ، والعود . الجمل المسن .

محيط باشكال الملاحة وجهه كأن به إقليدسا يتحدث

وقول أبي علي المهندس :

كأن فؤادي مركز وهمُ له محيط وأهوائي لديه خطوط

وقول ابن مماتي في ثقيل :

حكى نهرين مافى الأرض مَن يحكيهما أبدا
حكى في خلقه « ثورا » وفي أخلاقه « برَدا »

وقد أخذهما من قول بعضهم :

صاهى ابن بشران مدينة جلَّق فكلاهما يوم الفخار فريد
ألفاظه « برَداً » وصورة خلقه « ثور » ونقص العقل منه يزيد

وقول أبي تمام في وصف الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حَبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

وقوله :

مودة ذهب أثمارُها شَبه وهمة جوهر معروفها عرض(١)

وقول ابن الخطيب :

ونقطة قلب أصبحت منشأ الهوى ومن نقطة موهومة ينشأ الخط

وقول ابن شرف في مدح أستاذه علي بن أبي الرجال :

اسم حكاه المسمى في الفعال فقد حاز العليَّين من قول ومن عمل
الماجد السيد الحر الكريم له كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

وقول أبي نصر المنازي :

ولي غـــلام طال في دقة كخط إقليدس لا عَرض له
وقد تناهى عقـــله خفة فصار كالنقطة لا جزء له

(١) الشبه : النحاس الأصفر .

وقول السلامى :

وسطور خيلك إنما ألفاتها　　سمر تنقط بالدماء وتشكل

وقول أبى بكر الإشبيلى :

بدا الهــلال فلما　　بدا نقصت وتما

كأن جسمىَ فعل　　وسحر عينيه لما

وقول أبى إسحاق الكلبى :

من آلة الدست لم يعط الوزير سوى　　تحريك ، لحيته فى حال إيماء

إن الوزير ولا أزر يشد به　　مثل العروض له بحر بلا ماء

وقول آخر :

فلا أكون بينكم عُطاردا　　لقربه من كرة الشمس احترق(١)

وقول ابن جابر يمدح الرسول :

أضفت إلى رحماك نفسى فأصبحت　　ذنوبىَ كالتنوين يستوجب الحذفا

وقول البستى :

عُزلت ولم أذنب ولم أك جانيا　　وهذا لإنصاف الوزير خلاف

حذفت وغيرى مثبت فى مكانه　　كأنىَ نون الجمع حين تضاف

وقوله :

أدرجت فى أثناء نسيانكم　　حتى كأنى ألف الوصل

وقول الشوّاء :

وكنا خمس عشرة فى التئام　　على رغم الحسود بغير آفه

وقد أصبحت تنوينا وأضحى　　حبيبى لا تفارقه الإضافه

وقول القاضى الفاضل :

لى عندكم دَين ولكن هل له　　من طالب وفؤادىَ المرهون

---

(١) عطارد : كوكب سيار وهو أقرب الكواكب إلى الشمس .

فكأننى ألف ولام فى الهوى ... وكأن موعد وصلك التنوين

وقول السراج الوراق :

كم أناديك مفردا علما أر ... فعه عالما بشرط المنادى
وجوابى ملغى يحاكى للولا ... خبرا لو أتى به ما أفادا

وقول الأسمر :

ولرب معنى مستكنّ ... م كالضمير إذا استتر
صمدوا له حتى تجلى ... م عن صباح منتشر

وقوله :

ولا تقف فى مهب الريح ملتويا ... كالواو والياء بل قف وقفة الألف

وقد عاب ابن سنان الخفاجى أمثال هذه الاستعمالات ، فقال : ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ، ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ، والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم ؛ لأن الإنسان إذا خاض فى علم وتكلم فى صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم ، وكلام أصحاب تلك الصناعة ؛ وبهذا شرف كلام أبى عثمان الجاحظ ؛ وذلك أنه إذا كتب لم يعدل عن ألفاظ الكُتّاب ، وإذا صنف فى الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين ، فكأنه فى كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره .

وقال عن شيخه المعرى : إنه كثيراً ما يسلك هذه الطريقة فى كلامه وهى لائقة به ؛ لأنه لم تكن له يد فى صناعة الكتابة ، ولا طريقة محمودة ، وإنما رسائله معدودة فى كتب اللغة ودساتير الأدب ، فاستعمال هذا وما يجرى مجراه فيها لائق .

ومن هذا النوع ما يحكى من أشعار أصحاب المهن واستعمالهم لألفاظ

صناعاتهم ومعانيها فيما ينظمونه أو ينثرونه ، وربما كان ذلك أو بعضه شيئاً يصنع وينسب إليهم [1] .

وقد رد عليه العلوى : بأن هذا فاسد لا وجه له ؛ فإن الشاعر والكاتب يخوضان فى كل شىء ولا يقتصر خوضهما على فن دون فن ولا اصطلاح دون اصطلاح ؛ ولهذا فإنك تراهم إذا استعملوا شيئاً من الكلمات المصطلح عليها فى العلوم والصناعات فى أشعارهم ورقائقهم وجدت له أحسن موقع ، وازداد جمالها وحسن رونقها [2] .

ولا خلاف أننا لا نستطيع أن نضيق على الأديب ما وسع الله عليه ، ولا يمكن أن نحبسه فى دائرة محدودة لا يخرج منها ، فالأدب لا موضوع له وهو يندس فى كل شىء ويستغل المجتمع على اختلاف أحواله . ولا بد أن يستفيد الأدب من ألوان المعارف والعلوم وشئون الفكر حتى يكتسب العمق والخصب والسعة والتلون والشمول ، ويجارى الحضارة فى تقدمها واستبحارها ، وإلا انزوى فى منقطع العمران هزيلا كسيحا متخلفا عن ركب الإنسانية المغذ فى السير .

ومع ذلك فيجب ألا تكثر هذه الأشياء ، وألا تكون مقصودة لذاتها . ويزيد فى حسنها ورونقها أن تمثل واقعة حال ، أو تصاغ فى أبواب التظرف والمفاكهات والهزل والخلاعة ، فمن الأول قول أبى الفتح البستى :

عزلت ولم أذنب ولم أك جانيا ... وهذا لإنصاف الوزير خلاف
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه ... كأنى نون الجمع حين تضاف

وقول البهاء زهير :

يقولون لى أنت الذى سار ذكره ... فمن صادر يثنى عليه ووارد

---

(١) سر الفصاحة — ١٥٩ — ١٦٠ (٢) الطراز — ٢ — ٣٢٩

هبونى كما قد تزعمون أنا الذى ... فأين صلاتى منكم وعوائدى

وقول مجير الدين بن تميم :

لو كنت حين علوت ظهر مطية ... لم تعتلقها للنطى عيون

وتوسطت بحر السراب حسبتنى ... من فوقها ألفاً وتحتى نون

ومن الثانى قول محاسن الشواء :

لنا صــــديق له خلال ... تُعرب عن أصله الأخسّ

أضحت له مثلَ « حيثُ » كفٌّ ... وددت لو أنها كأمس

يريد أن يده مضمومة عن الإعطاء ، فكأنها «حيث» المبنية على الضم ، وهو لذلك يتمنى أن تكسر كما بنيت « أمس » على الكسر .

وقول أبى محمد الواسطى :

لنا صــديق به انقباض ... ونحن بالبسـط نستلذ

لا يعرف الفتح فى يديه ... إلا إذا ما أتاه أخذ

فكفه « أين » حين يعطى ... شيئا وبعد العطاء « منذ »

أى لا تفتح كفه مثل « أين » المبنية على الفتح إلا فى حال أخذه من الناس ، ثم هى بعد ذلك مضمومة « كمنذ » المبنية على الضم .

فمثل هذه الأمثال التى ذكرت لم تنظم اعتباطا بل اقتضاها المقام ، زيادة عما فيها من بيان الوصف وتقريره .

أو مما يقع تحت الحواس وهو أكثر الأنواع المنتزعة .

فمن المبصرات قول أبى الحسن العقيلى :

وللأقاحى قصور كلها ذهب ... من حولها شُرفات كلها درر

وقول التنوخى :

أحسن بدجلة والدجى متصوِّب ... والبدر فى أُفق السماء مغرِّب[1]

---

(١) متصوب : مائل إلى الذهاب .

فكأنها فيه بساط أزرق ... وكأنه فيها طراز مُذهَب

وقول ابن المعتز :

له طُرَّة كجناح الغُداف ... تلوح على غرة مقمره [1]
وفى عطفة الصدغ خال له ... كما استلب الصولجان الكره

وقول شاعر :

غطى على عينيه شعرية ... تُسعر فى القلب لهيب الضرام
كأنه البدر بدا نصفه ... ونصفه الآخر تحت الغمام

ومثله قول الآخر :

لا تحسبوا شعرية أصبحت ... من رمد فى وجهها مرسله
وإنما وجنتها كعبة ... أستارها من فوقها مُسبَله

والشعرية بفتح الشين نسبة إلى الشعر : غشاء أسود رقيق يكون على وجه النساء والأرمد ، وأصله أن ينسج من الشعر ثم أطلق على كل ما شابهه .

وقول السُّمَيسر الأندلسي :

بعوض جعلن دمى قهوة ... وغنّينى بضروب الأغان
كأن عروقَى أوتارها ... وجسمى رباب وهن القيان

وقول أبى فراس :

وكأنما البِرَك الملاء تحفها ... ألوان ذاك الروض والزهر
بسط من الديباج بيض فُرْوِزت ... أطرافها بفراوز خضر [2]

وفى هذين البيتين ما يعرب عن استخدام نفائس الفرس [3] .

---

(١) الغداف : غراب كبير ، أو غراب القيظ .

(٢) الفراوز : التطاريف . (٣) يتيمة الدهر — ١ — ٢٤

وللطغرائى :

وكأنما الشمس المنيرة إذ بدت — والبدر يجنح للمغيب وما غرب

متحاربان لذا مجن صاغه — من فضة ولذا مجن من ذهب

ولشهاب الدين الوادى آشى :

ما لاح فى درع يصول بسيفه — والوجه منه يضىء تحت المغفر

إلا حسبت البحر مدّ بجدول — والشمس تحت سحائب من عنبر

قال الصفدى جمع هذا المقطوع بين قول ابن عباد (١) :

ولما اقتحمت الوغى دارعا — وقنّعت وجهك بالمغفر

حسبنا محياك شمس الضحا — عليها سحاب من العنبر

وبين قول أبى بكر الرصافى :

لو كنت شاهده وقد غشىَ الورى — يختال فى درع الحديد المسبَل

لرأيت منه والقضيب بكفه — بحرا يريق دم الكماة بجدول

وقول بعضهم فى راقص :

عجبت من رجليـــه تتبعانه — يعلوهما طورا ويعلوانه

كأن أفعيين تلسعانه

وقول الحسن بن جبير الأندلسى :

لى صديق خسرت فيه ودادى — حين صارت سلامتى منه ربحا

حسُن القول سيِّء الفعل كالجزار — م سمَّى وأتبع القول ذبحا

ومن لطائف ابن سكرة :

نزلتى باقه زولى — وانزلى غير لهاتى

واتركى حلق لحق — فهو دهليز حياتى

وهو ينظر إلى قولهم : القبر دهليز الآخرة .

(١) نفح الطيب ـ ٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤

وقول القيسرانى :

واللّه لو أنصف العشاق أنفسهم فدوك منهم بما عزوا وما صانوا

ما أنت حين تغنّى فى مجالسهم إلا نسيم الصّبا والقوم أغصان

وقول ابن طباطبا العلوى :

وكأن الهلال لما تبدى شطرُ طوق المرآة ذى التهذيب

أوكقوس قد انحنت بانجذاب أوكنون فى مُهرَق مكتوب [1]

وقول المتنبى فى وصف الأسد :

يطأ الثرى مترفّقا من تيه فكأنه آس يجُسُّ عليلا

وقول كُشاجم :

أرى وصالك لا يصفو لآمله والهجر يتبعه ركضا على الأثر

كالقوس أقرب سهميها إذا عطفت عليه أبعدها من منزع الوتر

ومن الملموسات قول البحترى :

وكالسيف أن لا ينته لان متنه وحداه إن خاشنته خشنان

ومن المشمومات قول حسان :

كأن ريحهم فى الناس إذ خرجوا ريح الكلاب إذا ما مسها المطر

وقول آخر :

يزداد لؤما على المديح كما يزداد نتن الكلاب بالمطر

ومن المسموعات قول ابن حِلّزة :

وحسبت وقع سيوفنا برءوسهم وقع السحابة بالطّراف المُشرَج [2]

خص الطراف لكونه من الأدم ، فصوت القطر عليه أشد منه على غيره من سائر البيوت .

---

(١) المهرق بصيغة اسم المفعول : الصحيفة . (٢) المشرج : المضموم .

وقول سلمة بن عياش :

كأن بنى ذألان إذ جاء جمعهم فراريج يُلقى بينهن سَويق (١)

وصفهم بهذا لدقة أصواتهم وعجلة كلامهم .

وقول ابن الرومى فى « وحيد » المغنية :

تتغنى كأنها لا تغنِّى من سكون الأوصال وهى تجيدُ
مد فى شأو صـوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مـديد

وقول آخر :

أشتهى فى الغناء بُحّة حَلْق ناعم الصوت متعب مكدود
كأنين المحب أضعفه الشو ق فضاهى به أنين العـود

(١) السويق : ما يصنع من الحنطة والشعير .

الفصل السادس عشر

شعراء التشبيه

قد يسبق إلى الظن أن التشبيه يتسنى للشعراء جميعا بنسبة واحدة وأن حظهم منه متساو لا يقع فيه التفاوت والتباين ، وهذا خلاف الواقع قديما وحديثا . وضد الطبيعة الإنسانية التي تأبى الاتحاد في المزايا والهبات ، وتجنح دائما إلى التخصيص والتمييز بين الأفراد .

وعلى هذا الأصل نجد جماعة من الشعراء رُزقوا الإجادة في التشبيه على الإطلاق، فوق ما عُرفوا به من السبق في تشبيه أشياء خاصة .

ونجد جماعة أخرى انفردوا أو قل تخصَّصوا في تشبيه أشياء بعينها طارت لهم فيها شهرة حتى عرفوا بها وعرفت بهم .

فمن القسم الأول امرؤ القيس من الجاهليين ، وذو الرمة من الإسلاميين وقد شهد لهما بذلك حماد الراوية بقوله : امرؤ القيس أحسن الجاهلية تشبيها ، وذو الرمة أحسن الإسلام تشبيها (١) .

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه (٢) .

ويقول العسكري : أجمعت العرب على أن ذا الرمة أحسنهم تشبيها .(٣)

ويقول الأبشيهي : وليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ــ ٢٦ ــ ٢٧ ــ خزانة الأدب للبغدادي ــ ١ ــ ٦٠٦

(٢) العمدة ــ ١ ــ ١٨٥ (٣) ديوان المعاني ــ ٢ ــ ١٤٧

من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ، ورقة اللفظ ما لذى الرمة حتى كأنه حضرى من أهل المدن لا من أهل الوبر [١] .

وفى العصر العباسى الأول عرف بجودة التشبيه أبو نواس ، وفيه يقول المبرد : من أكثر المحدثين تشبيها لاتساعه فى القول ، وكثرة تفننه ، واتساع مذاهبه : الحسن بن هانىء [٢] .

وفى العصر العباسى الثانى نبت أكبر شاعر انتهى إليه هذا الفن وهو ابن المعتز ، وقد ظاهره على ذلك نشأته الملوكية وما أحاط به من مظاهر الترف وبُلَهْنِيَة العيش ، وألوان النعيم فى قصور الخلافة الناعمة الحافلة بروائع الحضارة المادية .

وكان ابن المعتز يعرف ما وهبه الله من عبقرية التشبيه، فأُثِر عنه قوله : إذا قلت : « كأن » ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فاى [٣] .

وقد أفاض النقاد فى تفرد ابن المعتز بهذه الهبة بما لا يدع مجالا لمستزيد فيقول الباقلانى : وأنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر ، وقد تتبع فى هذا ما لم يتتبع غيره ، واتفق له ما لم يتفق لسواه من الشعراء [٤] .

ويقول الحصرى : وليس بعد ذى الرمة أكثر افتنانا ، وأكبر تصرفا وإحسانا فى التشبيه منه [٥] .

ويقول الثعالبى : تشبيهات ابن المعتز يضرب بها المثل فى الحسن والجودة. ويقال : إذا رأيت كاف التشبيه فى شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والإحسان .

---

(١) المستطرف ــ ٢ ــ ٢٢
(٢) الكامل للمبرد « شرح المرصفى » ٢٢ ــ ٧ ــ ٤٠
(٣) معاهد التنصيص ــ ١ ــ ١٤٦ (٤) إعجاز القرآن ــ ٢٠٧
(٥) زهر الآداب ــ ١ ــ ٢١٩

ولما كان غذىّ النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين فى البراعة ، تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات ، وبهذا المعنى اعتذر ابن الرومى فى قصوره عن شأو ابن المعتز فى الأوصاف والتشبيهات (١) .

ويقول ابن رشيق : إن الطريقة التى غلبت عليه وانقاد إليها طبعه ، وسهل عليه تناولها : التشبيه (٢) .

ويقول العباسى : هو أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات (٣) .

على أنه يجب أن يعرف أن ابن المعتز برع فى نوع خاص من التشبيهات هو التشبيه المحسوس الذى ليس بتمثيل ولا يحتاج إلى تأويل .

وفى ذلك يذكر عبدالقاهر : تقول : ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها ، لأنك تعنى تشبيه المبصرات بعضها ببعض ، وكل مالا يوجد التشبيه فيه من طريق التأويل ، كقوله :

كأن عيون النرجس الغض حولنا   مداهن در حشوهن عقيق

وإحسانه فى هذا النوع أكثر ، وهو به أشهر ، فلا يقال : إن ابن المعتز حسن الأمثال : تريد به الأبيات مثل :

اصبر على مضض الحسو   د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها   إن لم تجد ما تأكله

وإنما يقال : صالح بن عبد القدوس كثير الأمثال فى شعره (٤) .

ومثل ابن المعتز فى قلة أمثاله مروان بن أبى حفصة ، حتى قال بعض النقاد : ليس فى شعره إلا بيت واحد يتمثل به .

---

(١) ثمار القلوب ــ ١٨٣
(٢) العمدة ــ ١ ــ ١٩٤
(٣) معاهد التنصيص ــ ١ ــ ١٤٦
(٤) أسرار البلاغة ــ ٧٠ ــ ٧٢

ولا شك فى قلة الأمثال فى شعر مروان ، ولكن ليس إلى هذا الحد — كما يقول الشريف المرتضى — [١] .

وشهرة امرىء القيس وذى الرمة وابن المعتز بالتشبيه جعلت طائفة من المتعقبين يقولون : الشعراء ثلاثة : جاهلى وإسلامى ومولد ، فالجاهلى : امرؤ القيس ، والإسلامى : ذو الرمة ، والمولد : ابن المعتز .

وهذا قول من يفضل البديع وبخاصة التشبيه على جميع فنون الشعر [٢] .

وفى الأندلس اشتهر بالتشبيه أبو عامر بن شُهيد ، وفيه يقول ابن بسام : هو من أقوى الشعراء استعارات وأصحهم تشبيهات [٣] .

ومن القسم الثانى — ويدخل فيه شعراء القسم الأول — جماعة كثيرة العدد .

فوصف الناقة عرف به طرفة بن العبد .

وصف الإبل وراعيها عرف به الراعى النميرى [٤] .

ووصف الصيد عرف به امرؤ القيس .

ووصف المطر عرف به امرؤ القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حَجر وعبد بنى الحسحاس وذو الرمة .

وندب الأطلال وبكائها عرف به مسعود بن عمرو الأزدى .

ووصف النخل عرف به البطين التيمى .

وذم الأضياف عرف به اللعين المنقرى .

ووصف الثور والظليم عرف به الطِّرِمّاح .

ووصف الظباء عرف به عدى بن الرقاع .

---

(١) أمالى المرتضى — ٣ — ٣٤ (٢) العمدة — ١ — ٦٣

(٣) الذخيرة — ٢ — ٢٨٧

(٤) اختلف فى سبب تسميته بذلك ، ويقول ابن سلام : إنما سمى بذلك لكثرة وصفه الإبل وحسن نعته لها . أمالى المرتضى — ٢ ص ٦

ووصف حمر الوحش والقوس عرف به أوس بن حجر والشماخ .

ووصف السلاح عرف به أوس بن حجر .

ووصف الخمر عرف به الأعشى والأخطل وأبو الشيص وأبو نواس .

ومدح الملوك عرف به الأخطل وأبو الشيص .

ووصف النساء عرف به الأخطل وعمر بن أبي ربيعة .

ووصف الشباب عرف به ابن أبي ربيعة .

ووصف الأسد عرف به أبو زبيد الطائي .

ووصف أحوال الآخرة عرف به أمية بن أبي الصلت .

ووصف الخيل عرف به امرؤ القيس وأبو داود الإيادى والنابغة الجعدى وسلامة بن جندل وطفيل الغنوى ، والنمــيرى وأبو تمام والبحترى والمتنبي .

وكان طفيل الغنوى يلقب بطفيل الخيل لحسن وصفه لها ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل (١) .

أما أبو الطيب فقد ذكر الخيل فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الإبل ، لما يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل وتعاطى الشجاعة (٢) .

ووصف المهامه والبوادى والجمال والأنساع والأزمّة والحرباء عرفه به ذو الرمة .

ومن بدائعه قوله فى الحرباء .

يصلى بها الحرباء للشمس ماثلا   على الجذل إلا أنه لا يكبّر (٣)

إذا حول الظلّ العشىُّ رأيته   حنيفا وفى قرن الضحا يتنصر

---

(١) الشعر والشعراء — ٢٧٥   (٢) العمدة — ١ — ١٥٣

(٣) الجذل بالكسر : أصل الشجرة .

وقوله :

وَدَوِّية جرداء جداء خَيَّمت ... بها هَبَوات الصيف من كل جانب [١]

كأن يدَىْ حربائها متمسكا ... يدا مذنب يستغفر الله تائب

وقوله :

وقد جعل الحرباء يصفرّ لونُه ... ويخضرّ من حر الهجير غباغبُهْ [٢]

ويسبّح بالكفين سبحا كأنه ... أخو فَجْرة أوفى به الجذعَ صالبه

وهذه التشبيهات — كما يقول العسكرى — مصيبة عجيبة الإصابة ، دالة على شدة الحذق وثقوب الذهن [٣] .

ووصف مثالب الرجال عرف به ابن الرومى .

ووصف المعارك عرف به أبو الطيب .

ووصف النَّوْر والطير عرف به الصنوبرى .

ووصف الطيف والقصور والبرك عرف به البحترى .

ووصف مظاهر الطبيعة عرف به ابن خفاجة الأندلسى وابن حمديس الصقلى .

ووصف شباك صيد السمك والحمامات وطير الخُطَّاف عرف به السرى الرفاء .

والفخر والحماسة عرف به أبو فراس الحمدانى والشطارة والمغازلة والخمر والخُمار عرف به أبو نواس .

ووصف الأزمنة والنجوم عرف به محمد بن يزيد بن مسلمة .

---

(١) الدوية والداوية بالتشديد والتخفيف : الفلاة ، والهبوات جمع هبوة الغبرة .

(٢) الغباغب جمع غبغب : اللحم المتدلى تحت الحنك كالغبب .

(٣) ديوان المعانى — ٢ — ١٤٧

الفصل السابع عشر

الاشياء التى وردت فى التشبيه كثيرا

من يتتبع الآثار الادبية يعجب من أن الحظوظ لمست أشياء خاصة فجرى ذكرها فىالتشبيه كثيراً ، حتى أصبحت متميزة المنزلة ملحوظة المكانة فكأنّ قانون السعود والنحوس يأبى إلا أن يجرى على مافى الوجود من ناطق وصامت ، ونام وجامد .

الجوارح الإنسانية .

فمن الجوارح الإنسانية : العيون ، فقد استفاضت بها أشعار الغزل والنسيب ، ويندر أن يتحدث شاعر عن محاسن المرأة وينسى عينيها الفعولين بالألباب ما تفعل الخمر كما يقول الشاعر !

والعيون المحببة إليهم قبل الاختلاط بالأجانب هى العيون السود النُّجل الوُطف الأهداب ، الفاترة الأجفان ، الناعسة الألحاظ .

ومن ثَمّ كانت العيون الكحيلة آثر لديهم من العيون الزرق والخضر والعسلية وما إلى ذلك .

الحيوان الأهلى .

ومن الحيوان الأهلى النوق ، فقد أفاضوا فى نعت أعضائها وسيرها ، ووصفها بالنحول وتشبيهها بالقسى ، فمن بدائع ذلك قول الشماخ يصف سيرها :

كأن ذراعيها ذراعي مُدِلةٍ ... بُعيد السِّباب حاولت أن تَعذَّرا
من البيض أعطافا إذا اتصلت دعت ... فِراسَ بن غَنْم أو لقيطَ بن يَعْمَرا
بها شَرَق من زعفران وعنبر ... أطارت من الحسن الرداء المُحَبَّرا
مُجَدة الأعراق قال ابن ضَرّة ... عليها كلاما جار فيه وأهجرا [1]
تقول وقد بل الدموع خمارها ... أبت عفتى ومنصبى أن أعيرا

شبه ذراعيها وهى تتذرَّع فى سيرها بذراعى امرأة مُدلة على أهلها ببراءة ساحتها ، وقد حكى عنها ابن ضرتها كلاما أهجر فيه :أى أفحش ، فهى ترفع يديها وتضعهما وتقبضهما وتبسطهما ، وتعتذر وتحلف وتنضح عن نفسها ما جلب لها ابن ضرتها من العار .

أو معنى مدلة : أنها تدل بحسن ذراعيها فهى تدمن إظهارهما ليرى حسنهما .

وبعيد السباب : أى فى عقب المسابة قامت تعتذر إلى الناس .

وقوم يرونه بعيدالشباب، ومعنى هذه الرواية : أنها نَصَف من النساء ، فهى أقوم بحجتها من الحدثة الغرة .

ومثله قول الآخر :

كأن ذراعيها ذراعىْ بذِيّة ... مفجّعة لاقت ضرائرَ عن عُفر [2]
سمعن لها واستعجلت بكلامها ... فلا شىء يَفرى باليدين كما تفرى [3]

قال المبرد : أنشدنيهما عبد الصمد بن المعذَّل وسعيد بن سلم ، ولو قيل إن هذا من أبلغ ما قيل فى هذا الوصف ما كان ذلك بعيدا .

(١) فى الكامل للمبرد « شرح المرصفى » ـ ٦ ـ ٢٥٠ : مبرأة الأخلاق .
(٢) البذية : السليطة اللسان ، وعن عفر : بضم فسكون وضمتين . أى بعدحين .
(٣) الفرى : الشق .

وصفها بأنها بذية وقد فجعت بما أسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائلها بعد زمان وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين لها يتسمعن[1] .

وقول بَشامة بن الغدير :

كأن يديها إذا أرقلت وقد جُرن ثم اهتدين السبيلا
يدا سابح خرَّ فى غمرة وقد شارف الموت إلا قليلا

يقول : كأن يدى هذه الناقة وقت كلال غيرها من الإبل ولزومهن المحجة يدا سابح ، فهو أشد لتحريك يده مخافة على نفسه[2] .

والخيل .

وقد وصفت وصفاً مستفيضاً على ألسنة الشعراء والأدباء وبخاصة فى الزمن القديم فقد كانت من عدد الحرب التى لا يستغنى عنها ، كما كانت من أدوات الترف والزينة لدى أرباب السلطان والمال ، وليس من همنا استقصاء ما قيل .

فمن ذلك قول أعرابى فى فرس أحمر :

وأحمر كالديباج أما سماؤه فريًّا وأما أرضه فمحول[3]

وقول الأمير مجير الدين بن تميم — وهو من مخترعاته — :

أهديتَ لى يا مالكى مهرة جميلة الخلق بوجه جميل
مُؤخَرها والعنق قد أوقعا قلب الأعادى فى العريض الطويل
قد لبست من شفق حلة تخبرنا أن أباها أصيل

وقول آخر فى أبلق أغر :

وكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض فى أحشائه

(١) الكامل للمبرد « شرح المرصفى » — ٦ — ٢٥٣
(٢) أمالى المرتضى — ٣ — ١٨
(٣) سماؤه أعاليه . وأرضه : حوافره .

وقول العسكرى فى مثله :

يريك جبينه لمعان برق وسائر جسمه لمعان قار
فيشبه تحت جنح الليل ليلا ويحكى الخال فى خد النهار
يلوح البدرُ منه فى جبين وتتضح الثريا فى عِذار

وقول ابن طباطبا فى أدهم أغر :

عجباً لشمس أشرقت فى وجهه لم تمح منه دجى الظلام المطبق

وقول ابن المعتز فى فرس أبيض :

ولقد وطِئت الغيث يحملنى طِرف كلون الصبح حين وقدْ
يمشى فيعرض فى العنان كما صدف المعشّق ذو الدلال وصَد
فكأنه موج يذوب إذا أطلقته فإذا حبَست جمَد

وقال إسحاق النهروانى فى فرس لأبى دلف أدهم كان يسميه غرابا :

كم كم تجرعه المنون ويسلم لو يستطيع شكا إليك الأدهم
من كل منبت شعرة من جلده خط ينمقه الحسام المِخذم
رَجعته أطراف الأسنة أشقرا واللون أدهم حين ضرَّجه الدم

وقول أبى تمام فى فرس أسود أبيض :

صافى الأديم كأنما ألبسته من سندس بُرْداً ومن استبرق
مسود شطر مثلما اسود الدجى مبيض شطر كابيضاض المهرَق

وقول البحترى فى أغر محجل :

وأغر فى الزمن البهيم محجَّل قد رحت منه على أغر محجَّل
يهوى كما هوت العُقاب إذا رأت صيداً وينتصب انتصاب الأجدل[1]
هزِج الصهيل كأن فى نبراته نغمات معبَد فى الثقيل الأول[2]

(١) الأجدل : الصقر .

(٢) معبد : أمام الغناء بالمدينة فى العصر الأموى ، والثقيل الأول : صوت له .

وقول ابن هانىء فى وصف فرس لجعفر بن على بن حمدون بين السواد والحمرة :

من البُهم ورد اللون شيب بكُمتة كما شيب بالمسك الفتيق خَلوق[1]
فلو مِيز منه كل لون بذاته جرى سبَج منه وذاب عقيق[2]

ومن النثر قول أعرابى : لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطان فى أشطان ، فأرسلوه فلمع لمع البرق ، واستهل استهلال الودق ، فكان أقربهم إليه ، الذى تقع عينه من بعد عليه .

ووصف أعرابى خيلا لبنى يربوع فقال : خرجت علينا خيل من مستطير نقع ، كأن هواديها[3] أعلام ، وآذانها أقلام ، وفرسانها أسود آجام .

الحيوان الوحشى .

ومن الحيوان الوحشى : الأسد ، وقد غصت به دواوين الشعر منذ أن نظم الشعر ، لأنه عنوان الشجاعة التى يكبرها الإنسان .

والغزال والمهاة لما وصفتا به من جمال العين والجيد .

الطيور .

ومن الطيور : العُقاب والصقر والطاووس .

الأزهار .

ومن الأزهار : الورد والنرجس وشقائق النعمان .

وكان أزدشير بن بابَك يقول فى الورد : هو در أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراسى زبرجد أخضر ، تتوسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ، ونفحات العطر .

وقد أخذه محمد بن عبد الله بن طاهر فقال :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمردٌ وسطَه شَذْر من الذهب

(١) الخلوق بالفتح : الطيب . (٢) السبج : الخرز الأسود .
(٣) الهوادى : الأعناق .

فاشرب على منظر مستظرف حسن من خمرة مُزّة كالجمر فى اللهب

وكان كسرى أنو شروان مستَهتراً بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر ، بين در أبيض ، على زمرد أخضر .

وقد نقله بعض المحدثين فقال :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كمثل بهى الدر ، عقد نظامها نثير فريد قد أطاف بعسجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد

وفى الشقائق[1] يقول البحترى — وكان معجبا بما قال — :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد

ويقول ابن الرومى :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقاً كعقد عقيق بين سمط لآلى
وفيهن نُوّار الشقائق قد حكى خدود غوان نُقطت بغوالى

الفواكه .

ومن الفواكه : التفاح والرمان والنارنج .

الأجرام السماوية .

ومن الأجرام السماوية : الشمس والقمر ، ويشبه بهما[3] : الزوجان . وأول[2] من صنع ذلك عدى بن الرقاع العاملى ، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا .

---

(١) الشقائق وتسمى الشقيق والشقر بكسر القاف ، سميت بذلك لحمرتها تشبيها لها بشقيقة البرق ، وقيل : النعمان : اسم الدم وشقائقه قطعه فشبهت حمرتها بحمرة الدم ، ويقال : إنما أضيفت إلى النعمان بن المنذر لأنه حمى أرضا كثر فيها هذا النبات .

(٢) ثمار القلوب — ٢٣٩ (٣) إعجاز القرآن — ١٤٠

وذلك أن الوليد بن عبد الملك زوج ابنه عبد العزيز بأم حكيم بنت يحيى بن الحكم، وكان يقال لها: الواصلة، لأنها وصلت الشرف بالجمال، وقد أمهرها أربعين ألف دينار، فقال الوليد للشعراء: اغدوا على فقولوا فى عبد العزيز وأم حكيم، فغدوا عليه وأنشده جرير قصيدة منها:

ضم الإمام إليه أكرم حرة ... فى كل حالات من الأحوال
حكمية علت الحرائر كلها ... بمفاخر الأعمام والأخوال

ثم قام عدى وأنشد:

قمر السماء وشمسها اجتمعا ... بالسعد ما غابا وما طلعا
ما ورات الأستار مثلهما ... فيمن رأى منهم ومن سمعا
دام السرور له بها ولها ... وتهنآ طول الحياة معا

فقال له الوليد: لئن أقللت فقد أحسنت! وأمر له بضعف ما أمر لجرير.

ولا عيب فى أبيات عدى إلا توالى حروف الربط وهى «له بها لها»، وتواليها عيب بلاغى.

وينظر إليها قول ابن الرومى:

بدر وشمس ولَدا كوكبا ... أقسمت بالله لقد أنجبا
تبارك الله وسبحانه ... أىُّ شهاب منهما أثقبا
ثلاثة تشرق أنوارها ... لا بُدِّلت من مشرق مغربا

والثريا، وفيها يقول الباقلانى: وأنت تعلم أنه ليس للمتقدمين ولا للمتأخرين فى وصف شىء من النجوم مثل مافى وصف الثريا، وكلٌّ قد أبدع فيه وأحسن [1].

فمن ذلك قول ذى الرمة:

وردت اعتسافا والثريا كأنها ... على قمة الرأس ابنُ ماء محلِّق

(١) إعجاز القرآن — ١٤٠.

وقول ابن الطثرية :

إذا ما الثريا فى السماء كأنها ... جُمان وَهى من سلكه فتبددا

وقال غيره :

كأن الثريا راحة تشبرُ الدجى ... لتنظر طال الليل أم قد تعرضا

وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحت لساريها الثريا كأنها ... لدى الأفق الغربى قُرط مسلسَل

وأكثر من تشبيهها ابن المعتز ، فشبهها ببيضات الأُدحىّ ، والنور المتفتح واللجام المفضض إلى غير ذلك .

ومن رقائقه قوله :

فناولنيها والثريا كأنها ... جنىَ نرجس حيَّا الندامَى به الساقى

وقد شبهت بغير ذلك وهى حقيقة بكل هذا وأكثر منه ، فهى من عرائس السماء ، حسنة الاسم حسنة المنظر .

والهلال ، وهو ممن رزق الحظوة فى التشبيه ، وقد ذكر الحموى : أنهم وصلوا فى تشبيهه إلى السبعين . (١)

وشبهه (٢) محمد بن عبد القادر اليمنى بعدة أشياء فى قصيدة له ، أولها :

ألام هلال لاح أم نون حاجب ... بدا بجبين الأفق فى ليلة الفطر

ولكن القصيدة ليست جيدة وفيها تكلف .

وفى الرائية التى مدح بها ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنأه فيها بعيد الفطر ، استطرد إلى تشبيه الهلال فى عشرة أبيات منها :

كأن شكل هلال العيد فى يده ... قوس على مهج الأعداء موتور

أو مِخلب مدّه نَسر السماء لهم ... فكل طائر قلب منه مذعور

أو مِنجل لحصاد الصوم منعطف ... أو خنجر مرهف الحدين مطرور

(١) خزانة الأدب — ٢١٨ (٢) سلافة العصر — ٤٥٨

وهى من الشعر المتوسط .

وزاد على ذلك فخر الدين بن مكانس فى أرجوزته المشهورة التى سماها: « عمدة الحرفا وقدوة الظرفا »

وقد أتى فيها للهلال بتشبيهات كثيرة جميلة .

ومن بدائع ما جاء فيه قول ابن المعتز — وقد أكثر من تشبيهه — :

وهلال شوال يلوح ضياؤه وبنات نعش وُقَّف بإزائه
كبنانة من مُخلص لما رأى وجه الوزير دعا بطول بقائه

وقول السرى الرفاء :

وكأن الهلال نون لجين غرِقت فى صحيفة زرقاء

وقول بعض الوزراء :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ونبهوا العود وصَفّوا المدامْ
هذا هلال الفطر قد جاءنا بمنجل يحصد شهر الصيام

ومن المباريات الشعرية الرائعة : أن ابن قَلاقس وابن المنجم اجتمعا فى منار بعض الجوامع — والشمس قد غربت وبدا الهلال فى حمرة الشفق — فاقترح عليهما جماعة من الأدباء أن يصنعا على البديهة فى ذلك ، فقال ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً وانظر لما بعدها من حمرة الشَّفق
غابت وأبقت شعاعا منه يخلفُها كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال ، فهل وافى لينقذَها فى إثْرها زورقا قد صيغ من ورق

وقال ابن المنجم :

يا رُبَّ سامية فى الجو قمت بها أمُدُّ طرفى فى أرض من الأفق [1]

(١) سامية : يريد المأذنة .

حيث العشيةُ فى التمثيل معركةٌ ... إذا رآها جبان مات للفرق
شمس نهارية للغرب ذاهبة ... بالنيل مصفرة من هجمة الغسق
وللهلال انعطاف كالسنان بدا ... من سَورة الطعن مُلقًى فى دم الشفق

واجتمع ابن قلاقس وابن المنجم أيضا فى آخر شهر رمضان مع جماعة من الأدباء فى سطح الجامع بمصر ، فلما غابت الشمس وظهر الهلال اقترح الجماعة على الشاعرين أن يعملا فى صفة الحال ، فلم يكن إلا كرجع الطرف حتى قال ابن المنجم :

وعشىّ كأنما الأفق فيه ... لازورد مرصّع بنُضار
قلت لما دنت لمغربها الشمس ... م ولاح الهلال للنظار
أقرض الشرقُ صنوَه الغرب دينا ... را فأعطى الرّهينَ نصفَ سوار

وقال ابن قلاقس :

لا تظن الظلام قد أخذ الشمس ... م وأعطى النهار هذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغربَ دينا ... را فأعطاه رهنَه خلخالا

وهو مما تواردت فيه الخواطر ، وقطعة ابن المنجم أحسن لتنصيفه السوار .

المواث .

ومن المواث : البحر ، لأنه يمثل الكرم فى خيال العربى ، وهو والشجاعة يؤلفان خلق الفتوة التى عرف بها العرب .

والنار وقد امتن الله بها على عباده فى قوله — تعالى — : « أفرأيتم النارَ التى تُورون » ، إلى قوله : « نحن جعلناها تذكرة ومَتاعا للمُقوين » .

فذكر منفعتها وحسن عائدتها فى الدنيا والدين .

وكانت العرب إذا تحالفت، تحالفت عليها، ويدعون على من يغدر وينقض العهد بالحرمان من منافعها [١].

ويذكر الجاحظ أنهم قالوا: ليس فى العالم جسم صرف غير ممزوج، ومرسل غير مركب، ومطلق القوى غير محصور ولا مصور، أحسن من النار.

ويقولون: شراب كأنه النار، وكأن لون وجهها النار.

وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: ما هو إلا نار، وإذا وصفوا حمرة العرَض [٢] وحمرة الذهب قالوا: ماهو إلا نار [٣].

ويشبه الفرس فى عدوه بالنار، كقول ابن المعتز:

طُوى الشحم على متنتيه ‏ ‏ ‏ ‏ مثلما يطوى القباطى تَجْر
فهو نار والتراب دخان ‏ ‏ ‏ ‏ مستطير وحصى الأرض جمر

ومن عجيب التشبيه فيها قول الأول:

كأن الريح تقطع من سناها ‏ ‏ ‏ ‏ بَنائقَ جُبة من أُرجوان

وقول مروان بن أبى الخِصال:

لابنة الزَّند فى الكوانين جمر ‏ ‏ ‏ ‏ كالدراريِّ فى دجى الظلماء [٥]
خبِّرونى عنها ولا تكتمونى ‏ ‏ ‏ ‏ ألديها صناعة الكيمياء؟
سَبكت فحمها صفائحَ تبر ‏ ‏ ‏ ‏ رصَّعتها بالفضة البيضاء
كلما رفرف النسيم عليها ‏ ‏ ‏ ‏ رقصت فى غِلالة حمراء

والبيت الأخير مأخوذ من قول الخفاجى:

وكأنها والريح عابثة بها ‏ ‏ ‏ ‏ تُزْهَى فترقص فى قميص أحمر

(١) ديوان المعانى ـ ١ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ‏ ‏ (٢) العرض: المال.
(٣) الحيوان ـ ٥ ـ ٣٣ ‏ ‏ (٤) البنائق: جيوب القميص جمع بنيقة.
(١) ابنة الزند: كناية عن النار لأنها تقدح منه.

وقول سيف الدولة — وهو من الشعر الملوكى :

كأنما النارِ والرماد معا　　وضوءُها فى ظلامه يُحجَبُ
وجنة عذراء مسَّها خجَل　　فاستترت تحت عنبر أشهب

والقلم .

وقد فضله ابن الرومى على السيف فقال :

كذا قضى الله للأقلام مذ بريت　　أن السيوف لها مذ أُرهفت خدمُ

وقال فيه بعض الأعراب :

لعمرك ما السيف سيف الكمىِّ　　بأخوفَ من قلم الكاتب
له شاهد إنْ تأملتَه　　ظهَرت على سرِّه الغائب
أداة المنية فى جانبيْه　　فمن مثله رهَبُ الراهب
ألم تر فى صدره كالسنان　　وفى الردف كالمرهَف القاضب

ويقول العسكرى :

انظر إلى قلم تنكّس رأسُه　　ليضم بين موصَّل ومفصَّل
تنظر إلى مخلاب ليثٍ ضيغم　　وغِرار مسنون المضارب مقْصل
يبدو لناظره بلون أصفر　　ومدامع سود وجسم مُنحَل
فالدَّرج أبيض مثل خد واضح　　يثنيه أسود مثل طرف أكحل (١)

وأنشد أبو أحمد عن الصولى :

ماضرٌّ من أضنى بهجرانه　　قلبَ كئيب القلب حرَّانه
لو فرج الكربة عن مدنف　　تشفُّه لوعةُ أحزانه

---

(١) الدرج : « الفرخ »

برقعة ينظمها كفه نظم لآليه ومَرجانه
بمرهف الأحشاء ذى حلة مَوشيَّة ترفع من شانه
لعابه يُسر وعُسر إذا جاد به تفليجُ أسنانه
إذا امتطاه بشبيهاته كشَّف أسراراً بإعلانه (١)
يركض فى ميدان قرطاسه ركضَ جواد وسط ميدانه

والنعل .

وقد نالت نصيباً من التشبيه — على حطة قدرها — !

فقد وقع تشبيهها بالمطية والراحلة كثيراً فى شعر العرب من المتقدمين والمتأخرين .

فمن قول بعض العرب :

رواحلنا سِتٌّ ونحن ثلاثة نُجَنِّبهن الماءَ فى كل منزل

وقول أبى نواس :

إليك أبا العباس من دون مَن مشى عليها امتطينا الحضرمىَّ المُلَسَّنا
قلائص لم تعرف حنيناً على طَلاً ولم تدر ما قُرع الفنيق ولا الهنا

الطلا بفتح الطاء : ولد الظبية ساعة يولد ، والفنيق : الفحل المكرم لا يؤذى ولا يركب ، والهناء بالكسر : القطران .

يشبه نعالهم بالنوق الشواب التى لم ترأم ولداً ، ولم يقربها الفحل ولم تدهن بالقطران .

وقول المتنبى :

لا ناقتى تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرِّهان أُجهدها
شِراكُها كُورها ، ومِشفرها زمامُها ، والشُّسوع مِقودُها

---

(١) شبيهاته : يريد أصابعه الدقيقة الجميلة .

الشراك : سير النعل ، والكور : الرحل ، والشسوع : السيور التى تكون خلال الأصابع .

جعل شراك نعله بمنزلة الرحل للناقة ، وزمامها بمنزلة المشفر ، والشسوع بمنزلة المقود .

وقوله أيضاً :

وحُبيت من خُوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشى راكبا

الخوص : جمع أخوص وهو الغائر العينين من الجهد والإعياء ، والدارش : جلد أسود .

يقول : أعطيت بدلا من الإبل خفا أسود ، فأنا راكب كماش .

ويقول القاضى محمد الإحسائى المكى فى نعل أهديت إليه :

وبعد فقد وصلت المطية التى هى حمراء الوبر ، المركوبة فى السفر والحضر ، الكافية راكبها مئونة نفسها ، فلا تشرب ماء ولا ترعى الشجر ... فشكر الله فضلكم ، ولا أعدم أحبابكم طَوْلكم والسلام [1] .

العروس .

ومن أكثر ما دارت عليه التشبيهات كلمة العروس .

فإليها يضاف كل شىء يجمع المحاسن !

فيقال : سفينة العروس للسفينة الكبيرة التى تشتمل على نفائس الأمتعة للتجارة .

وخزانة العروس للخزانة الخاصة من خزائن الملوك .

وسوق العروس لأحسن الأسواق وأجمعها لأحسن الطرائف ، لأن العادة الجارية بتبختر العرائس بالطرائف والنفائس .

وبسوق العروس يضرب المثل فى الحسن ، فيقال : أحسن من سوق

---

(١) سلافة العصر — ٣٢٩

العروس ، وهو بجمع الطرائف ببغداد ، قديما ، وما ظنك بأحسن الأسواق في أحسن البلاد !

وسوداء العروس : جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء ، وتقف بإزائها ، لتكون أظهر لمحاسنها كما يقول البحترى :

وحسن دراريّ الكواكب أن تُرى طوالع فى داج من الليل غيهب

وكما يقول الآخر :

ضدان لما استجمعا حسُنا والضد يُظهر حسنه الضد

ولتكون كالعوذة لجمالها وكمالها .

وفى ذلك يقول الصابى فى وصف جارية حسناء بيدها كأس من النبيذ الأسود :

بنفسى مُقبل يُهدى فتونا إلى الشَّرْب الكرام بحسن قده

وفى يده من التَّمرِيّ كأس كسوداء العروس أمام خده[1]

والطاووس — وهو عروس الطير — يشبه فى حسنه بعروس الإنس . وفى ذلك يقول الشاعر :

طير على أشكاله رئيس كأنه فى حسنه طاووس

وليلة العرس يشبه بها ما يوصف بالحسن كما قال الصاحب :

وشادن فى الحسن كالطاووس أخلاقه كليلة العروس

والقصيدة الرائعة تشبه بالعروس كقول السرى الرفاء :

زففت إليه من مدحى عروسا معرِّسة الهوى فى كل ناد[2]

وقول شوقى :

لى فى مديحك يارسول عرائس تيمن فيك وشاقهن جلاء

---

(١) التمرى : الشراب المصنوع من التمر . (٢) معرسة : مقيمة .

الفصل الثامن عشر

التجديد فى التشبيه

من القواعد المقررة أن صورَ التشبيه وغيرِها من صور البيان لا يمكن أن تجمد على هيئة واحدة ، بل لا بد أن تتجدّدَ على مر الزمان تبعاً لسنة التغير السارية فى كل شيء .

وليس بمعقول أن تتطور الأخلاق والعادات والنظم والقوانين والعقول والأفكار ، وأحوال المعيشة ، وتبقى الأداة المعبرة عن كل أولئك واقفة حيث هى تعرب عن آمال عصرها وآلامه ومعترك حوادثه ، واصطراع أهله بأساليب غريبة أو بالية .

والصور البيانية بحكم طبيعتها المرنة اللينة معرض واسع للتجديد ، وحقل خصيب للإبداع والاختراع ، ومن يتتبّعها فى مختلف عصورها يتبين له ذلك جليا .

فمثلا طرفة بن العبد يصف السفينة فى عهده فيقول :

يشقُّ حَبابَ الماء حيزومها بها ... كما قسم التربَ المفايل باليد

المفايل : الذى يلعب المفايلة ؛ وهو أن يُجمع التراب فيدفن فيه شيء ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين فى أيهما هو ، فمن أصاب غَلب ، ومن أخطأ غُلب .

شبه شق السفينة بصدرها الماء ، بشق المفايل بيده التراب المجموع .

وهذا الوصف يدلنا على أن هذه السفينة صغيرة الحجم ، هينة السير ساذجة الصنعة ، ضعيفة القوى ، حتى إن شقها الماء كشق المفايل التراب .

ثم تكر الأعوام ويتغير الزمن ، وتقبل دولة البخار ، وتستحيل السفن مدنا عائمة على اليم تختال فوقه اختيالا ، فتقطع المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة غير مبالية بغضب الهواء ولا الماء ، فنسمع الشيخ حمزة فتح الله يقول :

تجـــر فى اليم أذيالا مصبَّغة   كالخود تختال فى أذيال جلباب

ثم يأتى شوقى فيصف ما أمدتها به الحضارة والعلم من أسباب الراحة والترف فيقول :

والفلك مشرقة الجوانب فى الدجى   يبدو لها ذيل من الأنوار
بينا تخطَّر فى لجين مائج   إذ تنثنى فى عسجد زخَّار

ثم يأتى حافظ فيصف قوة مراسها وشدة جلادها للبحر الهائج المائج وصف عيان لا خيال فيقول :

تترامى بجؤجؤ لا يبالى   أمياه تجوطه أم صخور[1]
أزعج البحر جانبيها من الشد   م فجنب يعلو وجنب يغور
وهو آنا ينحطُّ من عُلْو كالسيل   م وآناً يحوطها منه سور[2]
وهى تزورّ كالجواد إذا ما   ساقه للطعان نَدْب جسور[3]

فسفينة طرفة التى احتفى بذكرها فى معلقته الخالدة لا تعد شيئا بجانب هذه السفن الضخمة التى وصفها شعراؤنا الثلاثة .

وكانت العرب تكره زرقة العين وتنكرها ، لأنها لم تكن معهودة فى عيونهم ، ولأنهم كانوا يرونها فى عيون الروم أعدائهم ، فكانوا يعيرون الرجل : بأنه أزرق ، ويصفون العدو : بأنه أزرق .

ومن ذلك قول الحماسى :

فمرا على إهل الغضا إن بالغضا   رَقارقَ لازرق العيون ولارُمدا

ومن رسالة المفاخرة بين السيف والقلم قول القلم للسيف : أين عينك الزرقاء من عينى الكحيلة[4] .

---

(١) الجؤجؤ : الصدر .   (٢) علو مثلثة الواو : من أعلى .
(٣) الندب : الماضى الخفيف فى الحاجة .   (٤) خزانة الأدب للحموى ـ ١٣٣

ويقول بشار فى تقبيح علَل البخيل :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

وقد اضطر بعض الشعراء أن ينضح عن عيون محبوبه الزرق بقوله :

وعابوه أن قالوا بعينيه زرقة كذاك عِتاق الطير زرق عيونها

ويقول السرى الرفاء فى هذا المعنى :

وقالوا بمقلته زرقة تَشين يظل لها مطرقا

وهل يقطع السيف يوم الوغى إذا لم يكن متنه أزرقا

ولكن لما امتدت الفتوحات العربية ، ورأى العرب الجركسيات والصقلبيات والروميات بوجوههن الشقر وشعورهن الذهبية ، وعيونهن الزرق ، أنسوا بكل ذلك ،وفتنوا به ، ولهجوا بذكره ، فمن ذلك قول عبدالمحسن الصورى :

يامن هو الماء فى تكوين رقته ومن هو الخمر فى أفعال مقلته

ومن بزرقة سيف اللحظ طلَّ دمى والسيف ما غره إلا بزرقته

وتبعاً لذلك أحبوا الشعور الصفر والحمر فقال بعضهم :

وفرع يزين المتن يحكى اصفراره سنابل قمح لم يتمَّ نضوجها

وانبرى بعضهم للدفاع عنها كالشاب الظريف فى قوله :

عبتم من المحبوب حمرة شعره وأظنكم بدليله لم تشعروا

لا تنكروا ما احمر منه فإنه بدماء أرباب الغرام مُضَفَّر

بعد أن كان أحسن الشعر عندهم هو الفاحم كما يقول المتنبى :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

ويظهر ذلك بخاصة فى أهل الأندلس لكثرة امتزاجهم بسكانها ، حتى ليقول ابن حزم : أما جماعة خلفاء بنى مروان ولا سيما ولد الناصر منهم

فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، ولقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن ، فما منهم إلا الأشقر نزاعا إلى أمهاتهم حتى قد صار ذلك فيهم خلقة حاشا سليمان الظافر فإنى رأيته أسود اللمة واللحية .

ثم يقول ، وعنى أخبرك : أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سواد الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه [1] .

وكانوا قديما يحبون السمن فى النساء ويعدونه آية الجمال والملاحة ، وسمة النعمة والغنى ، وشارة الترف والرفاهية ، وأكثروا من وصف ذلك كقول عمرو بن كلثوم :

تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا
ومأكمة يضيق الباب عنها ... وكشحا قد جننت به جنونا
وساريتى بلنط أو رخام ... يرن خشاش حليهما رنينا

يقول : تريك إذا دخلت عليها وقت خلوة أمنت فيها عيون الرقباء والأعداء ذراعين ممتلئين لحما كذراعى ناقة طويلة بيضاء العنق لم تلد بعد . وتريك وركا لا يتسع الباب لدخولها لعظمها وضخامتها وامتلائها باللحم والشحم ، وكشحا جننت بحسنه ، وتريك ساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام بياضا وضخامة تصوت خلاخيلها .

ويقول آخر :

وماجت كموج البحر بين ثيابها ... يميل بها شطر ويعدلها شطر

ويقول المؤمل :

من رأى مثل حبتى ... تشبه البدر إذ بدا

(١) طوق الحمامة ــ ٥

تدخل اليوم ثم تد　　خل أردافها غـدا

والنموذج اليوم للمرأة العصرية أن تكون قليلة اللحم ، مجدولة رشيقة ، خفيفة الحركة ، كثيرة النشاط ، غير نئوم الضحا ولامكسال ، ولاتثقلها أردافها عند المشى ، حتى تصاب بالبُهر والإعياء والربو إذا خطت قدر الباع، كما يصورها عمر بن أبى ربيعة :

قَطوف من الحور الأوانس بالضحا　　متى تمش قِيسَ الباع من بُهرها تَرْبو

ولـكن كما يصورها شوقى فى قصيدته « أثر البال فى البال »[1]

فالقدود بان رُباً　　بيْـد أنهـا تثب

يلعب العناق بهـا　　وهو مشفق حدِب

فهى مرة صُعُد.　　وهى مرة صَبَب

وهى ههنـا وهنا　　تلتقى وتصطحب

مثلما التقت أسَـل　　أو تعانقت قضُب

إلى أن يقول :

والخصور واهية　　بالبنـان تنجـذب

سالت الأكف بها　　فهى أغصُن نُهَب

ويقول بعض العرب ـ يصف تقدم الناقة على قطار الإبل ـ :

تنسَلّ منها إذا تدانين　　مثل انسلال الماء من جفن العين

وجاء أبو نواس فقال :

تذَر المطىّ وراءها وكأنها　　صفّ تَقَدّمهن وهى إمام

وقال بعده ابن المعتز :

فهى إمامَ الرَّكب فى ذَهابها　　كسطر بسم الله فى كتابها

(١) الشوقيات ــ ٢ ــ ٨

ولا ريب أن الأخيرين استلهما فى تجديدهما البيئة الإسلامية .

وعمرو بن كلثوم شبه النهد بحق العاج فى قوله :

وثديا مثل حُق العاج رَخصا   حَصانا من أكف اللامسينا

واتبعه الشعراء فى ذلك فقال ابن الرومى :

صدور فوقهن حِقاق عاج   وحلى زانه حسن اتساق
يقول الناظرون إذا رأوها   أهذا الحلى من هذى الحقاق
وما تلك الحقاق سوى ثدى   قددن من الحقاق على وفاق
نواهد لايعدّ لهن عيب   سوى منع المحب من العناق

وقال محمد بن مناذر :

ولهـا ثديان ما عدَوا   من حِقاق العاج أن كعبا

وقال السرى الرفاء :

ومن وراء سجوف الحى شمس ضحا   تجول فى جنح ليل مظلم داجى
مقدودة خرّطت أيدى الشباب لها   حقين دون مجال العقد من عاج

وقال عبد الله بن أبى السِّمط :

كان الثُدِىَّ إذا ما بدت   وزان العقودُ بهن النحورا
حقاق من العاج مكنونة   يسعن من الدر شيئا كثيرا

وفى رواية :

حقاق من الدر مخروطـــة   يسعن من المسك شيئا يسيرا

وعلى كلا الروايتين نرى سمة التجديد واضحة ، فقد اتسع الوصفُ وشمل أشياء أخرى وأصبح طريفا دقيقا ، فبعد أن كانت الثدى حقاق عاج أصبحت حقاق عاج مملوءة بالدر ، أوحقاق عاج تتسع لشىء قليل من المسك . — يريد حلمة الثدى — وهو تفصيل مستوعب جميل .

وجاء تشبيه النهد بالرمان كقول البحترى :

ولقـد تبيت أنامـلى   يجنين رمان الصدور

وقال ابن الرومى فى وصف القيان يحتضن العيدان :

ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان [1]

مُفعمات كأنها حافلات وهى صِفر من درَّة الألبان

ثم جاء ابن المعتز أو الوزير المهلبى فبلغ الغاية فى التجديد ، وقال أحسن ما قيل حتى اليوم :

قبيح بمثلك أن تَهجُرى وأقبح من ذاك أن تُهجَرى

أقاتلتى بفتور الجفون ورمانتين على مرمر

كحقين من لُب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

ولا شك أن هذا تصوير خالد للثدى .

والناس من قديم يشبهون العيون فى فعلها بالخمر والسيوف والنبال والسهام ، لا يكادون يخرجون عن ذلك .

يقول ذو الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

ويقول أبو نواس :

تسقيك من لحظها خمرا ومن يدها خمرا فمالك من سكرين من بُدّ

ويقول المتنبى :

رأين التى للسحر فى لحظاتها سيوف ظُباها من دمى أبدا حُمر

ويقول شاعر :

ينظرن من خلَل السجوف كأنما يُمطرن أحشاء الكريم نبالا

ويقول أعرابى :

نبارز أبطال الوغى فنَبيدها ويقتلنا فى السلم لحظ الكواعب

---

(١) الدرة بالكسر : اللبن وكثرته وسيلانه

وليست سيوف الهند تَفنى نفوسنا ولكن سهام فُوِّقت بالحواجب[1]

وجاء حفنى ناصف فخرج من هذه الطريقة فى بعض ما نظم وكان مجددا حقا حين قال :

فهى كالكهرباء توحى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد

وقد يخدع الشاعر عن نفسه فيأتى بمعنى من المعانى فى غرض ربما كان غير مطروق ، فيخيل إليه أنه سبق الشعراء بذلك وهو فى الحقيقة مسبوق لأن أكثر المعانى تراث شائع مركوز فى عقول الناس ، ولا سيما المتشابهون منهم فى البيئة والثقافة والحالة الاجتماعية ، وإنما يأتى الشاعرَ ذلك الوهم من ناحية قصور ثقافته وعدم اطلاعه على آثار غيره .

من ذلك ما قصه عبد الله بن جعفر بن دَرَسْتَوَيْه ، قال : قال لى البحترى — وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرد وسلكنا مسلكا من المذاكرة — : أشعرتَ أنى سبقت الناس كلهم إلى قولى :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد

فاستحسن ذلك المبرد استحسانا أسرف فيه ، وقال : ماسمعت مثل هذه الألفاظ الرطبة والعبارة العذبة لأحد تقدمك ولا تأخر عنك !

فاعترت البحترى أريحية جرَّبها رداء العجب !

فكأنّه أعجبنى ما يعجب الناس من مراجعة القول ، فقلت : يا أبا عبادة لم تسبِق إلى هذا !

بل سبقك سعيد بن حُميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله :

عذُب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اجترعناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها طل تساقط فوق ورد يانع

---

(١) فوق السهم : جعل الوتر فى فوقه عند الرمى .

وشركك فيه صديقنا أبو العباس الناشىء بما أنشدنيه آنفا :

بكت للفراق وقد راعنى ... بكاء الحبيب لبعـــد الديار
كأن الدموع على خدها ... بقية طَلّ على جُلَّنـــار

وما أساء على بن جريج ، الرومى ، بل أحسن فى زيادته عليك :

لو كنت يوم الوداع شاهدَنا ... وهن يطفئن غلَّة الوجد
لم تر إلا دموع باكية ... تسفَح من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى ... يقطر من نرجس على ورد

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معا بقوله :

من كل زاهرة تَرقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تُحدّر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتَخفَّر(١)
خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الإمام وهديُه المتنشّر
فى الأرض من عدل الإمام وجوده ... ومن الربيع الغض سَرح يُزهر
يُنسى الربيع ، وما يروِّض جوده ... أبداً على مر الليالى يذكر

قال : فشق ذلك عليه ! وحل حبوته ونهض .

فكان آخر عهدى بمؤانسته ، وغلظ ذلك على محمد بن يزيد ، المبرد ، وقدح ذلك فى حالى عنده (٢).

وليس من الضرورى أن يكون التجديد اختراعا محضا لم يسبق إليه الشاعر ، فيكفى أن يكون توليداً وهو يأتى فى المنزلة الثانية بعد التجديد .

والتوليد (٣) : أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ، فلذلك يسمى التوليد .

---

(١) الجميم : النبت الغزير .
(٢) زهر الآداب ـ ٢ ـ ٢١٦
(٣) العمدة ـ ١ ـ ١٧٧

وهو ليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً : سرقة ، إذ كان ليس آخذاً على وجهه .

مثال استخراج معنى من معنى متقدم قول ابن أبى ربيعة أووضاح اليمن :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلةَ لا ناه ولا زاجرُ

ولّده من قول امرىء القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموَّ حَباب الماء حالا على حال

فولّد معنى مليحاً اقتدى فيه بمعنى امرىء القيس دون أن يشركه فى شىء من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا فى المحصول ، وهو لطف الوصول إلى حاجته فى خفية .

والمعنى الذى يريده امرؤ القيس : إخفاء شخصه .[1]

ومثال مازيد فيه زيادة قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

نظر فيه إلى قول جرير :

يخرجن من مستطير النقع دامية كأن آذانهـا أطراف أقلام

فولّد بعد ذكر القلم إصابتَه مدادَ الدواة بما يقتضيه المعنى إذ كان القرن أسود .

ولا شك أن التوليد أكثر من الاختراع وأسهل ، وعليه المعول فى تنمية صور البيان .

ولو أنك تصفحت دواوين الشعراء المعاصرين وبخاصة المطلعين منهم على آداب الغرب ، لرأيت ألوانا من التجديد فى التشبيه أمدتهم بها المدنية الحديثة التى انبسط ظلها على كل شىء ، والمعارف الحديثة التى امتد سلطانها حتى على الذر فى مكامنه السحيقة .

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ــ ٧٥

فمن ذلك قول البارودى يصف القطن :

والقطن بين ملوَّز ومنوِّر ... كالغادة ازدانت بأنواع الحلى

وقوله يصف الثريا :

وترى الثريا فى السماء كأنها ... حلقات قرط بالجمال مرصَّع

وكأنها أُكَرٌ تَوقَّد نورُها ... بالكهرباءة فى سماوة مصنع (١)

وقوله فى المصورة الشمسية :

ألا يا لَقومى من غزال مُربَّب ... يجول وشاحاه على فَنَن رطب

تعرض لى يوما فصورت حسنه ... بِلُّورتىْ عينىَّ فى صفحة القلب

وقوله من قصيدة يهنىء بها الخديو إسماعيل بولاية مصر :

فاستجلها تلمحْ خلالك بينها ... فى وشى بُرد للكلام قشيب

كزجاجة التصوير شفَّت فاجتلت ... من وصفه ما كان غير قريب

وقول شوقى فى السفينة والبدر :

وكأنها والموج منتظم وقد ... أوفيتَ ثم دنوت كالمختار

غيداء لاهية تخط لأغيد ... شعرا ليقرأه وأنت القارى

وقوله فى أنس الوجود :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ... ممسكا بعضها من الذُّعر بعضا

كعذارى أبدينَ فى الماء بضا ... سابحات به وأخفين بضا

وقوله من رثاء الزعيم مصطفى كامل :

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحيـاة دقائق وثوان

---

(١) المعروف : الكهربى بالقصر .

وقوله من أندلسية :

نَفَسى مِرجل وقلبى شراع ... بهما فى الدموع سيرى وأرسى

وقوله فى الطيارة :

حمل الفولاذَ ريشاً وجرى ... فى عنانين له نار ومـــاء

وقوله فى الغزل :

ناقوس القلــب يُدَق له ... وحنايا الأضلع معــبَده

وقوله :

كرةالأرض كم رمت صَـولجانا ... وطوت من ملاعب وجياد

وقول حافظ فى القطار :

ياحديداً ينساب فوق حديد ... كانسياب الرقطاء فوق الرغام

وقوله فى الشركات :

وما الشركاتالسود فى كل بلدة ... سوى شَرَك يُلقى به من تصيّدا

وقوله :

فمرت بأرواحنا هزة ... هى الكهرباء بتيارها

وقوله :

إذا ما أهابوا أجاب الحديد ... وقام البخـار له مسـعدا

وطارت إليهم من الكهربا ... بروق على السلك تطوى المدى

وقوله فى النيل :

كأنه ورجال الرى تحرسه ... مَلك سار فى جند وأعوان

وقوله فى مدح الأستاذ « الإمام » :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطست ... بحبك أنّى حرِّفت عنك تعطف

كأن يراعى فى مديحك ساجد ... مدامعه من خشية الله تذرِف

وقوله فى الشكوى :

ودائى كداء الدِّين عزَّ دواؤه   وحظى كحظ الشرق نحس كواكبه

وقوله :

رجائىَ فى قومى ضعيف كأنه   جَنان وزير سوَّدته مناصبه

وقوله فى بعض الصحف :

يحلو بها الكِذْب لأربابها   كأنه أول إبريل (١)

وقول الأسمر — يصف الأنوار الكشافة والمدافع المضادة — :

كأن شعاع الكاشفات سواعد   يقلِّبها فى الليل من ليس يبصر

كأن أسوداً أبصرت فوق غابها   نسوراً فقامت فى نواحيه تزأر

وقول غنيم فى سيقان الحسان السابحات فى الماء :

وإذا ما رأيت رأى العين   منظر السوق غصن فى الأمواج

قلت واد أديمه من لجين   نبتت فيه غابة من عاج

ولبعض العصريين فى السيقان أيضا :

قال قوم لىَ صفها   قلت نثراً قيل شعراً

قلت أكواب من البلور   م قد أُترعن خمراً

وقوله فى وصف تقلب الإنجليز :

عمالهم ومحافظوهم طينة   فيها تساوى البغى والتغرير

فى كل يوم تستجدُّ طبيعةٌ   لهم كأن أباهم « إمشير »

وقول محمود حسن إسماعيل من قصيدة عنوانها « سواقى إبريل » :

الطير مبهور الجنا   ح كجفون المدمن

والعشب منضور الصبا   ح كجبين المؤمن

---

(١) أول إبريل يستباح فيه الكذب ، وهى بدعة غربية .

والأفق أبكار عذا ... رى فى رحيق الوسن
والنحل مزمار شق ... م بيمين أرعن
والنخل فى بحر الضيا ... ء كسوارى سفن
والنهر خُلد تائه ... لم يدر أى وطن
والموج ذكرى شاعر ... مر غريب الشجن

والتجديد من الأشياء المعشّقة المحببة بالفطرة إلى النفوس ، والأثيرة بالجبلّة لدى القلوب ، تبعاً للقاعدة البلاغية النفسية : وهى أن تجدد الصورة عند النفس أحب إليها وألذ عندها من مشاهدة معاد [1] ؛ لأن هذا التجديد يَهب لها رَوحا ونشوة ، ويدخل عليها بسطا وأنسا ، وينقلها من الضيق والسآمة والركود إلى ساحة فسيحة ندية خضراء مونقة !

وقد عرف أسلافنا قيمته فكانوا يُغرون به ويُحثون عليه ويجزلون الصلة لأهله .

فهذا الأخطل يدخل يوما إلى الخليفة عبد الملك ، فيقول : يا أمير المؤمنين ، قد امتدحتك فاستمع منى .

فقال : إن كنت شبهتنى بالصقر والأسد فلا حاجة لى بمدحك ، وإن كنت قلت كما قالت أخت بنى الشَّريد ، الخنساء ، لأخيها صخر ، فهات .

فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين ؟

قال : هى التى تقول :

وما بلغت كف امرىء مُتناولٍ ... بها المجدَ إلا حيثما نلت أطول
وما بلغ المهدون فى القول مدحة ... ولو أطنبوا إلا الذى فيك أفضل

فقال الأخطل : والله لقد أحسنت القول ! ولقد قلت فيك بيتين ماهما بدون قولها ! قال : هات .

(١) المفتاح ــ ١٧١

فأنشد :

إذا مت مات العُرف وانقطع الندى من الناس إلا فى قليل مصرَّد [1]

ورُدت أكف الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخِلف مجدَّد [2]

فأحسن صلته [3] !

وليس فى شعر الأخطل عيب سوى مواجهة الخليفة بذكر الموت فذلك يجافى الذوق السليم ؛ فإنه — كما يقول العسكرى — : ليس يحسن أن يقال للممدوح : إذا مت ! فإن استماع ذلك مكروه ، وإن كانت الشعراء قد استعملته فى كثير من مقاماتها [4] .

وعن ابن عائشة عن أبيه : قال عبد الملك يوما — وقد اجتمع الشعراء عنده — : تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر ، وبالبحر والبحر أُجاج ، وبالجبل والجبل أوعر !

ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم بن فاتك فى بنى هاشم :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء

أأجعلكم وأقواما سواءً وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأعينهم وأرؤسهم سماء

وقال الربيع حاجب المنصور : قلت له يوما : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم !

فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم : من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب ! ولا بالحية فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب ، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم ، ولا بالبحر فإنما هو

---

(١) المصرد : القليل . (٢) الخلف المجدد : ضرع الناقة المقطوع .

(٣) فى أمالى المرتضى — ٣ — ١١٣ : أن الخليفة «معاوية» وهو غير صواب .

(٤) ديوان المعانى — ٢ — ٢٧

غُطامط لجب [1] ! ومن ليس فى شعره هذا فليدخل ، ومن كان فى شعره فلينصرف !

فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فإنه قال : أنا له ياربيع، فأدخلنى .

فأدخلته ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور : ياربيع ، قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره ! هات يابن هرمة !

فأنشد قصيدته التى يقول فيها :

له لحظات عن حِفافى سريره ... إذا كرّها فيها عقاب ونائلُ
هو الطينة البيضاء من آل هاشم ... إذا اسودّ من لؤم التراب القبائل
إذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى ... وإن قال إنى فاعل فهو فاعل

فقال : حسبك ! هنا بلغت ! هذا عين الشعر ! قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم .

فقمت إليه فقبلت رأسه وأطرافه !

ثم خرجت فلما كدت أخفى عن عينيه ، سمعته يقول : يا إبراهيم !

فأقبلت إليه فزعا ، فقلت : لبيك ! فداك أبى وأمى !

قال : احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها ! فقلت : بأبى وأمى أنت ! سأحفظها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتم الجهبذ [2] .

وقال أبو هفان : اجتمع الشعراء بباب المعتصم ، فقعد لهم محمد ابن عبد الملك الزيات ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : من كان يحسن أن يقول مثل قول النمرى فى الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إن أخلف القطر لم تُخلف مخايله ... أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

---

(1) غطامط : مضطرب الموج . (2) العقد الفريد ــ 1 ــ 165 .

فقال محمد بن وهيب : فينا من يقول مثله ثم أنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحا وأبو إسحق والقمر [1]
تحكى أفاعيله فى كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر

قال : فأجازهم وفضل ابن وهيب [2] .

ومن كلام أبى الوليد الشقندى يفاخر ابن المعلم الطنجى من بر العدوة ببلده الأندلس [3] :

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاحى ، وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخد بالشقائق ، فتلطف لذلك فى أن يأتى به فى منزع يصير خلقه فى الأسماع جديداً ، وكليله فى الأفكار حديداً ، فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، وهو ابن الزقاق حيث يقول :

وأغيد طاف بالكئوس ضحا وحثها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبرى قد نفحا
قلت وأين الأقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلما تبسم افتضحا

وقوله :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

وفى مصر قامت دعوة لتجديد الشعر تتمثل فى الشعراء الثلاثة : شكرى والمازنى والعقاد .

(١) أبو إسحاق : كنية المعتصم . (٢) ديوان المعانى — ١ — ٢٨ .
(٣) نفح الطيب — ٢ — ١٤٤ .

وهى دعوة معتدلة لا تعقّ الشعر العربى ولا تمسخه ولا تنكر ما يجب أن يتوافر له من جمال الصياغة وعذوبة الموسيقى ، ولكن تنكر على الشعراء أن يتشبثوا بالأساليب القديمة ، والأغراض القديمة ، ويحافظوا على سلفية الشعر فى أوزانه وقوافيه وأخيلته .

ونرى لحافظ صيحة فى هذا المعنى يقول فيها — يخاطب الشعر — :

ضعت بين النهى وبين الخيال ¤ يا حكيم النفوس يابن المعالى
ضعت فى الشرق بين قوم هجود ¤ لم يفيقوا وأمة مكسال

. . . . . .

عشت ما بينهم مُذالا مضاعا ¤ وكذا كنت فى العصور الخوالى(١)

. . . . . .

إلى أن يقول :

آن ياشعر أن نفُك قيودا ¤ قيدتنا بها دعاة المُحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ¤ ودعونا نَشمّ ريح الشَّمال

ويقول مخاطبا شوقى فى حفلة مبايعته أميراً للشعراء :

وقفنا على النهج القويم فإننا ¤ سلكنا طريقا للهدى غير مهيَع
ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة ¤ بهند ودعد والرباب وبوزع
وملّت بناتُ الشعر منا مواقفا ¤ بسقط اللّوى والرقمتين ولعلع
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم ¤ وما كان نوم الشعر بالمتوقّع
ونحن كما غنّى الأوائل لم نزل ¤ نُغنّى بأرماح وبيض وأدرع
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدى ¤ لشىء جديد حاضر النفع ممتع

---

(١) المذال : المهان .

إلى أن يقول :

فإن كنتَ قوّالا كريما مقالُه فقل في سبيل النيل والشرق أودع

على أنه يجب أن نلزم جانب الاعتدال والاتزان فى التجديد فلا ننطلق كالمهر الأرِن نحطم بنية الشعر ، ونطمس ألفاظه ، ونؤثر الأساليب المهلهلة والموسيقى الشاحبة ، ونهيم فى أودية من الخيال الجامح الأرعن الذى لا تحده حدود ولا تمسكه شكائم .

ونرفض كل تعبير قديم ، ونعرض عن كل أسلوب تاريخى غابت عن بيئتنا حقيقته وخفى علينا أصله ، فإن هناك نوعا من التعبيرات والمجازات تبين عن تاريخ الأمة وحياتها فى طور من أطوارها ، فيشيع استعماله ويشتهر معناه حتى يفهمه السامع من غير حاجة إلى تفكير وتدبر أو بحث وتمعن ، وإنما هى تعابير أصبحت تقاليد سارت فى الأمة أو « كليشهات » اصطلح عليها ، فلا عيب إذن فى استعمالها ، ولم يتحرج أى أديب من الاستعانة بها .

ولغات الأمم الأخرى حفظت كثيراً من عاداتها القديمة وتاريخها فى تعابيرها ولم تغيرها ولم تجددها .

يقال فى الإنجليزية لمن يبالغ فى كلامه : ينزع فى القوس الطويلة .

وفى تقدير المسافة : على رمية سهم .

ويقال فى الفرنسية — لمن يتوسل إلى غاية بكل وسيلة — : يبرى سهاما من كلّ خشب (١) .

ولا تزال الكلمة المأثورة « ألق بدلوه فى الدلاء » حية ناضرة فى تعبيراتنا الحديثة .

وقد استعملها الدكتور صلاح الدين باشا وزير الخارجية المصرية فى

---

(١) التجديد فى الأدب المصرى الحديث — ٧٨ — ٧٩ للاستاذ عبد الوهاب حمودة .

خطابه العظيم الذى ألقاه فى الدورة السادسة للأمم المتحدة بباريس فوقعت موقعها غير نابية ولا قلقة [١] .

إن التاريخ يبين أن الفن يتغير من حين إلى حين ، وأن تغيراته تقابل تغيرات الأخلاق والحالة الاجتماعية واللغات وحتى أشكال الحكم والسياسة ، ولكن هيهات أن يبرهن التاريخ على أن هذه التغيرات تنطوى حتما على شىء من الانحطاط فى الحاضر أو فى المستقبل ، بل نذهب إلى أبعد من ذلك ونتساءل : ماهى علامة التقدم فى كائن شاعر ؟

هى أن يستطيع بوصوله إلى درجة أرقى أن يشعر بإحساسات وانفعالات جديدة دون أن يفقد قدرته على الشعور بما فى انفعالاته القديمة من جميل أو عظيم .

وهذا بعينه ما يتم للإنسان الحديث فيما يتعلق بالانفعالات الفنية ؛ فنحن على تذوقنا فن العصر الذى نعيش فيه والوسط الذى نضطرب فيه نظل قادرين على الإعجاب بأفكار وآثار عصر مضى .

صحيح أن كل فن لا يمكن أن يعيش مرة أخرى فى وسط جديد على نحو ما عاش فى الوسط القديم ولكن ليس معنى هذا أنه سيموت .

إن روائع الآثار الفنية ينهض بعضها إلى جانب بعض كذرا عالية لا يستطيع جديدها أن يسحق قديمها [٢] .

فالتجديد إذن شىء واجب ، لأنه أمارة الحياة وعنوان سير القافلة إلى الأمام ولكن لا يصح أن يكون من هذا النوع :

تُشع بك الخواطر عن نفوذ   أشعة إكسَ فى معنى ومبنى

* * *

(١) انظر الصحف الصادرة فى ١٧ / ١١ / ١٩٥١

(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة — ٩٢ — ٩٣

وابسـمى للقلوب تعبدك جهرا   إنما أنت كالإله الوديع

* * *

شأنها كالعنصر الرد   يوم فى بأس وسحر

* * *

مثل وحى مجنح مر غنو   جا من الريش فى مقلتين حييا
ساكبا فيهما من الليلة القمراء   م أم تاركا من الريش شيّا

* * *

أنا ثروة كالكآ   بة عمقا وكالغيهب

* * *

تتكى رحمة العلا بين جفنيه   م اتكاء السنا بحضن البرية [1]

* * *

أما حبيبي فهو ذاك الشذا   كأنه طيف الهنا الأزرق

والدكتور ناجى من المجددين المعتدلين ، ولكننى قرأت له وصفا غريبا لطيف ابتسامة الراقصة ، سامية جمال ، عجبت كيف يصدر منه، وهو : ألا تعجبك هذه الثنايا التى تشبه أقداما صغيرة حمية فى حلبة مضيئة [2] !

أى علاقة بين الثنايا والأقدام الصغيرة ؟ وكيف تشبه الثنايا بالأقدام وإن كانت أقدام ملائكة لا أقدام خيل !

(١) الضمير للمسيح عليه السلام .
(٢) مجلة الكواكب عدد ـ ٣١ ص ـ ٤٤

الفصل التاسع عشر

التشبيه المؤكد والاستعارة

يلاحظ المتتبع لما أورده البلغاء القدامى من أمثلة التشبيه المحذوفة الأداة والاستعارة أن كثيراً منهم يخلط بينهما .

فالعسكرى (١) جعل من باب الاستعارة قوله — تعالى — «هُنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لباس لهن» .

حقيقته : تماسّ المرأة زوجها وزوجها يماسها .

والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسة .

ثم يقول : ويحتمل أن يقال : إنهما يتجردان ويجتمعان فى ثوب واحد ويتضامّان ، فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس ، فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة .

وكذلك عدّ من الاستعارة قوله — تعالى — : «وقدِمنا إلى ما عمِلوا من عمل فجعلناه هَباء منثوراً» .

حقيقته : أبطلناه حتى لم يُحصل منه على شيء .

وقوله — تعالى — : «أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا» .

حقيقته : ذا سرور .

والاستعارة أبلغ لأن العادة جرت فى الأعياد بتوفير السرور عند

---

(١) الصناعتين — ٢٥٩ ومابعده .

الصغير والكبير ، فتضمّن من معنى السرور ما لا تتضمنه الحقيقة .

وقول علي — ض — : السفر ميزان القوم ، والعلم قفل، ومفتاحه المسألة ، والحلم والأناة توءمان نتيجتهما علو الهمة .

وقول معاوية — ض — : العيال أَرَضة المال [١] .

وفى بعض الروايات : العيال سوس المال .

وقول أكثم بن صيفى : الحلم دعامة العقل .

وقول العرب : هذا رأس الأمر ووجهه ، وهذا جناح الحرب وقلبها ، وهؤلاء رءوس القوم وجماجمهم وعيونهم ، وفلان ظهر فلان ، وهم لسان قومهم ونابهم وعضُدهم .

وهذه سرة الوادى ، وبابل عين الأقاليم ، وهذا أنف الجبل وبطن الوادى .

وقول العلماء : هذا ميزان القياس .

حقيقته : تعديل القياس .

والعروض : ميزان الشعر .

حقيقته : تقويمه .

وعد من الاستعارة أيضاً قول أبي تمام :

صفت مثلما تصفو المدامُ خِلاله ورقّت كما رق النسيم شمائله

ويقول ابن رشيق فى قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود والتوى وساق الثريا فى مُلاءته الفجر

وفى بعض الروايات : حتى ذى العود فى الثرى

استعار للفجر ملاءة وأخرج لفظه مخرج التشبيه [٢] .

---

(١) الأرضة : دويبة قارضة . (٢) العمدة — ١ — ١٨١ .

وهو استعارة عند ابن سنان الخفاجى ، ونص قوله : لأن الفجر لما غطى الليل ببياضه وشمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى ، وعبر بطلوع الثريا وقت الفجر : بأنه لفها فى ملاءته ، وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة [١] .

ويقول ابن رشيق فى بيت أبى تمام :

والله مفتاح باب المعقل الأشب

جعل اسم الله — تعالى — مفتاحا !

وأى طائل فى هذه الاستعارة مع مافيها من البشاعة والشناعة ! وإن كنا نعلم إنما أراد أمر الله وقضاءه [٢] .

ويقول : واسترذل قول بعض المولدين :

اسفرى لى النقاب يا ضَرة الشمس

أتراه ظن : أن الضرة لا تكون إلا حسنة ، وإلا فأى وجه لاختياره هذه الاستعارة ؟

وعدّ من الاستعارة قول المتنبي :

صدمتهم بخميس أنت غرته   وسمهريّته فى وجهه غَمَم [٣]

وقد فطن القاضى الجرجانى إلى اضطرابهم بين التشبيه المؤكد والاستعارة فنسمعه يقول : وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مَثَل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه   فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة . وإنما معنى البيت : أن الحب مثل

---

(١) سر الفصاحة — ١١٣ .   (٢) العمدة — ١ — ١٨٣

(٣) المصدر المتقدم — ١ — ١٨٦ .

ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثَل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فى مكان غيرها [1] .

ويقول ابن الأثير : رأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجى — رحمه الله تعالى — قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر أداه ولم يفرق بينهما ، أو تأسّى فى ذلك بغيره من علماء البيان : كأبى هلال العسكرى والغانمى والآمدى ، على أن الآمدى كان أثبت القوم قدما فى فن الفصاحة والبلاغة . وما أعلم كيف خفى عليه الفرق بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة !

ثم يقول : وقد أورد ابن سنان من الاستعارة فى كتابه الموسوم بسر الفصاحة قول امرىء القيس فى صفة الليل :

فقلت له لما تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة ، لأن المستعار له مذكور وهو الليل [2] .

ونحن نوافقه على أن الخفاجى لم يفرق كمن سبقوه بين الاستعارة والتشبيه المضمر الأداة ، ولكن نخالفه فى أن هذا البيت من التشبيه .

فالحق أنه استعارة ، وهو — فيما زعم ابن وكيع — : أول استعارة وقعت .

فاستعار لليل سُدولا يرخيها — وهى الستور — وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يُردفها ، وكلكلا ينوء به [3] .

وكذلك عده من الاستعارة العسكرى والآمدى والباقلانى [4] .

---

(١) الوساطة — ٤٠ .   (٢) المثل السائر — ١٥٢
(٣) العمدة — ١ — ١٧٦
(٤) الصناعتين — ٢٧٢ — الموازنة بين الطائيين — ٢٣٥ — إعجاز القرآن — ٧٤ — ٧٥

فابن الأثير وقع فيما أخذه على غيره ، وإن كان خطؤه يرجع إلى الوهم لا إلى الخلط والاضطراب .

على أن الخفاجي وإن خلط حيناً بين أمثلة التشبيه المؤكد والاستعارة كقول الوأواء الدمشقي :

فأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العُنّاب بالبَرد

فقد عده من التشبيه .

إلا أن قوله صريح فى أن التشبيه المضمر الأداة عنده غير الاستعارة ؛ فقد أورد هذا السؤال حين عرض لهذا الموضوع : فإن قال قائل : ماالفرق بين الاستعارة والتشبيه ؟

قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن الرمانى ، وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه فى الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ما ليست العبارة له فى أصل اللغة .

ثم يقول على أن الرمانى قال فى كلامه : إن التشبيه فى الكلام ، بأداة التشبيه .

وهو يعنى : كأن والكاف وما جرى مجراهما .

وقد اعترض الخفاجي عليه فى ذلك بقوله : وليس يقع الفرق عندى بين التشبيه والاستعارة بأداة الشبه فقط ، لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ويكون حسناً مختاراً ، ولا يعدُّه أحد فى جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه .

ومن هذا قول الشاعر :

سفرن بدوراً وانتقبن أهِلّة ... ومِسن غصوناً والتفتن جآذرا[1]

فالخفاجي كما ترى يفرق تفريقا واضحا بينهما .

---

(١) سر الفصاحة — ١١١

ويعتنق هذا الرأى جمهرة البلغاء ، ويقتضينا إشباع البحث أن نسوق آراءهم فيما يلى :

يقول عبد القاهر : إن الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما كان ذلك على وجهين :

١ — أن يسقط ذكر المشبه حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته نحو : عنَّت لنا ظبية ، وأنت تريد امرأة .

٢ — أن يذكر كل واحد من المشبه والمشبه به ، فتقول : زيد أسد ، وهند بدر .

والوجه الذى يقتضيه القياس ، ويدل عليه كلام القاضى الجرجانى فى الوساطة ألا تطلق عليه الاستعارة ، ولكن نقول : هو تشبيه ، ونقول فى الأول: استعارة .

والفرق بينهما : أنك عزلت فى القسم الأول « عنت لنا ظبية » الاسمَ الأصلى عنه واطرحته وجعلت كأن ليس باسم له ، وجعلت الثانى « المشبه به » هو الواقع عليه والمتناول له ، فصار قصدك التشبيه أمراً مطوياً فى نفسك مكنونا فى ضميرك .

وليس كذلك القسم الثانى « زيد أسد » ، لأنك قد صرحت فيه بالمشبه ، وذكرك له صريحاً يأبى أن تتوهم كونه من جنس المشبه به ، وإذا سمع السامع قولك : « زيد أسد » و « هذا الرجل سيف صارم على الأعداء » استحال أن يظن — وقد صرحت له بذكر زيد — أنك قصدت أسداً وسيفا .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يفصل بين القسمين ، فيسمى الأول : استعارة على الإطلاق ، ويقال فى الثانى : إنه تشبيه .

وقد عقَّب على ذلك بمثال بارع يتصل بالمعانى النفسية ، فذكر أن مثل الاسم مثل الهيئة التى يستدل بها على الأجناس كزِى الملوك وزى السوقة ،

فكما أنك لو خلعت عن الرجل أثواب السوقية ، ونفيت عنه كل شيء يختص بالسوقة ، وألبسته زى الملوك فأبديته للناس فى صورة الملوك حتى يتوهموه ملكا ، وحتى لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا بإخبار واختبار ، واستدلال من غير الظاهر ، كنت قد أعرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة ، ولو أنك ألقيت عليه بعض ما يلبسه الملك من غير أن تعريه من المعانى التى تدل على كونه سوقة لم تكن قد أعرته بالحقيقة هيئة الملك ، لأن المقصود من هيئة الملك أن تحصل بها المهابة فى النفس وأن يتوهم العظمة ، ولا يحصل ذلك مع وجود الأوصاف الدالة على أن الرجل سوقة .

فإذا كان السامع قولك « زيد أسد » لا يتوهم أنك قصدت أسداً على الحقيقة ، لم يكن الاسم قد لحقه ، ولم تكن قد أعرته إياه إعارة صحيحة ، كما أنك لم تعر الرجل هيئة الملك حين لم تزل عنه ما يعلم به أنه ليس بملك .

هذه خلاصة [١] ما قاله الإمام عبد القاهر فى هذا الموضوع ، على أنه لا يمنع أن يسمى القسم الأول تشبيها بحسب مضمون الحال لا بحسب ما يوجبه ظاهره [٢] ، ويزيد على ذلك بأنه يعترف فى أن إطلاق الاستعارة على مثل : زيد أسد لا يخلو من الشبهة [٣].

ويقول الزمخشرى [٤] فى قوله — تعالى — : « صم بكم عمى » : فإن قلت : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟

قلت : مختلف فيه ، والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون، والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر

---

(١) انظر أسرار البلاغة « فصل فى الفرق بين الاستعارة والتمثيل — ١٩٢ و « فصل فى الفرق بين الاستعارة والتشبيه » — ٢٦٠

(٢) المصدر المتقدم — ٩٧ (٣) المصدر المتقدم — ٢٦٢

(٤) الكشاف — ١ — ٣٢ .

المستعار له ، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحا لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام .

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ ، فأتساق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه فى حكم المنطوق به نظيره ، قول من يخاطب الحجاج :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر (١)

وفصل الرازى تفصيلا جميلا مستوعبا ، فجعل الاسم إذا قصد إجراؤه على غير ما هو له لمشابهة بينهما على ثلاثة أقسام :

١ — إذا سقط ذكره فهو استعارة بالاتفاق كقولك : وردت بحرا .

٢ — إذا لم يسقط وذكرت الصيغة الدالة على المشابهة ، فهو ليس من الاستعارة بالاتفاق كقولهم : زيد كالأسد .

٣ — إذا لم تذكر الصيغة الدالة على المشابهة مثل قولهم : هند بدر ، فقد اختلفوا فيه ، والحق أنه ليس من الاستعارة .

والدليل على ذلك أن الاستعارة لتمام المبالغة ، ووجود المشبه يقدح فى هذا التمام ، لأنك قد تركت شيئا يدل على أنه ليس بأسد فى قولك : زيد أسد .

ثم قفىّ على ذلك بتعليل نفسى من جنس ما قاله عبد القاهر وهو : أن شرط المستعار أن يحصل للمستعير منافعه على الحد الذى يحصل للمالك ، فإن كان ثوبا لبسه كما يلبس المالك ، حتى إن الرائى إذا رآه معه لم يميز بينه وبين المالك .

فإذا قلت : رأيت أسداً يفيد بإطلاقه أنك قصدت الجنس المعلوم ، فقد وقع الاسم من الشجاعة موقعه من الحيوان المخصوص ، وانتفع المستعار له بالمستعار مثل المستعار منه .

(١) الفتخاء : اللينة الجناح .

وقولك : زيد أسد لم يقع ذلك الموقع من حيث أن ذكره باسمه يمنع من أن يصير الاسم متناولا له ، فكان بمنزلة أن يعير المالك الرجل شيئا ويمنعه من الانتفاع به .

ولأن الإثبات والنفى فى الخبر يتوجهان إلى الخبر لا إلى المبتدأ ، فإذا قلت : زيد أسد فالإثبات يتوجه إلى إثبات الأسدية ، والتصريح بذكر زيد يمنع من أن المقصود إثبات حقيقة الأسدية له ، فحينئذ يتعين أن يكون المراد منه إثبات صفة من صفات الأسدية .

فإذا لم تجعله خبرا لكن فاعلا كقولك : لقينى أسد ، أو مفعولا كرأيت أسدا ، أو مضافا إليه أو مجرورا كرأيت جبهة الأسد، ومررت بأسد لم يتوجه الإثبات فى هذه المواضع إلى كونه أسدا بل إلى إسناد غيره له.(١)

ويقول فى موضع آخر : فى مثل زيد أسد : إنك ما ذكرت زيدا باسم الأسد ، بل ذكرته باسمه الخاص ، فلا جرم ليس ذلك باستعارة(٢) .

ويقول ابن الأثير : التشبيه تشبيهان :

١ — تشبيه مظهر الأداة كقولنا : زيد كالأسد .

٢ — تشبيه مضمر الأداة كقولنا : زيد أسد .

وهذا التشبيه المضمر الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما ، وهذا خطأ محض .

ثم أخذ فى توضيح المضمر الأداة فقال : إذا ذكر المنقول والمنقول إليه على أنه تشبيه مضمر الأداة ، قيل فيه : زيد أسد : أى كالأسد ، فأداة التشبيه فيه مضمرة .

وإذا أظهرت حسن ظهورها ولم تقدح فى الكلام الذى أظهرت فيه ، ولا تزيل عنه فصاحة ولا بلاغة ، وهذا بخلاف ما إذا ذكر المنقول إليه

---

(١) نهاية الإيجاز — ٨٦ (٢) المصدر المتقدم — ٨٢

دون المنقول ، فإنه لا يحسن فيه ظهور أداة التشبيه ، ومتى أظهرت أزالت عن ذلك الكلام ما كان متصفا به من جنس فصاحة وبلاغة ، وهذا هو الاستعارة .

وقد مثل لذلك بقول بعض الشعراء :

فرعاء إن نهضت لحاجتها عجل القضيب وأبطأ الدِّعص (١)

فهذا قد ذكر فيه المنقول إليه دون المنقول ، لأن تقديره : عجل قدّ كالقضيب ، وأبطأ ردف كالدعص .

وبين إيراده على هذا التقدير ، وبين إيراده على هيئته فى البيت بون بعيد فى الحسن والملاحة .

والفرق إذن بين التشبيه المضمر الأداة والاستعارة بحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ذلك فيها .

وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول إليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول .

وقد أورد ابن الأثير اعتراضات على هذا الموضوع تكفّل بالجواب عنها ، وهذه خلاصتها :

١ — يقال : إن الفرق بين التشبيه والاستعارة يكون بذكر أداة التشبيه لا بما ذكرت ، فإذا ذكرت الأداة نحو زيد كالأسد كان تشبيها ، وإن لم تذكر كنحو زيد أسد كان استعارة .

والجواب : إذا لم نجعل قولنا : « زيد أسد » تشبيها مضمر الأداة استحال المعنى ، لأن زيدا ليس أسدا وإنما هو كالأسد فى شجاعته ، فأداة التشبيه تقدر هنا ضرورة كى لا يستحيل المعنى .

٢ — يقال كذلك : عدم تقدير أداة التشبيه فى مثل :

عجل القضيب وأبطأ الدعص

---

(١) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة .

يستحيل به المعنى ، لأن القد ليس بقضيب ولا الردف بدعص على الحقيقة ، وإنما الشبه فى التثنى والكبر .

والجواب : أن تقدير أداة التشبيه لابدّ منه فى الموضعين ، وإنما حسن إظهارها فى موضع دون موضع . فعلمنا أن الموضع الذى حسن إظهارها فيه غير الموضع الذى لم يحسن فيه إظهارها ، فسمينا الأول : تشبيها مضمر الأداة والآخر استعارة ، وهى تسمية لائقة بهما .

٣ — يقال : إذا أجزت إضمار أداة التشبيه وقدرت إظهارها فى قولك : زيد أسد : أى كالأسد ، فنحن نضمر أيضا المستعار له ونقدر إظهاره ، فإن الشاعر لما قال :

عجل القضيب وأبطأ الدعص

أضمر المستعار له وهو القد والردف ، وإذا أظهر قيل : عجل قد كالقضيب وأبطأ ردف كالدعص ، ولا فرق بين الإضمارين ، فكما يسعك إضمار أداة التشبيه فى قولك : زيد أسد ، فكذلك يسعنا نحن إضمار المستعار له فى قول الشاعر .

والجواب : أننا واقفون مع الاستحسان لا مع الجواز فى إظهار أداة التشبيه وإضمارها ، وقد علم وتحقق أن من الواجب فى حكم الفصاحة والبلاغة ألا يظهر المستعار له فى الاستعارة ، وإذا أظهر ذهب ما للكلام من حسن ورونق ، فقول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العُنّاب بالبَرد

لاخفاء ما به من حسن ورونق وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له فقلنا : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خدا كالورد ، وعضت على أنامل مخضوبة كالعناب بأسنان كالبرد ، صرنا إلى كلام غثّ ، وفرق واسع بين هذين الكلامين للمتأمل ، وليس كذلك التشبيه

المضمر الأداة ، فإنا إذا أظهرنا أداة التشبيه وأضمرناها كان ذلك سواء ، إذ لا فرق بين قولنا . زيد أسد ، وزيد كالأسد ، والمعول عليه فى تاليف الكلام من المنثور والمنظوم إنما هو حسنه وطلاوته ، فإذا ذهب ذلك عنه فليس بشىء .

هذا إلى أن ما رآه المعترض لا يستقيم له ولو نزلنا عن درجة الحسن الواجبة إلى درجة الجواز ، وذلك أن التشبيه فى مثل : زيد أسد فيه إضمار واحد وهو الأداة ، ولكن فى مثل بيت الشاعر المتقدم :

فرعاء إن نهضت . . . . .

لا تضمر فيه أداة التشبيه إلا بعد أن يظهر المستعار له وهو القد والردف ، وحينئذ يكون فيه إضماران وهما المستعار له وأداة التشبيه ، وإضمار واحد أيسر من إضمارين أحدهما معلّق على الآخر .

وإذا كان الأمر كذلك فالفرق بينهما أن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له [1].

ويقول السكاكى : واعلم أن ليس من الواجب فى التشبيه ذكر كلمة التشبيه « الأداة » ، بل إذا قلت : زيد أسد واكتفيت بذكر الطرفين عد تشبيها ، مثله إذا قلت : كأن زيدا الأسد اللهم إلا فى كونه أبلغ ، ولا يلزم ذكر المشبه لفظا بل إذا كان محذوفا ، مثله إذا قلت : أسد وأى أسد جاعلا المشبه به خبرا مفتقرا إلى المبتدأ كنى ، لقصر المسافة بين الملفوظ به فى الكلام والمحذوف منه بشرائطه فى قوة الإفادة ، وإنما الواجب فى التشبيه إذا ترك المشبه ألا يكون مضروبا عنه صفحا ، مثله إذا قلت : عندى أسد أو رأيت أسدا أو نظرت إلى أسد ، فإنه لا يعد تشبيها .

وإنما عد نحو زيد أسد وقرينه المحذوف المبتدأ : تشبيها ، لأنك حين

---

(١) المثل السائر — ٢ : ١ — ١٤٣

أوقعت أسدا — وهو مفرد غير جملة — خبرا لزيد ، استدعى أن يكون هو إياه ، مثله فى زيد منطلق ، فى أن الذى هو زيد بعينه منطلق ، وإلا كان زيد أسد بجرد تعديد نحو خيل ، فرس لا إسنادا ، لكن العقل يأبى أن يكون الذى هو إنسان ، هو بعينه أسدا ، فيلزم لامتناع جعل اسم الجنس وصفا للإنسان — حتى يصح إسناده إلى المبتدا — المصير إلى التشبيه بحذف كلمته قصدا إلى المبالغة .

وإذا عرفت أن وجود طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على غير التشبيه ، عرفت أن فقد كلمة التشبيه لا تؤثر إلا فى الظاهر ، وعرفت أن نحو رأيت بفلان أسدا ، ولقينى منه أسد ، وهو أسد فى صورة إنسان ، وإذا نظرت إليه لم تر إلا أسدا ، وإن رأيته عرفت جبهة الأسد ، ولئن لقيته ليلقينك منه الأسد ، وإن أردت أسدا فعليك بفلان ، وإنما هو أسد . وليس هو آدميا بل هو أسد ، كل ذلك تشبيهات لا فرق إلا فى شأن المبالغة (١) .

هذا كلام السكاكى وتعبيره ملتو معقد لجريانه فيه على أساليب المنطق والفلسفة ، والمعنى ليس له ولكنه أخذه من عبد القاهر قطيفة فرده كتانا وسلبه إبريزا فأحاله بهرجا ، وإن كان له شىء فيه فهو اللبس والغموض .

وخلاصة كلام عبد القاهر : أن الحالة التى يُختلَف فى الاسم إذا وقع فيها أيسمى استعارة أو لا يسمى ؟ هى التى يقع فيها خبر مبتدا أو خبر كان وإنّ أو مفعولا ثانيا لباب علمت أو حالا .

والاسم إذا وقع فى هذه المواضع ، فأنت واضع كلامك لإثبات معناه ، وإن أدخلت النفى على كلامك تعلّق النفى بمعناه .

(١) المفتاح — ١٨٦ .

وإذا كان الأمر كذلك فانت إذا قلت : زيد أسد ورأيت زيدا أسدا . فقد جعلت اسم المشبه به خبرا عن المشبه .

والاسم يقع خبرا عن الشيء إما لإثبات وصف هو مشتق منه لذلك الشيء كالانطلاق فى قولك : زيد منطلق ، أو إثبات جنسية هو موضوع لها كقولك : هذا رجل .

فإذا امتنع فى قولنا : « زيد أسد » أن تثبت الجنسية لزيد على الحقيقة ، كان لإثبات شبه من الجنس له . وإذا كنا إنما نثبت شبه الجنس فقد اجتلبنا الاسم لنحدث به التشبيه الآن ونقرره وندخله فى حيز الحصول والثبوت ، وإذا كان كذلك كان خليقا بأن نسميه تشبيها إذ كان إنما جاء ليفيده ويوجبه[1] .

هذه آراء من ذهبوا إلى أن التشبيه المضمر الأداة ليس من الاستعارة — وهم أكثرية البلغاء ورءوسهم — وقد أوردنا ماذكروه من الفروق بينهما .

وتقابلهم أقلية تعد هـــذا التشبيه استعارة كالتنوخى وعبد اللطيف البغدادى[2] وغيرهما ، ولهم فى ذلك حجتان :

الأولى : أن الاستعارة ليس لها آلة والتشبيه له آلة ، فما كانت فيه آلة التشبيه ظاهرة فهو تشبيه ، وما لم تـكن فيه ظاهرة فهو استعارة .

فمثل قولهم : زيد الأسد لا آلة فيه فوجب كونه استعارة .

الثانية : أن المفهوم من قولنا : زيد الأسد مثل المفهوم من قولنا : لقيت الأسد وأتانى أسد .

فإذا كان مفهومهما واحداً فى المبالغة والمجاز وقضينا بكون أحدهما استعارة وجب أن يكون الآخر كذلك من غير تفرقة بينهما[3] .

وهناك موقف وسط بين الطرفين ، وهو موقف الخطيب وابن السبكى والعلوى : فالخطيب يقول : فالأصح أنه يسمى تشبيها .

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٢٦٦ (٢) عروس الأفراح ـ ٣ ـ ٣٠٠

(٣) [illegible] ١ ـ ٢٠٦ ـ ٢٠٧

وساق لذلك تعليلا اتكأ فيه على كلام عبد القاهر المتقدم .

ثم عاد فقال : ومن الناس من ذهب إلى أنه استعارة .

وعنده أن الخلاف لفظى راجع إلى الكشف عن معنى الاستعارة والتشبيه فى الاصطلاح ، وما اختاره هو الأقرب لما أوضحه من المناسبة (١).

أما ابن السبكى فقد ساق فى ذلك كلاما كثيرا وعرض لأقوال العلماء فى هذا الشأن فأقر بعضها وفند الآخر .

وزبدة رأيه أن مثل قولنا : زيد أسد يقع على قسمين : تارة يقصد به التشبيه ، فتكون أداته مقدرة ، وتارة يقصد به الاستعارة فلا تكون مقدرة ويكون الأسد مستعملا فى غير حقيقته ، ويكون ذكر زيد والإخبار عنه بما لا يصلح له حقيقة ، قرينة صارفة إلى الاستعارة دالة عليها .

فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه ، وإن لم تقم فنحن بين إضمار واستعارة ، والاستعارة أولى فليُصر إليها .

وهذا الذى ذكرته من تجويز الاستعارة لا يحتاج فيه إلى دليل لأنه مجاز سائغ ، وكما يجوز أن تقول : جاءنى أسد : تريد الاستعارة ، يجوز أن تقول : زيد أسد .

وهذا قياس جلى .

وقد رد على من قال : بأنه تشبيه لا استعارة بقوله : وحاصل كلام الزمخشرى والسكاكى والمصنف ومن تبعهم : أن نحو زيد أسد إنما لم يكن استعارة ، لامتناع حمل الكلام على الحقيقة ، وأن من شروط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة فى الظاهر وتناسى التشبيه .

ولا حاصل لما قالوه لأنا نقول : ليس من شروط الاستعارة صلاحية الكلام لصرفه إلى الحقيقة فى الظاهر ، بل لو عكس ذلك وقيل : لا بد من

---

(١) الإيضاح — ٢٠٢

عدم صلاحيته لكان أقرب ، لأن الاستعارة مجاز لا بد له من قرينة ، وإن لم تكن قرينة امتنع صرفه إلى الاستعارة وصرفناه إلى حقيقته .

وإنما نصرفه إلى الاستعارة بقرينة ، غير أن تلك القرينة تارة تكون معنوية حالية مثل : رأيت أسدا ، وتارة تكون لفظية مثل: زيد مخبرا عنه بالأسد ، فإنه قرينة تصرف الأسد عن إرادة حقيقته .

واستدل السبكى على رأيه بقول ابن مالك فى شرح الكافية : إذا قلت : هذا أسد ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تنزيله منزلة الأسد مبالغة دون أداة تشبيه وأنشد :

لسان الفتى سبع عليه سِداده   فإن لم يَزَع من غربه فهو آكله

والثانى : أن ينوى أداة التشبيه : أى زيد مثل الأسد .

وفى هذين الوجهين لا ضمير فى أسد .

والثالث : أن يتأول « أسد » بصفة وافية بمعنى الأسدية ، ويجرى مجرى ما أوّلته به فيتحمل الضمير ، أما إذا أشرت إلى حيوان مفترس فلا يتحمل ضميراً .

ثم يقول ابن السبكى : وهذا الذى قاله — أى ابن مالك — هو الحق الذى لا محيص عنه ، فظهر بذلك صحة ما قلناه : من أن « زيدا أسد » يصح أن يكون تشبيها وأن يكون استعارة بحسب المقام [١] .

ويقول العلوى : التشبيه المضمر لا يخلو حاله من قسمين :

١ — أن يكون الكلام مسوقا على جهة الاستعارة ، فلو قدرنا ظهور آلة التشبيه لنزل قدره ولخرج من ديباجة بلاغته ، فما هذا حاله يكون من من باب الاستعارة نحو قول الشاعر :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٢٩٨ — ٢٩٩ — ٣٠٠ — ٣٠١

فلو أظهرت الشبه فيه وقلت : فأمطرت دمعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس وسقت خدا كالورد . . . لكان غثا من الكلام فضلا عن أن يكون بليغا .

٢ — أن يكون الكلام متسقا مع ظهور أداة التشبيه ، وهذا كقولنا : زيد الأسد ، فإنك لو قلت : كالأسد كان الكلام سديدا .

ومن هذا قيل : إن قولنا : زيد أسد هو الأحق أن يكون من باب الاستعارة ، وأن يكون قولنا : زيد الاسد من باب التشبيه ، لأن الكاف يحسن إظهارها فى المعرف باللام دون المنكر .

والتفرقة بينهما : أن اللام فى الأسد للجنس فكأنك قلت : زيد يشبه هذه الحقيقة المخصوصة من الحيوان بخلاف المنكّر ، فإنها دالة على واحد من هذه الحقيقة ، فإذا قلت : زيد يشبه واحدا من هذه الحقيقة فلا مبالغة فيه فافترقا .

وقد قرر الزمخشرى فى تفسيره : أن قوله — تعالى — : «ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» يمكن جعله من باب الاستعارة ويمكن جعله من باب التشبيه [١] .

ويلاحظ أن العلوى لم يأت بشيء من عنده بل أخذ كلام ابن الأثير المتقدم فى الحجة الأولى وكلاما لعبدالقاهر «فى تعريف المشبه به وتنكيره» فى الحجة الثانية ، ولفق بينهما ونسبهما لنفسه كما يفعل كثيراً .

والخلاصة : أن التشبيه المضمر الأداة لايعد من الاستعارة عند جمهرة البلغاء وكبرائهم .

ما يحتمل الاستعارة والتشبيه .

وقد يرد من الكلام ما يجوز حمله على الاستعارة وعلى التشبيه المضمر الأداة معاً باختلاف القرينة .

---

(١) الطراز — ٢٠٩

وذاك أن يرد الكلام محمولا على ضمير من تقدم ذكره ، فينتقل عن ذلك إلى غيره ويرتجل ارتجالا .

فما جاء منه قول البحترى :

إذا سفرت أضاءت شمس دجن ومالت فى التعطف غصن بان[١]

فلما قال : أضاءت شمس دجن بنصب الشمس ، كان ذلك محمولا على الضمير فى قوله : أضاءت .

كأنه قال : أضاءت هى ، وهذا تشبيه لأن المشبه مذكور وهو الضمير فى أضاءت الذى نابت عنه التاء .

ويجوز حمله على الاستعارة بأن يقال : أضاءت شمس دجن برفع الشمس ولا يعود الضمير حينئذ إلى من تقدم ذكره ، وإنما يكون الكلام مرتجلا .

وهذا الموضع فيه دقة وغموض ، وحرف التشبيه يحسن فى الأول دون الثانى[٢] .

ومن ذلك أيضاً قول مهيار يمدح الصاحب أبا القاسم بن عبد الرحيم :

إذا الصاحب استقبلت غرة وجهه بدا قمر وافٍ وماس قضيب

فقمر وقضيب : استعارة لعدم الحمل على ضمير متقدم .

ويجوز جعلهما تشبيها إذا قلت فى غير البيت : بدا قمراً وافياً وماس قضيباً فيكونان حالين من الضمير فى بدا وماس .

وجود طرفا التشبيه لا يمنع من الاستعارة .

ومما يجب أن يعلم أن ذكر الطرفين فى التشبيه المضمر الأداة لا يمنع دائماً من الاستعارة ، وإنما يوجد المنع إذا ذكر الطرفان على وجه يراد منه التشبيه[٣] .

---

(١) الدجن : إظلال الغيم . (٢) المثل السائر — ١٤٣ — ١٤٤

(٣) طراز المجالس — ٩ عروس الأفراح — ٣ — ٣٠٣

وفى ظل ذلك عدوا من الاستعارة قول ذى الرمة :

فلما رأيت الليل والشمس حية جياة الذى يقضى حُشاشة نازع

وقول الخنساء :

ترعى إذا نسيت حتى إذا ادَّكرت فإنما هى إقبـال وإدبار

وجعل السكاكى والخطيب وغيرهما منها قول الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيـع

وعتابك السيف .

وجعل الخطيب منها : الحديث الشريف « .. وهم يد على من سواهم »، وصار زيد أسدا .

وجعل الخطيب وغيره منها قوله — تعالى — : « فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » . « فأصبح هشيما تذروه الرياح » .

وجعل الرمانى وغيره منها قوله — تعالى — : « وآتينا ثمود الناقة مُبصرة » وهى حال .

وجعل الرمانى منها قوله — تعالى — : « سراجا منيرا »

وهو حال كذلك .

وجعل صاحب مواد البيان منها قوله ـ تعالى ـ : « أزواجه أمهاتهم » « نساؤكم حَرث لكم » .

والحديث الشريف : « النساء حبائل الشيطان » . « الشباب شُعبة من الجنون » . « المسلم مرآة أخيه »

وقول على — ض — : « السفر ميزان القوم » .

وكذلك يستثنى من كلامهم ـ ما إذا كان المشبه به المذكور خبراً عن المشبه ـ أن يكون التشبيه تمثيلا كقوله ـ تعالى ـ : « والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسمواتُ مَطويَّاتٌ بيمينه »

فإنه استعارة مع ذكر طرفى التشبيه والمشبه به خبر .

وقد اعترض الرازى على ذلك بقوله : لفظ المستعار لا يمكن وقوعه موقع الخبر ولا ما يجرى مجراه كالحال فى قوله ـ تعالى ـ : « ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً »

فعيداً ليس بمستعار على ما ظنه بعضهم لوقوعه موقع الخبر .

وقوله ـ تعالى ـ : « سراجا منيراً »

فالسراج ليس بمستعار لكونه حالا جاء بعد تمام الكلام .

فالمستعار إما أن يكون فاعلا أو مفعولا أو مجرورا أو مبتدأ ؛ كقولك : الأسد مقدام .

وبالجملة يجب أن يكون أصلا فى الحديث عنه[1].

وقد سرى الخلاف إلى قوله — تعالى — : « قالوا أضغاث أحلام » .

قال الزمخشرى : أضغاث الأحلام : تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان .

وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحُزَمه ، الواحد ضِغث فاستعيرت لذلك .

والإضافة بمعنى من : أى أضغاث من أحلام ، والمعنى : هى أضغاث أحلام .

وقد أوردوا عليه : أن استعارة الأضغاث للأحلام الباطلة مع ذكر الأحلام فى الكلام ، وتقدير لفظ « هى » التى تفيد التعبير عن رؤيا مخصوصة يحصل معه ذكر المستعار له وهو مانع من الاستعارة التصريحية .

وقد أجيب عن ذلك بكلام كثير اختلط فيه الخطأ بالصواب ، وأصحه ما قاله الخفاجى وقد قرره فى وجهين .

(١) نهاية الإيجاز — ٨٨ .

١ — أن حقيقة الأضغاث : أخلاط النبات ، وقد شبّه بها التخاليط والأباطيل مطلقا سواء أكانت أحلاما أو غيرها .

ثم أريد هنا بواسطة الإضافة : أباطيل مخصوصة . فطرفا الاستعارة : أخلاط النبات والأباطيل الملفقات .

والأحلام ورؤيا الملك خارجان عنهما ، فلا يضر ذكرهما بالاستعارة كما إذا قلت : رأيت أسد قريش ؛ فهو قرينة أو تجريد .

٢ — أن الأضغاث استعيرت للتخاليط الواقعة فى الرؤيا الواحدة ، فهى أجزاؤها لا عينها .

فالمستعار منه حُزَم النبات والمستعار له أجزاؤها ، كما إذا استعرت الورد للخد ، ثم قلت رأيت ورد هند مثلا ، فإنه لا يقال فيه : إنه ذكر الطرفان .

وقال الفاضل النحرير فى حواشيه : إن ذكر المشبه يمنع الاستعارة ، لأن شرطها ألا يكون مذكوراً ولا فى حكم المذكور ، ولا داعى إلى جعلها استعارة بل الظاهر أنه من قبيل لجين الماء[1].

ومغزى ما تقدم : أن وقوع الاستعارة مع ذكر طرفى التشبيه المضمر الأداة موضع خلاف بين البلغاء .

ولعل هذا يلقى ضوءاً على سبب الخلط بين التشبيه والاستعارة فى بعض أمثال القدماء .

ومما يتصل بهذه الشُّبَه شيئان :

١ — أحدهما أن ينزل ما يقع فى موقع شىء بدلا عنه منزلته بدون

(١) انظر تفصيل ذلك فى طراز المجالس — ٩ — ١٠ — ١١

تشبيه ولا استعارة ؛ وهو فى الاستثناء المنقطع وما يضاهيه سواء أكان بطريق الحمل كقول الشاعر المتقدم :

تحية بينهم ضرب وجيع

أو بدونه كما فى قوله : أُعتبوا بالصيلم [١] .

وهو نوع مما يسمونه « التنويع » ، وحيث أطلق التنويع ؛ فالمراد به هذا كما تراهم يقولون : من باب « تحية بينهم ضرب وجيع » ، فيجعلون المثال أساساً وقاعدة له .

وليس هذا من المجاز لأن طرفيه مستعملان فى حقيقتهما ، ولا تشبيها كما صرحوا به بل التشبيه يعكس معناه ويفسده .

قال الخليل : جعل الضرب تحيتهم كما تقول العرب : كلامك القتل وعتابك السيف .

فليس المعنى : تحية بينهم كضرب وجيع ، بل إن الضرب نوع من التحية غير متعارف قَصداً إلى التهكم .

فلم يرد التشبيه وإنما هو حقيقة بجعل بدل الشىء القائم مقامه فرداً منه ادعاء ، ألا تراك لو قلت :ـ إن كان الضرب تحية فهو تحيتهم ــ كان حقيقة قطعا ، فجعل الفرض المقدر كالظاهر ، وهو نوع على حدة من خلاف مقتضى الظاهر [٢] .

وأيضاً فإن المقصود منه نفى ما صدر به : يعنى لا تحية بينهم .

والتشبيه لا يفيد هذا المعنى .

وفى هذا يقول عبد القاهر : واعلم أنه لا يجوز أن يكون سبيل قوله :

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه

---

(١) الصيلم : الأمر الشديد والداهية والسيف .

(٢) طراز المجالس ــ ٢٨ ــ ٢٩ ــ ٣٠ .

سبيل قولهم : عتابك السيف :

وذلك أن المعنى فى بيت أبى تمام على أنك تشبه شيئا بشىء جامع بينهما فى وصف ، وليس المعنى فى عتابك السيف : على أنك تشبه عتابه بالسيف ، ولكن على أن تزعم : أنه يجعل السيف بدلا من العتاب .

أفلا ترى أنه يصح أن تقول : مداد قلمه قاتل كسم الأفاعى ، ولا يصح أن تقول : عتابك كالسيف ، اللهم إلا أن تخرج إلى باب آخر وشىء ليس هو غرضهم بهذا الكلام ، فتريد أنه قد عاتب عتابا خشنا مؤلما .

ثم إنك إن قلت : السيف عتابك ، خرجت به إلى معنى ثالث ؛ وهو أن تزعم أن عتابه قد بلغ فى إيلامه وشدة تأثيره مبلغا صار له السيف كأنه ليس بسيف(٣) .

ويقول الشهاب الخفاجى(٤) : وليس الشيخ « عبد القاهر » أبا عذرة هذا كما قد يتوهمه بعض من لم يطلع على كلامهم ، بل صرح به النحاة من المتقدمين والمتأخرين ، ونقله ابن عصفور وابن الطراوة كما فى شرح التسهيل لناظر الجيش .

قالوا : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين ؛ إما أن تكون إحداهما قائمة مقام الأخرى أو مشبهة بها أو هى نفسها .

فإن كانت قائمة مقامها كان الخبر ما تريد إثباته نحو قول عبد الملك ابن مروان : كانت عقوبتك عزلك ، وكأن زيداً زهير .

فالعزل ثابت لا العقوبة ، والتشبيه بزهير ثابت .

ولو قلت : كان عزلك عقوبتك : كان معاقبا معزولا .

ولو قلت : كأن زهيراً زيد : أثبت التشبيه لزهير بزيد .

---

(٣) دلائل الإعجاز ـ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ (٤) طراز المجالس ـ ٢٩ .

وقد غَلط ابن الطراوة فى هذا جملة من الشعراء منهم المتنبى فى قوله يمدح سيف الدولة ـ وقد أهدى إليه ثياب ديباج ورمحا وفرسا معها مهرها وكان المهر أحسن ـ :

ثياب كريم ما يصون حسانَها إذا نُشرت كان الهبات صوانَها

الصِّوان : ما يصان فيه الشيء .

والمعنى الذى يريده الشاعر : أنه لا يصون الثياب النفيسة ، بل إذا نشرت خلعها على الناس هبات لهم ، بدل أن يحفظها فى الصوان .

ولكن جريا على القاعدة المتقدمة يعد البيت ذما لا مدحا ، لأنه أثبت فيه صون الثياب ونفى الهبات ، كأنه قال : الذى يقوم لها مقام الهبات : الصوان .

ولم يعدم المتنبى من يدافع عنه بما يقتضى المقام عدم ذكره .

٢ ـ أن يكون فى الصفات والصلات التى توصل بها ما يختل به تقدير التشبيه ، فيقرب حينئذ من القبيل الذى نطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه .

وذلك كقوله (١) :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريصُ الموت منه يُرعَد

لا سبيل لك أن تقول : هو كالأسد أو هو كالموت ، لما يكون فى ذلك من التناقض ؛ لأنك إذا قلت : هو كالأسد فقد شبهته بجنس السبع المعروف .

ومحال أن تجعله محمولا فى الشبه على هذا الجنس أولا ، ثم تجعل دم الهزبر الذى هو أقوى الجنس خضاب يده ، لأن حملك له عليه فى الشبه دليل على أنه دونه ، وقولك بعد : « دم الهزبر من الأسود خضابه » دليل على أنه فوقها .

---

(١) البيت : المتنبى يمدح محمد بن شجاع الطائى .

وكذلك محال أن تشبهه بالموت المعروف ، ثم تجعل الموت يخافه وترتعد منه أكتافه .

وكذا قوله [1] :

سحاب عدانى سيله وهو مُسبل وبحر عدانى فيضُه وهو مفعَم
وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رحلى منه أسود مظلم [2]

إن رجعت فيه إلى التشبيه الساذج فقلت : هو كالبدر ، ثم جئت تقول : أضاء الأرض شرقا وغربا وموضع رحلى ، مظلم لم يضيء به ، كنت كأنك تجعل البدر المعروف يلبس الأرض الضياء ويمنعه رحلك ، وذلك محال .

وإنما أردت أن تثبت من الممدوح بدراً مفرداً ، له هذه الخاصـــة العجيبة التى لم تعرف للبدر .

وهذا إنما يأتى بكلام بعيد من هذا النظم ، وهو أن يقال : هل سمعت أن البدر يطلع فى أفق ، ثم يمنع ضوءه موضعاً من المواضع التى هى معرضة له وكائنة فى مقابلته ، حتى ترى الأرض الفضاء قد أضاءت بنوره وفيما بينها قدر رحل مظلم يتجافى عنه ضوءه ! ومعلوم بُعد هذا من طريقة البيت .

فهذا النحو موضوع على تخييل أنه زاد فى جنس البدر واحداً له حكم وخاصة لم تعرف .

وإذا كان الأمر كذلك صار كلامك موضوعا لا لإثبات الشبه بينه وبين البدر ، ولكن لإثبات الصفة فى واحد متجدد حادث من جنس البدر لم تعرف تلك الصفة فيه للبدر .

وكما يمتنع دخول الكاف فى هذا النحو ، يمتنع دخول كأن وحسب وخال وظن .

والسر : أن هذه الأدوات تدخل إذا كان الخبر والمفعول الثانى أمراً

---

(١) البيت للبحترى يعاتب الفتح بن خاقان .

(٢) الرحل : المسكن ومتاع المسافر ، ورواية الديوان : رجلى

معقولا ثابتاً فى الجملة ، إلا أنه فى كونه متعلقاً بما هو اسم كأن أو المفعول الأول من حسب مشكوك فيه كقولنا : كأن زيداً منطلق ، أو مجازا يقصد به خلاف ظاهره ، نحو كأن زيداً أسد .

فالأسد على الجملة ثابت معروف ، والغريب كون زيد إياه ومن جنسه .

والنكرة فى نحو هذه الأبيات موصوفة بأوصاف تدل على أنك تخبر بظهور شىء لا يعرف ولا يتصور .

وإذا كان كذلك كان إدخال « كأن وحسبت عليه كالقياس على المجهول[١] .

هذا ما قاله عبد القاهر فى هذا الشأن ، ولا مرية أنه فلسف البحث وركب فيه سبيل العقل حتى الغاية ، ولا يظن أن الشاعرين : المتنبي والبحترى جال بخاطرهما شىء مما ذكره .

وقد اعتُرض عليه فعلا فقيل فى بيت المتنبى : يجوز أن يقال ذلك بعد التصريح بالأداة فى الموضعين على أنه إضراب عما يفيده التشبيه من أنه أنقص من المشبه به .

وفى بيت البحترى بأن كل هذا لا يمنع أن يقال : هو كبدر بهذه الصفة على نحو ما سبق فى تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب تشبيهاً خياليا .

ويمكن أن يجاب عن ذلك : بأن عبد القاهر لا يدعى الاستحالة العقلية حتى يمنع هذا التقدير أو نحوه[٢] .

---

(١) بغية الإيضاح للاستاذ عبد المتعال الصعيدى — ٣ — ٩٩ — ١٠٠

الفصل العشرون

بلاغة التشبيه وقوته

قدمنا أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجه الشبه .

والمذكور الأداة يسمى : مرسلا ، لأنه أرسل من التأكيد المستفاد من الأداة .

والمحذوف الأداة لفظا يسمى : مؤكداً ، سواء أكانت الأداة مقدرة في نظم الكلام كقوله — تعالى — : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب » .

أو لم تكن مقدرة فى نظم الكلام بل محذوفة معنوية ، بأن جعل المشبه به محمولا على المشبه مبالغة نحو : محمد أسد .

ووجه المبالغة فيه : أنه يشبه الاستعارة ظاهراً ، بل قد عده بعضهم استعارة كما تقدم والجمهور على خلافه .

والفرق بين المحذوف المنوى والمحذوف المقدر : أن المتروك إذا اقتضاه إعراب الكلام يسمى : محذوفا مقدراً فى نظم الكلام ، وإن اقتضاه جانب المعنى دون اللفظ يسمى : محذوفا منويا ، فحينئذ إن صح تقديره فى النظم قدر فى الكلام وإلا فلا ، لئلا يختل نظم الكلام (١) .

والمذكور الوجه يسمى : مفصلا ، وما حذف وجهه يسمى : مجملا كما سبق ، والسبب فى ذلك واضح .

---

(١) الأقصى القريب — ٢٠٥

وعندهم أن التشبيه يتفاوت فى المبالغة قوة وضعفاً باعتبار ذكر هذه الأركان كلها أو بعضها .

فما ذكرت فيه الأركان جميعاً — وهو المرسل المفصل — يعد خاليا من القوة .

وما حذف وجهه — وهو المجمل — يحتوى على بعض القوة ، من حيث تعميم المشابهة بحسب الظاهر .

وما حذفت أداته — وهو المؤكد — يحتوى على قوة أكثر ، من حيث جعل المشبه كأنه نفس المشبه به ، وما حذف فيه الوجه والأداة — وهو المجمل المؤكد — يعد أقواها لاجتماع القوتين فيه ، وهو المشهور عندهم باسم « البليغ » .

وليس المراد بالبليغ هنا ما كان مطابقا لمقتضى الحال ، فإن المبتذل قد يطابق مقتضى الحال لسوء فهم السامع ، ولكن المراد ما يتخاطب به أذكياء البلغاء ويستحسنونه فيما بينهم [1] .

صور البليغ .

ويأتى البليغ عندهم على الصور الآتية :

١ — أن يقع خبراً سواء أكان مع ذكر المشبه نحو : محمد أسد .

أو مع حذفه ، كقوله — تعالى — : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يبصرون » أى هم : صم بكم عمى ، أو المنافقون : صم . . . . . .

ويجوز أن يجعل المشبه به مبتدا نحو الأسد زيد ، لأن المبالغة فى التشبيه تدور على دعوى الاتحاد ، وجعل المشبه به مبتدا مثل : زيد أسد ، وجعله خبرا ، سيان فى ذلك [2] .

---

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٠٦

(٢) تقرير الأنبابى على حاشية البنانى ج ٤ — ص — ٩

٢ — أن يقع مفعولا ثانيا فى باب « علمت » نحو : علمتك أسداً .

٣ — أن يقع صفة ، نحو : مررت برجل أسد .

٤ — أن يقع مصدراً مبينا للنوع كقول الحسن بن مطير :

يُمَنِّيننا حتى ترِفَّ قلوبنا رفيف الخُزامى بات طَلٌّ يجودها

٥ — أن يقع حالا نحو : غرد تغريد البلبل .

٦ — أن يقع مبينا للمشبه ، كقوله — تعالى — : « فكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

٧ — أن يقع مضافا إلى المشبه ، نحو : عقيق الشفق ، وسندس الخضرة وثوب العافية ، وما إلى ذلك .

قيمة التشبيه البليغ :

وقد احتفل النقاد بالتشبيه البليغ وأفاضوا فى بيان مزاياه . فعبد القاهر يقول فى بيت المتنبى :

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

فمن يزعم مثلا أنه فى تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت بدت مثل قمر ، ومالت مثل خوط بان إلخ ، أفسد الشعر وخرج إلى شىء مغسول ، وإلى كلام عامى مرذول ، وخرج إلى الغثاثة وإلى شىء يعزل البلاغة عن سلطانها ، ويخفض من شانها ، ويصد أوجها عن محاسنها ، ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا[١] .

ويقول فى قول المتنبى أيضاً :

غضب الدهر والملوك عليها فبناها فى وَجنة الدهر خالا

قد ترى فى أول الأمر أن حسنه أجمع فى أن جعل للدهر وجنة ،

---

(١) دلائل الإعجاز — ٢١٩ .

وجعل البـِنيّة خالا ، وليس الأمر على ذلك ، فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام مُخرجه الذى ترى ، وأن أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله : « فبناها » .

أفلا ترى أنك لو قلت : وهى خال فى وجنة الدهر لوجدت الصورة غير ما ترى[٣] ؟

ويقول عز الدين بن عبد السلام : وإنما كان هذا التشبيه بليغا ، لأنك قد تشبه شيئا بشيء لاشتراكهما فى وصف واحد ، فإذا أردت المشابهة فى جميع الوجوه والصفات أسقطت أداة التشبيه ، حتى كأنه هو من غير فرق بينهما .

وكذلك قد يكون المشبه دون المشبه به فى الصفـــة ، كقولك : زيد كالأسد ، وعمرو كالبحر ، فإذا أردت المبالغة فى وصف الشجاعة والكرم قلت : زيد الأسد وعمرو البحر .

ومثله قوله — تعالى — : «كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رُزِقنا من قبل » .

وقوله — سبحانه — : «فهل ينظرون إلا سنّةَ الأولين » .

ويقول : والعرب إذا شبهوا جِرما بجرم أو معنى بجرم ، فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيها حقيقيا ، وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيها مجازيا ، ولذلك أمثلة منها قوله — تعالى — : « وما جعَل أدعياءكم أبناءكم » أى مثل أبنائكم فى تحريم حلائلكم .

وقوله عز وجل — : « أو نتخذه ولدا » أى مثل ولد .

ومثله قول الناس فى مخاطبتهم : أنا عبدك ومملوكك . أنت سمعى وبصرى

(١) المصدر السابق — ٧٧

ومثله قوله — صلى الله عليه وسلم : — « أنت ومالك لأبيك » .
وفى هذا الحديث مجاز من وجهين :
أحدهما : تشبيههما بما يملكه الأب .
والثانى : أنه أمر بلفظ الخبر ومعناه : نزل نفسك ومالك من أبيك منزلة المملوك من المالك ، وهذا كله يسمى : التشبيه البليغ [1] ! .

ويرجع أهل الرمز حذف أحرف التشبيه إلى قانون الصفاء فى الشعر ، بحيث يمتزج المشبه بالمشبه به ويتحدان ، فيستحيل كل منهما إلى الآخر ، ويتاح للقسم الثانى من التشبيه أن يأتى أشهر من الأول بما يثيره فى النفس ، ولما كان المشبه به أجل وأدق وكان مشتملا على مزايا شعرية أرحب من مزايا المشبه بلغ الشعر بذلك غايته ، أى بإسقاط أحرف التشبيه ، وجعل المشبه نفس المشبه به ، فالشيء يصبح شيئا شبيها بنفسه ولكنه غير نفسه ، إذ يتحول إلى رمز يثيره ويومىء إليه ويوحيه إيحاء

وأدوات التشبيه : كأن والكاف ومثل وسواها تترك قسمى المعادلة التشبيهية متفرقين بينما يوحدهما حذفها [2] .

رأينا فى التشبيه البليغ .

هذه آراؤهم فى التشبيه المحذوف الأداة والوجه ، وإن كان أكثر كلامهم فى المحذوف الأداة .

ونحن لا ننكر قيمة هذا التشبيه ولا نجحد مزيته ، ولكن يجب أن نحترس فى قبول هذه الآراء ، فليس كل ما ورد من هذا النوع يعد بليغا فى نظرنا .

وليس يكفى أن يقع التشبيه محذوف الأداة أو محذوف الأداة والوجه

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز — ٦٤
(٢) الرمزية والأدب العربى الحديث — ١٦٠ — ١٦١ .

معا ليستحق أن يوصف بأنه بليغ ، فالحق أن البلاغة شيء وراء ذلك كله .
والحق أن كثيراً من التشبيهات المرسلة المفصلة أجمل وألطف وأبرع من بعض هذه التشبيهات التي يسمونها بليغة لمجرد أنها مؤكدة مجملة .

ولسنا مع هذا نتعامى عما يفيده هذا التشبيه من التوكيد والتعميم ، وإسباغ معنى الاتحاد على طرفيه ، ولكن ذلك وحده لا يجعله جديراً بهذا الوصف السامى الرفيع ، فهناك اعتبارات أخرى كثيرة تعلو على هذه النظرة الضيقة ، وهى التى يجب أن ينظر فيها إلى التشبيه ، ويوزن حسنه بها ، فإن توافرت له مع خصيصة التقرير والشمول كان جامعا بين الحسنيين ، وكان رجحانه فى ميزان النقد راجعا أكثر إلى المزية الأولى .

وقد فطن المتأخرون من البلغاء — مع انسياقهم وراء التقليد — إلى أن بلاغة التشبيه غير التوكيد والإجمال ، فنسمع الدسوقى يقول : بلاغة التشبيه منظور فيها إلى كونه بعيداً غريباً سواء أكان وجه الشبه تركب من أمور كثيرة أولا ، وسواء ذكرت الأداة أو حذفت .

وإطلاق البليغ على التشبيه الذى حذفت أداته إطلاقا شائعا ، طريقة لبعضهم وإلا فهو يسمى مؤكداً (١) .

هذا هو الحق الناصع ! ومن الممكن أن نعتبر التشبيهات كالحلل والمعارض التى يراعى فى اختيارها ألوان الحسان ، وتفصل على مقادير أجسامهن ، فهذه حسناء يناسب لونها الأزرق أو الأحمر مثلا .

وهذه بدينة أو نحيفة أو طويلة أو قصيرة يشاكل قدها تفصيل خاص والغرض من ذلك تجلية المحاسن وإبراز المفاتن ، وموازاة ما عسى أن يكون من عيوب .

وكذلك التشبيهات يجب أن تخاط على قدود المعانى ، فلا توصف

---

(١) حاشية الدسوقى — ٣ — ٤٥٧ .

بالبلاغة لتأكيدها وإجمالها ، ولكن لأنها أفادت الغرض وأحسنت الأداء عنه ، ووقعت فيها الصورة على المعنى الذى يناسبها أيا كان لون التشبيه .

والفنون الجميلة — كما يقول تشبارلتن — كلها وسائل للتمثيل والتصوير . وهى تكون فى غاية كمالها ، إن تشابهت وسيلة التمثيل والشيء الممثل : أى إذا كان الشيء ووسيلة تصويره فى ظروف متماثلة متشابهة ، ومن ثم كان لكل فن مجال خاص به بحكم خامته ، وإنما يبلغ كل فن درجة كماله الفنى إذا ما أحسن القيام بمهمته (١) .

ونحن نرى كثيراً من التشبيهات البليغة فى عرفهم مغسولة من هذه الصفة ، ولم ينفعها أنها جاءت على صورة البليغ ، وإلا فأى جمال بلاغى فى قول القائل مثلا :

أنت شمس أنت بدر   أنت نور فوق نور

وفى مقابل ذلك نجد أنواعا منها حلت الذروة العليا من البلاغة لمعنى آخر غير الذى أرادوه .

فمن نثر البحترى : الشكر : نسيم النعم (٢) .

فهذه البلاغة التى تعبق من الكلمات حتى لنكاد ننشقها كما نشق نسيم النعم العطر ، لا ترجع إلى تأكيد ولا إجمال ، ولكن مرجعها إلى إصابة المحز وتطبيق المفصل فى المعنى .

فالصنيعة غرس كريم كالروضة النضرة ، وكما تأرج أزهار الروضة ويفوح شذاها ، فكذلك لا بد للصنيعة أن تربو وتزكو فى نفس الحر النبيل فتتفتق رياحينها عن هذا الشكر السائر النافح بالعبير !

وشيء آخر يعود إلى اللفظ ، وهو أنك لو جئت بكاف التشبيه فقلت :

---

(١) فنون الأدب — ١١٤ .

(٢) كان الصاحب يقول فيه : إنى أستحسن قول البحترى ذلك .

الشكر كتسيم النعم ، لكانت هذه الكاف فضلة نابية في موضعها ، ولطال بها الخبر عن مبتدئه طولا فاحشا يُخل من انسجام الصياغة .

هذا إلى أننا لا نمانع أن يكون من قصده حذف الأداة للتوكيد ، فهو لا ينافي ما أوضحناه .

وكذلك قول المتنبي :-

وما الموت إلا سارق دقّ شخصه   يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

فليست البلاغة إلا في إصابة تشبيـــه الموت بالسارق وترشيحه هذا الترشيح البليغ الواقع موقعه .

ونحن لم نر الموت وإن كنا نرى آثاره بيننا ، ولكننا لا نتمارى في أن هذه الصورة التي ابتدعها له المتنبي هي أدنى الصور إليه وأكثرها انطباقا عليه ، وأن جمالها جاء من ناحية دقة التشبيه وطرافته لا تأكيده .

وقول علي بن جبلة في ابن حميد الطوسي :

دجلة تسقي وأبو غانم   يطعم مَن تسقي من الناس

يرتق ما يفتق أعداؤه   وليس يأسو فتقه آسي

والناس جسم وإمام الهدى   رأس وأنت العين في الرأس

فالجمال هنا يرجع إلى جمع البيت بين ثلاثة أشياء مترابطة في ثلاثة تشبيهات ، ثم وضع كل ممدوح في التشبيه الذي يلائم منزلته ؛ فالناس كالجسم ، وأثمن ما في الجسم الرأس ، وأثمن ما في الرأس العين .

وعلي بن جبلة أخذه من قول أبي العتاهية في الرشيد :

تساس من السماء بكل فضل   وأنت به تسوس كما تساس

كأن الكون ركب فيه روح   له جسد وأنت عليه راس

ولكنه زاد في الشرح والترتيب .

وجاء العسكرى فزاد عليهما فى قوله :

أبشر فإنك رأس والعلا جسد والجد وجه وأنت السمع والبصر

ويؤيد ما نقول ان كثيراً من التشبيهات المرسلة أو المرسلة المفصلة تأتى آية فى البلاغة ولا يغض منها هذا الإرسال والتفصيل .

وحسبنا أن أكثر تشبيهات القرآن الكريم مذكورة الأداة .

فقوله — تعالى — : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعُرجون القديم » لو حذفت منه الكاف وقيل فى غير القرآن : حتى عاد عرجوناً قديماً لفقد الكلام كثيراً من بهائه ورونقه ، وذهب منه هذا التنغيم الساحر . فالكاف معقود بوجودها هنا جمال الصياغة وحسن الإيقاع .

وقول العباس الصولى : الأصدقاء كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار ، يشعرك بأن وجود الكاف متعين فيه ، ويكفى أن تقول : الأصدقاء نار لتحكم بصواب ما قلناه ، ذلك لأن التأكيد والتعميم هنا غير مراد للقائل . فليس غرضه أن يقرر أنهم نار فى الإحراق والالتهاب إلى غير ذلك مما يتصل بالماهية ، وإنما غرضه أنهم كالنار فى شى خاص ، وهو نفع القليل منها وضرر الكثير .

وقول تميم بن المعز :

يوم لنا بالنيـــل مختَصر ولـكل يوم مسرةٍ قصر

والسُّفْنُ تصعد كالخيول بنا فى موجه والمـاء ينحدر

فكأنما أمواجه عُكَن وكأنما داراته سُرَر

لا يزرى وجود أداة التشبيه بما اشتمل عليه من تصوير طريف بهيج ، ونظر لطيف نافذ فى مقارنة الأشياء بعضها ببعض وانتزاع أوجه الشبه منها ،

(١) العكنة بالضم : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً .

وخاصة إذا كان الانتزاع من الجوارح الإنسانية البعيدة الخطور بالبال كالعكن والسرر .

وقول شوقى :

وبين الهوى والعذل للقلب موقف كخالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة كخصرك بين النهد والردف واهيا

يخيل إليك من وقوع التشبيه المرسل فى مكانه الذى لا محيد عنه ، أن حذف الأداة لا يستقيم معه التشبيه .

وتأكيد مثل هذا التشبيه لا يضيف إليه حسنا ، لأن حسنه كله مستمد من غرابة تشبيه موقف القلب بالخال ، وهزة الصبر بهزة الخصر .

وكذلك قول الشاعر يصف الفستق :

والقلب ما بين قشريه يلوح لنا كألسن الطير من بين المناقير

لاحاجة به إلى التأكيد والإجمال ، لأن بلاغته جملة وتفصيلا هى فى ابتكار التشبيه ، وحسن التأتى فى الوقوع على الوجه المناسب الذى يعتنق الطرفان فى ظله .

نعم إن ذكر الأداة — كما يقول عبدالقاهر — يقبح حينا ، ولكن لشىء يتعلق بحسن الصياغة والسبك لا للخلو من التأكيد .

فالاسم المنكر خرج بالتنكير عن أن يحسن إدخال حرف التشبيه عليه ، فلو قلت : هو كأسد وهو كبحر كان كلاما نازلا غير مقبول ، كما يكون قولك : هو كالأسد .

إلا أنه وإن كان لا تحسن فيه « الكاف » فإنه تحسن فيه « كأن » كقولك : كأنه أسد أو ما يجرى مجرى كأن فى نحو : تحسبه أسداً أو تخاله أسدا(١) .

(١) أسرار البلاغة — ٢٦٧

وإليك بعض التشبيهات المرسلة التى تجمع بين جمال اللفظ وحسن الصياغة وجودة المعنى ، ودقة الإصابة ، بحيث تحل الصدارة فى مجال التشبيه البليغ ، وإن لم تكن مؤكدة مجملة .

فمن ذلك قول بشار :

جفَت عينى عن التغميض حتى … كأن جفونها عنها قِصار

وقول إسحاق بن خلف فى صفة السيف :

ألقى بجانب خصره … أمضى من الأجل المتاح

فكأنما ذرّ الهبا … ء عليه أنفاس الرياح[1]

وقول أبى نواس يصف السفينة :

بُنيت على قدَر ولاءم بينها … طبقان من قِير ومن ألواح

فكأنها والماء ينطح صدرها … والخيزرانةُ فى يد الملاّح[2]

جَوْن من العقبان يبتدر الدجى … يهوى بصوت واصطفاق جناح

وقوله يمدح الفضل البرمكى :

وكنا إذا ما الحائن الجدّ غرّه … سنا برق غاوٍ أو ضجيج رقاد

تردّى له الفضل بن يحيى بن خالد … بماض الظبا أزهاه طول نجاد[3]

أمام خميس أُرجوان كأنه … قميص محوك من قنا وجياد

وقول البحترى يمدح الفتح بن خاقان :

بلونا ضرائبَ من قد مضى … فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا … ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقّل فى خُلقىْ سؤدد … سماحاً مُرَجّى وبأساً مهيبا

---

(١) الهباء : ما يرى شبيها بالغبار فى ضوء الشمس .

(٢) الخيزرانة : السكان . (٣) أزهاه : رفعه .

فكالسيف إن جئته صارخاً وكالبحر إن جئته مستثيبا [١]

وقوله يهجو إنساناً فى لسانه حبسة :

كأن فى فيه لقمةً عقلت لسانَه فالتوى على حنَف [٢]

محرّكٌ رأسَـــه توهّمه قد قام منعَطسة على شرَف [٣]

وقول صالح بن عبد القدوس :

يشقَى رجال ويشقى آخرون بهم ويُسعد الله أقواما بأقوام

وليس رزقُ الفتى من لطف حيلته لكنْ جدود بأرزاق وأقسام

كالصيد يُحَرمه الرامى المجيدُ وقد يَرمِى فيرزَقه من ليس بالرامى

وقول سعيد بن حميد :

وإنك كالدنيا نذمُّ صروفها وتُوسعها سبّاً ونحن عبيدها

وقول المعز الفاطمى :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد من وجنتيك أطلا

وكأن العذار خاف على الور د ذبولا فد بالشعر ظلا

وقول المتنبى :

وهبت السلو لمن لامنى وبتُّ من الشوق فى شاغل

كأن الجفون على مقلتى ثياب شُقِقن على ثاكل

وقول المعرى :

وهواك عندى كالغناء لأنه حسَن لدىَّ خفيفه وثقيله

وقول مهيار :

وغيرك من سكنت إليه كرها كما سكن العذار إلى المشيب

---

(١) الصارخ : المستغيث . (٢) الحنف : الاعوجاج .

(٣) الشرف : المرتفع .

وقول أبي الفتح البستى :

كأننى فرس الشطرنج ليس له   فى ظل رابطه ماء ولا علف

وقول ابن بليطة :

صبح يلوح وشخص الليل منغمس   فيه كما غــرق الزنجىّ فى النّهر

وقول ابن رشيق :

يا ربّ هتّان تنوء بثقلها   تسقى البلاد بوابل غيداق[1]

مرت فويق الأرض تسحب ذيلها   والريح تحمله على الأعناق

ودنت فكاد الأرض تنهض نحوها   كنهوض مشتاق إلى مشتاق

وقد أخذه الصفدى فقال :

سحابة قد تدلّت   إلى الثرى باشتياق

لو أن للأرض ثقلا   تلازما للعنــــاق

وقول ابن منقذ :

صديق لنا كالليل للنار يستر م   الدخان ويبدى النور للمتنوّر

يوارى إساءاتى ويبدى محاسنى   ويحفظ غيبى فى مغيبى ومحضرى

وقول ابن حجّلة المغربى :

كأن ضباب الأفق ندّ سرت به   نسيم الصبا من نحو أرض الأحبة[2]

كأن الصّدا بين الجبال متيم   ولم يبق منه غير صوت وأنّة

وقول شاعر فى وصف العقعق :

إذا بارك الله فى طائر   فلا بارك الله فى العقعق[3]

---

(١) الغيداق : الغزير المطر .   (٢) الند : الطيب أو العنبر .

(٣) العقعق : طائر أبلق يشبه صوته العين والقاف .

طويل الذنابى قصير الجناح متى ما يجد غفلة يسرق
يقلب عينيه فى رأسه كأنهما قَطرتا زِئْبق

وقول مجير الدين بن تميم :

وكأنما النار التى قد أوقدت ما بيننا ولهيبها المتضرم
سوداء أُحرِق قلبها فلسانُها بسفاهة للحاضرين يكلم

وقول ابن عطية :

بتنا نُدير الراح فى شاهق ليلا على نغمة عُودين
والنار فى الأرض التى دوننا مثل نجوم الجوِّ فى العين
فيا له من منظر مونِق كأننا بين سماءين

وقول شاعر :

أخى قم فعاونِّى على نتف شيبة فإنىَ منها فى عذاب وفى حَرْب
إذا ما مضى المنقاش يأتى بها أتت وقد أُخذت من دونها جارةُ الجَنب
كجانٍ على السلطان يُجْزَى بذنبه تعلّق بالجيران من شدة الرعب

وقول آخر يصف البرق :

وتارة ينبِض باستحياء كلمحة من ذى هوى مرائى
أسرّها خوفا من الأعداء .

وقول آخر :

كأن الشقائق والأقحوان خدود تقبِّلهن الثغور
فهاتيك أخجلهنّ الحياء وهاتيك أضحكهن السرور

وقول البارودى يصف النهر :

كأن الصَّبا تُلقى عليه إذا انبرت   مسائلَ فى الأرقام أو تلعب النردا

وهو مأخوذ من قول ابن السِّيد :

كأنما جائل الحَباب به   يلعب فى جانبيه بالنرد

أو من قول البحترى :

كأنما غدرانها فى الوهد   يلعبن من حَبابها بالنرد



فهرس الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

عندهم . التشبيه الوهمى ودخوله فى العقلى . الفرق بين الخيالى والوهمى . طرفا التشبيه هما الحسيان دون التشبيه نفسه . مذهب الحكماء والمتكلمين فى إدراك الحواس ، ثمرة الخلاف بينهما التشبيه عند ابن رشيق يقع على الأعراض لا الجواهر رأى ابن الأثير وعبد القاهر فى ذلك التشبيه المحسوس طرفين ووجها أسهل أنواع التشبيه حاجة التشبيه المركب إلى إعمال الذهن فى فهمه قيمة الحواس فى تغذية العقل بالمعارف . إدراك الحواس للأشياء عند الجاحظ . رأى حكماء العجم فى تضامن القلب والحواس . تدرج مراحل الإدراك حسب السن . اعتماد العقل على الملكات الذهنية فى صوغ القضايا العامة . أثر البصر فى بناء الصور التشبيهية . الفرق بين وصف المشاهدة ووصف السماع . إحساسات البصر إحساسات تمثيلية عميقة الجذور الانسجام الخفى بين الإدراك البصرى والأفكار . الصور البصرية لدى المكفوفين . حاسة السمع خلقت الفنون الرفيعة قيمة الصوت الاجتماعية . اللهجة تعبير مباشر عن العاطفة . أثر الصوت الرخيم فى الانفعال العاطفى . ارتباط السمع بالعقـــل وفضله على البصر بدلالة الآيات . السمع والبصر والإحساسات الجمالية . رأى أفلاطون فى قيمة السمع والبصر . الحواس يكمل بعضها نقص بعض اعتماد الشعراء كثيراً على غير الإحساسات البصرية . النعوت المستعملة كثيرا فى الشعر . حاسة اللمس تقوم مقام البصر . اللمس أكثر الحواس إمدادا لنا بالنعوت التعبيرية . أثر الشم فى إدراك المناظر ووصفها . إدراك العرب لقيمة هذه الحاسة والتمثيل لذلك من النثر والشعر . الذوق والمتع الجمالية . البلاغة عند أفلاطون . الانفعالات الجمالية ومتع الطعام والشراب . قصور إدراكات الذوق والشم بالنسبة لغيرها . أمثال طريفة فى وصف المدركات الحسية المختلفة .

الفصل الخامس

الفصل السادس

الحركات للألفاظ فى تعاقبها وانطلاقها أكثر من الأجسام الجامدة. ليس للألفاظ شىء من خصائص المكان وإنما تشغل جزءاً من الزمان . الأفعال خير مجال تتجلى فيه قدرة الشاعر على التعبير . اختلاف الشعر والتصوير فى وصف الأجسام وتمثيل الأفعال . وصف الأشياء المتحركة أيسر من وصفها وهى راكدة . وصف ابن خفاجه للجبل ووصف شاعر عصرى لصخرة جبل طارق وتحليل ذلك . وصف طرفة للناقة وسر حسنه . بيان هيئة الحركة فى المركب الحسى مع التمثيل والتحليل . اختلاف حركات الجسم من تركيب وغيره . الاكتفاء من الحركات المركبة بالأوصاف المبهمة . جمال الحركات المركبة فى الجمع بين الاتفاق التام والاختلاف التام . زيادة جمال المركبات الحسية بكثرة التفصيل والتركيب . اعتبار هيئة السكون فى التركيب مع التمثيل لذلك .

الفصل السابع

تشبيه المحسوس بالمعقول ٨٢ — ٩٥

عناية العرب بالمعانى المحسوسة وصور البيان المادية . سر براعتهم فى الشعر دون القصص . مبالغتهم فى التوضيح إلى درجة التجسيم والتشخيص . تشخيص النجوم والليل والوادى والجبل والحرب والبرد واللؤم والرحل والضغن والقلب فى أشعار المهلهل وامرىء القيس والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطفيل الغنوى ومعن بن أوس وأبو ذؤيب وأوس بن مغراء وزهير والحطيئة. مدرسة زهير وتلاميذه وخصائصها . صورة البيان العربى عامة إلى انقضاء العهد الإسلامى . وضوح البيان العربى يلائم النفس العربية وتعليل ذلك . تبدل صور البيان فى العصر العباسى وسبب ذلك . نشأة الشعر الصوفى والشعر الفلسفى والحكمى . ظهور التجريد

والوهم والخفاء فى الشعر . الظن بأن مسلم بن الوليد أسبق الشعراء إلى هذه الطريقة رأى ابن قتيبة فيه . أمثال من شعره وتحليلها . إيغال أبى تمام فى هذه الصناعة وسر ذلك اختلاف النقاد فى شعره بين مفرط ومفرط ومتوسط . نماذج من تجسيمه وتشخيصه . أسبقيته لعصره حجبت محاسنه عن النقاد . تفطن الشهاب الخفاجى إلى هذا اللون من الشعر وانصافه له نموذج من التشخيص الجميل فى شعر المتنبي وغيره . إشارة عبد القاهر إلى هذا المذهب الجديد ورأيه فيه .

الفصل الثامن

مذاهب البلغاء فى تشبيه المحسوس بالمعقول ٩٦—١١٢

إنكار العسكرى له وحجته فى ذلك . حكم جمهرة المتأخرين بعدم تجويزه أصالة وتعليل ذلك ، وتأويل ما جاء منه بأنه من قلب التشبيه . تجويز الرمانى له مع استقباحه وشرح ذلك واعتراضه على شعراء عصره . رد ابن رشيق على الرمانى ودفاعه عن هؤلاء الشعراء واستحسانه لما قالوه واستدلاله على جوازه بما جاء منه فى القرآن الكريم والشعر الفصيح . تجويز ابن السبكى له دون أن يعده من قلب التشبيه ورده على السكاكى والخطيب وغيرهما فيما ذهبوا إليه. رأى ابن الأثير والعلوى فى أنه ألطف التشبيهات وسر ذلك . جواز بعض ألوانه عند المغربى مع الشرح والتدليل . رأى غريب للتنوخى فى تجويز تشبيه المحسوس بالمعقول وعكسه معا أو منعهما معا . سريان الخلاف بين البلغاء إلى وقوعه فى التنزيل الحكيم تفصيل أقوالهم فى تفسير رءوس الشياطين . رأى أبى عبيدة رأى الجاحظ ورده على أهل الطعن والخلاف . رأى المبرد وتفسيره الآية ورده على الملاحـــدة . رأى الأصمعى . رأى ابن رشيق واستدلاله من الشعر . رأى ابن قتيبة . خلاصة مذاهبهم وبيان الراجح

الفصل التاسع

الفصل العاشر

التشبيه المتعدد ١٢٧—١٤٣

الأصل فى التشبيه إفراد الطرفين . عدم التعدد فى تشبيهات القرآن الكريم . التعدد ضرب من المبالغة . تشبيه التسوية . تشبيه الجمع . التشبيه الملفوف والمفروق . أمثال طريفة لكل منها . تعدد الطرفين . تشبيه اثنين باثنين وإكثار الشعراء منه . تشبيه ثلاثة بثلاثة . تشبيه أربعة بأربعة . تشبيه خمسة بخمسة . تشبيه ستة بستة . تشبيه سبعة بسبعة . تشبيه ثمانية بثمانية . تشبيه عشرة بعشرة . أفضل أنواع المتعدد . تشبيه ثلاثة بثلاثة وما فوقه يكثر فى شعر المولدين . المقبول من هذه الأنواع والمتكلف وما قل منه وما كثر . التمثيل لكل هذه الأنواع مع النقد والموازنة .

الفصل الحادى عشر

نشأة التشبيه المتعدد ١٤٤—١٤٨

السابق إلى التعدد امرؤ القيس . أول تشبيه اثنين باثنين وقع فى شعره . احتذاء لبيد العامرى له ثم بشار . موازنة بينه وبين بشار فى تشبيهين وكلمة الحق فى ذلك . تحليل بيت بشار : كأن مثار النقع . . . ذكاء المكفوفين وضرب المثل بعين بشار . سبق امرىء القيس بتشبيه شىء بشيئين وأربعة بأربعة . مزية التشبيه المتعدد ومنزلته البلاغية . نزول قيمته عن التشبيه المركب . كلمات لعبد القاهر والمغربى والحموى والعلوى فى ذلك . عدم وجوب الترتيب بين أطراف التشبيه فى هذا النوع .

الفصل الثاني عشر

القريب المبتذل والبعيد الغريب ١٤٩ — ١٥٩

الفصل الثالث عشر

قيمة التشبيه البعيد ١٦٠ — ١٧٦

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

شعراء التشبيه ٢١٦ – ٢٢١

الفصل السابع عشر

الأشياء التى راجت فى التشبيه ٢٢٢ – ٢٣٦

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

صور هذا التشبيه. منزلته البلاغية . رأى عبد القاهر . رأى عز الدين ابن عبد السلام . بيان المجاز فى الحديث « أنت ومالك لأبيك » . قانون الصفاء فى الشعر وحذف أحرف التشبيه . رأى المؤلف فى بلاغة التشبيه . مبالغة العلماء فى قيمة التشبيه البليغ بالمعنى المتعارف . ليس من الحق أن يسمى بليغاً بل مؤكداً . جوهر البلاغة لا يرجع إلى التأكيد والإجمال . الخصائص التى تتحقق بها بلاغة التشبيه . متى يبلغ الفن درجة كماله . كثير مما يسمى بليغاً مفصول من البلاغة . تشبيهات مؤكدة ترجع بلاغتها إلى غير التأكيد . أكثر تشبيهات القرآن مذكورة الأداة . تشبيهات يذهب جمالها بالتوكيد . متى يقبح ذكر أداة التشبيه ؟ أمثال طريفة للتشبيهات المرسلة البليغة .

تم الجزء الثانى والحمد لله على نعمائه